مع الإيمان في رحاب القرآن

تأليف

الدكتور
محمد محمد خليفة

الطبعة الأولى
١٩٧٩

ملتزم النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ بشارع عدلي باشا بالقاهرة

دار الاتحاد العربي للطباعة
لصاحبها : محمد عبد الرازق
١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش
تليفون ٩٣٤٠٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والهدى هدى الله ، وما توفيقى إلا بالله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه .

وبعد . .

فإنه لم يظفر كتاب سماوى ، أو غير سماوى ، بما ظفر به القرآن من البحث والدراسة فى مختلف العصور والأحقاب ، منذ خلق الله الإنسان ، وسيعيش على الزمن مجالا للدارسين والباحثين إن شاء الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

فالقرآن منذ أربعة عشر قرناً الوجهة التى تتجه إليها العقول والأفكار والقبلة التي تتحرك فى محرابها الأرواح .

فى خدمته دونت علوم القرآن من قراءات ، إلى عدّ الآى والفواصل ، إلى الرسم والضبط ، إلى التجويد .

ومنه اتخذ علماء النحو واللغة شواهدهم على ما قَعَّدُوا من قواعد لأنه بلسان عربى مبين ، وقد حفظه الله فى الصدور والسطور حتى وافانا كما أنزل لم تتبدل منه كلمة ، ولم يتغير فيه أسلوب ، وقد أعربه منهم أكثر من معرب فى مختلف العصور .

ووقف المفسرون أمام آياته يفرغون كل جهد ليفتحوا أمام عقول

الأجيال ما تقف أمامه الأفهام ، واختلف المفسرون فى تفاسيرهم وفق تمكنهم من العلوم أو اتجاهاتهم ، فعنى بعضهم بالقصص الذى دار حول نزول بعض آياته ، وعنى البعض بما جاء فيه من أحكام شرعية ، وجمع البعض كل ذلك أو بعض ذلك أو غير ذلك .

وكان القرآن المصدر الأول للشريعة الإسلامية ، فراح الفقهاء يستنبطون منه الأحكام فيما تحتاجه البشرية فى عباداتها ومعاملاتها ، وما يقوم عليه بناء المجتمع السليم من آداب .

ووقف عنده علماء العقيدة يأخذون منه أدلتهم على قدرة الله كما يأخذون صفاته ، ويعايشون الآيات الداعية إلى الإيمان ، وغيرها مما يتصل بالعقيدة . . .

وأما علماء البلاغة فقد اتجهوا إلى القرآن يبحثون نظمه ونسق تراكيبه وروعة بيانه ، وما فيه من إيجاز أو إطناب ، وما بين آياته من روابط الفصل أو الوصل ليصلوا من كل ذلك إلى إعجاز بيانه ، ذلك الإعجاز الذى تحدى به العرب ، بل الإنس والجن جميعاً (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ والْجِنُّ عَلَى أن يأْتُوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثْلِهِ ولو كان بعضُهُمْ لبعضٍ ظهيراً) .

ثم كان القرآن المنهل الصافى لرجال الأدب حيث ارتوت منه عقولهم ، ونهلت من ينابيعه أفكارهم ، وجذبتهم إليه الروائع التى لم يجدوها فى بيان شعرى أو نثرى قبله أو بعده .

وقد وقفوا أمام قصصه مشدوهين بحسن العرض وجمال البيان . .

وكم دارت حول القرآن من بحوث اتجه بعضها إلى إعجازه ، وبعضها إلى بلاغته وبيانه ، وبعضها إلى قراءاته . .

وكم ألفت فيه مؤلفات ، وكم تصدى العلماء للرد على الطاعنين فى أن القرآن من عند الله .

ولم تنم عقول والعلماء فى مختلف العصور عن البحث فى كل ما جاء به القرآن الكريم .

وقد أثير موضوع ترجمة القرآن فى العصر الحديث وأيقن المحاولون بعجزهم عن ترجمة حرفية تؤدى المعانى القرآنية على النحو الذى جاء به القرآن وفهم ما جاء من أساليبه ، ومن ثم اتجهوا أخيراً إلى ترجمة تفسير القرآن ليوصلوا ما يحمله القرآن ، آخر كتاب سماوى ، من عقيدة وتشريع وآداب إلى أولئك الذين لا يتكلمون العربية من المسلمين وغيرهم .

ولعلى حين أقدم للقراء كتاب « الإيمان فى رحاب القرآن » أكون قد وفيت شيئاً من الدين الذى وضعه الله فى عنق كل عالم من علماء المسلمين ، ليفتحوا للباحثين فى العصر الحديث ما لم يفتحه العلماء القدامى الذين شغلوا فى مختلف العصور بمهام أخرى حول القرآن .

والله أسأل أن ينفع بما أقدمه إنه سميع مجيب ؟

د . محمد محمد خليفة

الإيمـــان

الإيمان فى اللغة : التصديق ، وقد جاء بهذا المعنى على لسـان إخوة يوسف لأبيهم فيما حكاه القرآن حيث قالوا :(وما أنتَ بمؤمنٍ لنا ولَوْ كنَّا صادقين) أى ما أنت بمصدق لنا .

وقد اختلف العلماء فى تعريف الإيمان ، فعرفه بعضهم بالتصديق متأثراً بالمعنى اللغوى له ، وعرفه بعضهم : بالتصديق المقترن بالعمل، وعرفه البعض بالخشية ، وبينه البعض بأنه الاعتقاد القلبى والتصديق القولىّ والقيام بما يتطلبه الاعتقاد من العمل .

وفسر بعضهم الإيمان بالصلاة فى قوله تعـالى : (وما كانَ اللهُ لِيُضيْعَ إيمَانَـكُمْ) أى صلاتكم التى صليتموها إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة .

كثرة ورود الإيمان في القرآن :

لقد كثر ورود كلمة الإيمان وما اشتق منها فى القرآن من ماض أو مضارع أو أمر أو اسم فاعل مفرداً كان أو مجموعا حيث تجاوز الإحصاء الثمانى مائة .

وقد جمعت ما جاء منها فى موضوع واحد تحت عنوان واحد ، فكان من ذلك :

الفصل الأول : نداء المؤمنين .

« الثانى : الإيمان مع خطاب الرسول وندائه .

الفصل الثالث : الإيمان المقترن بالعمل .
« الرابع : ما جاء من الإيمان حول المؤمنين .
« الخامس: الإيمان في القصص القرآني .
« السادس: « الذى جاء حول مؤمنى أهل الكتاب .
« السابع : « « « الكتابيين .
« الثامن : « « « المنافقين ومواقفهم من الإيمان أو المؤمنين .
« التاسع : « « « الكفار ومواقفهم من الإيمان أو المؤمنين .

الفصل الأول

نداء المؤمنين فى القرآن

لقد نادى مالك السموات والأرض وخالق ما فيهما ومن فيهما من العوالم عبيده أو عباده المؤمنين نداء تنتفض معه قلوب الذين يشفقون على أنفسهم من خشية الله ، وتخشع أمامه مشاعر الذين يدركون قدرة الله فى آياته التى يزخر بها ملكوته .

وإن المؤمنين لتصيخ أسماعهم وأرواحهم إلى صوت الحق يناديهم : (يا أيها الذين آمنوا) فتتفتح قلوبهم لتلقى ما بعد النداء من أمر أو نهى أو حكم شرعى أو إرشاد ، وإن قلوب المؤمنين لتحس فى ذلك النداء صوت الروح الأمين الذى دوى فى روح محمد صلى الله عليه وسلم فهتف به رسول الله يبلغ مانودى به عن ربه ، وتلقاه عنه أصحابه رضى الله عنهم ، وكلهم آذان تسمع ، وقلوب تتجاوب وجوارح تستجيب .

وعاش نداء الله على لسان الوجود يتردد فيتجاوب معه من هداه الله حتى بلغ أسماع حاضرنا ، وسيهز الوجود دويه حتى يقرع الدنيا صوت القارعة ، وقد نادى الله سبحانه وتعالى المؤمنين فى ثمانية وثمانين موضعاً فى القرآن .

(ا) النداء الذى أعقبه أمر :

نادى الله المؤمنين ليأمرهم بالاستعانة بالصبر والصلاة عند الشدائد فقال

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)(١) .

لقد أوجب الله فى الآية السابقة العبادات بقوله (فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُم واشكروا لى) ثم قدم فى هذه الآية ما يعين على الذكر والشكر ، وهو الصبر والصلاة ، وفى الصبر إخضاع النفس وإعدادها لتحمل المكاره والمشاق حتى تسهل عليها الطاعات ، وفى الصلاة تذلل للمعبود ، وهذا النهج يعين على احتمال المشاق فى غيرها من العبادات ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر أو نزلت به شدة فزع إلى الصلاة ، وقد ضمن الله للمؤمنين الذين ناداهم توفيقاً إذا هم استعانوا على طاعاته بالصبر والصلاة (ويزيدُ اللهُ الذينَ اهتَدَوْا هُدًى) .

●★●

وينادى الله المؤمنين ليأمرهم بأمرين ، أولهما : الأكل من طيبات ما رزقهم ، وثانيهما : الشكر .

والطيب فى اللغة ما تستلذه النفس وتستطيبه ، ولعل بعض الناس كان يظن أن التوسع فى المطاعم والإكثار من طيباتها ممنوع فأباحه الله بقوله : (كلوا من طيبات ما رزقناكم) لذائذ ما أحله الله للناس . وكان ثانى الأمرين : الشكر ، بالقلب أو باللسان أو بالجوارح ، على معنى أن الله مستحق للتعظيم وإظهار ذلك التعظيم باللسان وغيره .

جاء ذلك في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ

---

(١) البقرة

مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)(١) .

والمعنى : إن كنتم تريدون أن تعبدوا الله فاشكروه ؛ لأن الشكر أساس العبادة . .

أو واشكروا الله الذى رزقكم هذه النعم إذا صح أنكم تخصونه بالعبادة وتقرون أنه وحده المنعم .

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بالدخول فى السلم وينهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، لأنه عدو الإنسان فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)(٢)

وأصل السلم الانقياد ، قال تعالى : (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ) .

والكثير من المفسرين حملوا السلم على الإسلام ، وذكروا وجوهاً فى تأويل الآية :

أحدها : أن المراد هم المنافقون ، والتقدير : يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم ادخلوا بكليتكم فى الإسلام ولا تتبعوا خطوات الشيطان وتزيينه لكم الإقامة على النفاق .

وثانيها : أنها نزلت فى مسلمى أهل الكتاب من أمثال عبد الله بن سلام ، وذلك لأنهم بعد إسلامهم أقاموا على تعظيم شرائع موسى فعظموا السبت وكرهوا لحوم الإبل وألبانها ، فكره الله منهم ذلك وأمرهم أن يدخلوا فى شرائع الإسلام ولا يتمسكوا بشىء من أحكام التوراة لأنها

---

(١) البقرة (٢) البقرة

نسخت بشريعة الإسلام ، ونهاهم ألا يتبعوا خطوات الشيطان فى التمسك بأحكام التوراة بعد نسخها .

وثالثها : أن المراد هم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بالنبى فناداهم : يا أيها الذين آمنوا بالكتاب المتقدم ادخلوا فى السلم كافة ، أى أكملوا طاعتكم فى الإيمان وادخلوا بإيمانكم بمحمد وبكتابه فى السلم .

وقد يكون المراد بالسلم فى الآية الصلح وترك المحاربة .

وقد يكون النداء للمؤمنين المصدقين بقلوبهم وألسنتهم ليأمرهم بالانقياد والاستسلام للطاعات وترك المنهيات ، أو ليأمرهم بترك الانتقام أخذاً من قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (خُذِ العفْوَ وَأْمُرْ بالعرفِ وأعْرِضْ عن الجاهلين) أى ادخلوا جميعاً فى السلم ولا تختلفوا أو تتفرق كلمتكم ، ولا تقتفوا آثار الشيطان وخطواته فإنه العدو المبين لبنى الإنسان لأنه يوسوس لهم ويغويهم ويلقى الشبهات فى قلوبهم .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بالإنفاق من طيب الكسب فقال :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ولاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُم بآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) (١).

اختلف المفسرون فى الإنفاق المراد فى هذه الآية ، فقال البعض : المراد منه الزكاة المفروضة .

---

(١) البقرة

وقال البعض : المراد منه التطوع ؛ وقال آخرون : يشمل الفرض والنفل.

وقد روى عن على والحسن ومجاهد أن الناس كانوا يتصدقون بشرار ثمارهم وردىء أموالهم ، فأنزل الله هذه الآية .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء رجل ذات يوم بعذق حشف فوضعه فى الصدقة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بئس ما صنع صاحب هذا » فأنزل الله هذه الآية .

وظاهر الآية يدل على كل ما يكتسبه الإنسان ، فيدخل فيه زكاة التجارة والذهب والفضة .

واختلف فى الطيِّب المراد فى هذه الآية ، فقيل هو الجيد دون الردىء ، وقيل : هو الحلال .

والخبيث : هو الحرام .

وأصل الإغماض : غض البصر ، والمراد منه هنا : المساهلة .

وختم الآية ببيان أن الله غنى عن الصدقات ، وهو محمود على ما أنعم به .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بالإنفاق مما رزقهم فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)(١) .

لقد اختلفوا فى الإنفاق المطلوب فى الآية : أهو الإنفاق الواجب كالزكاة

(١) البقرة

أم هو عام فى كل إنفاق ؟ فقال بعضهم : إن المراد هو الإنفاق الواجب ، لأن قوله بعد الأمر بالإنفاق (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خُلة) بمثابة الوعيد ، وهذا الوعيد لا يكون إلا إذا كان الإنفاق واجباً .

وقال الكثير من المفسرين : إن الأمر يتناول الواجب والمندوب ، وليس فى الآية وعيد ، وإنما المعنى لا يفوتكم تحصيل المنافع الأخروية حين تكونون في الدنيا ، فإنكم إذا فارقتموها لا يمكنكم تحصيلها فى الآخرة .

وقال البعض : إن المراد الإنفاق فى الجهاد ، لأن الآية ذكرت بعد الأمر بالجهاد .

ومعنى الآية : قدموا لأنفسكم من المال الذى فى ملككم قبل أن يأتى يوم القيامة حيث لا تجارة ولا مبايعة ، كما أنه ليس فيه خلة أو مودة وليس فيه كذلك شفاعة ، لأن كلاً مشغول بنفسه (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) وقد غلب فيه الخوف على النفوس فهى فى شغل بمصيرها ، والكافرون هم الذين ظلموا أنفسهم فوضعوا الأمور فى غير مواضعها ، وكان ظلمهم لأنفسهم أنهم تركوا الإنفاق فى سبيل الله وتركوا تقديم الخيرات ليوم يحتاجون فيه إلى ما يُفدون أنفسهم به من العذاب .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بتقوى الله حق التقوى ، فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[1] .

---

(١) آل عمران

وقد قيل : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين لأن حق تقاته أن يُطاع فلا يُعصى طرفة عين ، وأن يُشكر فلا يُكفر ، وأن يُذكر فلا يُنسى ، والعباد لا طاقة لهم بذلك ، فأنزل الله بعد ذلك : (فاتقوا الله ما استطعتم) .

ومعنى قوله (اتقوا الله حق تقاته) : أى كما يحق أن يتقى ، وذلك بأن تجتنب جميع معاصيه .

وأقيموا على الإسلام حتى إذا أتاكم الموت أتاكم وأنتم على الإسلام .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى فقال : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُون)[1] .

والصبر يشمل الصبر على مشقة النظر فى آيات الله للوصول إلى عظمة قدرته ، والصبر على مشقات أداء واجباته ، والصبر على مشقة البعد عن منهياته والصبر على الشدائد والأحداث والأمراض .

والمصابرة : تحمل المكاره ، وترك الانتقام ، والإعراض عن الجاهلين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : وقيل : المصابرة مغالبة أعداء الله فى الجهاد بالصبر على أهوال الحروب بحيث يفوقهم المسلمون ثباتاً .

وأما المرابطة فقيل : هى مرابطة الخيل فى الثغور استعداداً للقتال لإعلاء كلمة الله ، وقيل : المرابطة : انتظار الصلاة بعد الصلاة .

●★●

(١) آل عمران

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بطاعة الله والرسول وأولى الأمر ، ثم ليبين لهم الرجوع إلى الكتاب والسنة إذا اختلفوا فى أمر من أمور دينهم وذلك فى قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)[١] .

وهكذا بعد أن أمر الله الرعاة بأداء الأمانات إلى أهلها وأن يحكموا بالعدل نادى المؤمنين فأمرهم بطاعة الله والاستجابة إلى ما جاء فى كتابه الكريم وأن يطيعوا رسول الله في كل ما يأمر به لأنه (ما ينطق عن الهوى) وأن يطيعوا أولى الأمر الذين يوافقون فى أحكامهم ما أمر الله ورسوله به .

وقد اختلف المفسرون فى بيان أولى الأمر ، فقال البعض : هم الحكام الذين يحكمون بالحق . وقيل : هم أمراء السرايا ، وقيل : هم العلماء الذين يعلمون الناس الدين ، ويأمرونهم بالمعروف ، وينهونهم عن المنكر ، ثم بين الله للمؤمنين الرجوع إلى كتابه وسنة رسوله إذا اختلفوا مع أولى الأمر فى شيء من أمور الدين ، وهذا النص صريح فى أن الكتاب والسنة يقدمان على القياس .

وقوله : (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) محمول على التهديد ، وذلك الذى أمرهم الله به خير للمؤمنين وأحسن عاقبة لهم ، والتأويل من المآل وهو المرجع والعاقبة .

---

(١) النساء

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بأخذ الحذر فى الجهاد وأن ينفروا ثباتاً أو جميعاً فقال :

(يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا جَمِيعاً)(١) .

وكأنه قد جعل الحذر آلة يقى بها المؤمن نفسه ويعصم روحه بها من الهلاك ؛ والمعنى : احترزوا من العدو ولا تمكنوه منكم ، وقيل : المراد بالحذر السلاح ، فكأنه أمر بأخذ السلاح حين قال : خذوا حذركم ، أى سلاحكم ، ثم أمرهم الله بالنفير ، وهو النهوض لقتال العدو ، ويقال : استنفر الإمام الناس ، والنفير يطلق على القوم الذين ينفرون ، ومعنى الآية : انفروا إلى قتال عدوكم ، والثُّبَاتُ : الجماعات المتفرقة ، ومعنى قوله: فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً ، أي انفروا لمقابلة الأعداء سرية بعد سرية ، أو انفروا مجتمعين كوكبة واحدة وذلك حسب ما يراه المخططون للمعارك .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بالقيام بالقسط والعدل ولو على أنفسهم أو والديهم وأقربائهم ، ولينهاهم عن اتباع الهوى ، وذلك فى قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَٱللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)(١) .

---

(١) النساء

فى هذه الآية يأمر الله المؤمنين بأن يكونوا مبالغين فى اختيار العدل وأن يبتعدوا عن الجور والميل ، وأن يقيموا الشهادة لوجه الله ولو كانت الشهادة على أنفسهم أو آبائهم أو أقاربهم ، وإن يكن المشهود عليه غنيا أو فقيراً فلا تكتموا الشهادة إرضاء للغنى أو رحمة بالفقير فالله أولى بهما وبمصالحهما واتركوا متابعة الهوى حتى توصفوا بالعدل .

وإن تلوموا أو تنحرفوا عن طريق العدل أو تعرضوا عنه فإن الله خبير بما تعملون ، وفى هذا الأسلوب الذى ذيلت به الآية تهديد ووعيد للمنحرفين الذين يلوون وجوههم عن العدل .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بالإيمان بالله ورسوله والقرآن والكتاب الذي أنزل من قبل والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر فقال :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمنُوا آمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ والكِتَابِ الذى نَزّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالكِتَابِ الذى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ باللهِ وملاَئِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً)(١).

تأول المفسرون فى بيان المؤمنين الذين ناداهم الله فى الآية إلى وجوه :

الأول : أن المراد بهم المؤمنون من أتباع الرسول وهنا يكون مظنة سؤال : كيف يطلب منهم الإيمان وقد وصفهم الله به حين ناداهم؟وأجيب بأن المطلوب هو الثبات والمداومة على الإيمان ،أو ياأيها الذين آمنوا على سبيل التقليد آمنوا على سبيل الاستدلال بعد وضوح الأدلة .

---

(١) النساء

الثانى : أن المراد بالمؤمنين جماعة من أحبار اليهود جاءوا إلى الرسول فقالوا : يارسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسل فقال صلى الله عليه وسلم : بل آمنوا بالله وبرسله وبمحمد وبكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله فنزلت هذه الآية فآمنوا بما أمروا به .

الثالث : النداء للمؤمنين الذين نافقوا والتقدير : ياأيها الذين آمنوا باللسان آمنوا بالقلب ، ويؤكد هذا التأويل قوله تعالى فى آية أخرى : « من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم »، والمراد بقوله تعالى والكتاب الذى أنزل من قبل جنس الكتاب .

وبين الله أن من يكفر بشىء من ذلك الذى بينه فى الآية فقد ضل لأن الكفر بالبعض كفر بالكل ولهذا قدم الأمر بالإيمان بها جميعا .

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بايفاء العقود وذلك فى قوله تعالى :
(يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)[1].

يقال : وفى بالعهد وأوفى به ومنه والموفون بعهدهم وقد ورد فى القرآن وفى بالتضعيف فى قوله تعالى : «وإبراهيم الذى وفى» وورد أوفى كثيراً ومنه أوفوا بالعقود وأما وفى ثلاثيا فلم يرد منه إلا قوله : « ومن أوفى بعهده من الله» فهو أفعل تفضيل من وفى ولايبنى أفعل التفضيل إلا من ثلاثى، والعقد العهد الموثق المحكم وتلك العقود هى عقود الله التى عقدها على عباده وأوجبها بالتكليف وقيل هى ما يعقدون بينهم من عقود الأمانات والظاهر

---

(١) المائدة

أن المراد عقود الله عليهم فى الدين من تحليل الحلال وتحريم الحرام بدليل إجماله بايفاء العقود ثم تعقيبه بالتفصيل بعد ذلك فى بقية الآية من قوله : أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم وذلك الذى يتلى بينه فى آية أخرى بعد ذلك فى قوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » إلخ الآية .

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بأن يكونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولينهاهم عن عدم العدل حين يحملهم بغضهم لأعدائهم على ذلك ثم ليأمرهم ثانيا بالعدل وذلك فى قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ ولاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لاَ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)(١) .

وهكذا نادى الله المؤمنين ليحملهم مع هذا النداء أمرين من التكليف :

الأول : تعظيم أمر الله تعالى والقيام له بالحق فى كل مايلزم القيام به من إظهار العبودية وتعظيم الربوبية .

والثانى : الشفقة على خلق الله التى بينها فى قوله : « شهداء بالقسط » بحيث لا يحابون فى شهادتهم أقرباءهم أو أحبابهم .

ثم نهى الله المؤمنين ألا يحملهم بغضهم لقوم على الجور عليهم وتجاوز الحد معهم .

---

(١) المائدة

ثم أمر المؤمنين ثانيا بالعدل مبينا علة ذلك الأمر بأنه أقرب للتقوى من عذاب الله ثم أمر المؤمنين بالتقوى وذيل الآية ببيان أنه لايخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء فهو الخبير بكل ما يعمل الناس وهو محاسبهم على مايعملون وفى ذلك التذييل وعد للمؤمنين ووعيد للمخالفين .

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بالتقوى وطلب الوسيلة إليه والجهاد في سبيله ، وذلك فى قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيهِ الوَسِيلَةَ وجَاهِدُوا وفى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(١) .

إن مجامع التكاليف تنحصر فى أمرين :

أولهما : ترك المنهيات ، وإلى ذلك أشار بقوله : اتقوا الله .

وثانيهما : فعل المأمورات ، وإلى ذلك أشار بقوله : « وابتغوا إليه الوسيلة » ، والوسيلة مايتوسل ويتقرب به إلى الله من فعل كل مايؤمر به العبد ، وطلب الوسيلة يكون فى تحصيل رضائه بالعبادات والطاعات .

وإن ترك مالا ينبغى وفعل ماينبغى كلاهما شاق على النفس ولهذا أتبع ذلك بقوله تعالى : « وجاهدوا فى سبيله » أى جاهدوا النفس فى سبيل عبوديته والإخلاص فى خدمته لعلكم تفلحون فى الخلاص من المكروه والفوز بالمحبوب .

● ★ ●

---

(١) المائدة

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بأن يلزموا إصلاح أنفسهم لأنه لا يضرهم من ضل إذا ما اهتدوا فقال :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)[1] .

وعليكم اسم فعل أمر بمعنى الزموا إصلاح نفوسكم .

وقد كان المؤمنون تتقطع نفوسهم حسرات على أهل العناد ويتمنون دخولهم فى الإسلام فقيل لهم : عليكم إصلاح أنفسكم والسير بها فى طريق الهدى ، ولا يضركم خلال غيركم إذا اهتديتم .

وليس المراد بهذا ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإن تاركهما ليس بمهتد بل هو ضال وقد سأل أبو ثعلبة الخشنى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقال له الرسول : «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا مارأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك نفسك ودع أمر العوام وإن من ورائكم أياما الصبر فيهن كقبض على الجمر للعامل منهم أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله» .

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بطاعته وطاعة رسوله ولينهاهم عن التولى عن الرسول وذلك فى قوله :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ولاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ)[2] .

---

(١) المائدة　　　(٢) الأنفال

إن الآيات من أول السورة تدور حول الجهاد وقد نادى الله المؤمنين فى هذه الآية ليأمرهم بطاعته وطاعة رسوله وألا يتولوا عنه وعن قبول قوله وعن معونته فى الجهاد وهم يسمعون نداءه .

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بالاستجابة له ولرسوله إذا دعاهم لما يحييهم فقال :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وللرسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) (١) .

والمراد بالاستجابة : الطاعة والامتثال وبالدعوة التحريض — روى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم مر على باب أبى بن كعب فناداه وهو فى الصلاة فعجل فى صلاته ثم جاء فقال الرسول مامنعك عن إجابتى قال : كنت أصلى قال ألم تخبر فيما أوحى إلى :

استجيبوا لله وللرسول ؟ قال : لاجرم لاتدعونى إلا أجبتك .

وقيل المراد بقوله : لما يحييكم : علوم الديانات والشرائع لأن العلم حياة

أو المراد : مجاهدة الكفار وفى مجاهدتهم وقتلهم حياة للمسلمين .

أو المراد : الشهادة لقوله تعالى : « بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بالثبات فى القتال فقال :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمنُوا إذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تفْلِحُون) (٢) .

---

(١) الأنفال (٢) الأنفال

والمراد بالفئة : جماعة الكفار وقد أمر الله المؤمنين بالثبات فى لقاء الكفار وأن يذكروا الله كثيراً فى مواطن الحرب وأن يستنصروا به ، وأن يدعوا على أعداء الله بأن يقطع دابرهم ويخذلهم ويشتت شملهم لعل فى كل هذا ما يعين على النصر .

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بتقوى الله وأن يكونوا مع الصادقين وذلك فى قوله :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)(١) .

وهكذا نادى الله المؤمنين ليأمرهم باتقاء الله في مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم وأن يكونوا مع الصادقين فى الجهاد أى مع الرسول وصحبه فى الغزوات وألا يتخلفوا عنه كما تخلف المنافقون

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بقتال من يليهم من الكفار كما أمرهم بإظهار الغلظة على الكفار فقال :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمنوا قَاتِلُوا الذينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المتَّقِينَ)(٢).

لما أمر الله بقتال المشركين كافة وجههم إلى الطريق الأرشد وهو البدء بقتال الأقرب فالأقرب ، والغلظة قد تكون أقوى تأثيرا فى الزجر ،والغلظة المطلوبة فيما يتصل بالدعوة إلى الدين بأحد أمرين : باقامة الحجة أو بالجهاد والقتال .

---

(١) التوبة

(٢) التوبة

وإن الله مع المتقين الذين يقدمون على القتال والجهاد بسبب تقوى الله لا للمال أو الجاه .

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بالركوع والسجود وعبادته وفعل الخير وذلك فى قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمنُوا آرْكَعُوا وآسْجُدُوا وآعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلوا الخيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون) (١) .

إن المراد من قوله تعالى : « اركعوا واسجدوا » هو الصلاة لأن أعظم أركان الصلاة : الركوع والسجود ثم أمر المؤمنين بعبادته فى جميع المأمورات والمنهيات ثم أمرهم بفعل الخير قال ابن عباس : المراد بفعل الخير : صلة الرحم ومكارم الأخلاق ، ولعل فعل كل ذلك يوصل إلى الفوز بنعيم الآخرة وفى ذلك الفلاح كل الفلاح .

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بتذكر نعمه عليهم فى غزوة الأحزاب فقال :
(يَا أَيُّهَا الذينَ آمنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ آللهِ عَلَيْكُمْ إذْ جَاءَتْكُمْ جُنودٌ فأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وجُنوداً لم تَرَوْهَا وكَانَ اللهُ بما تَعْمَلُونَ بَصِيراً * إذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ومِنْ أَسْفلَ مِنْكُمْ وإذ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونَا) (٢) .

لقد اجتمع المشركون واليهود وأجمعوا أمرهم على غزو المدينة ، واشتد

---

(١) الحج (٢) الأحزاب

الأمر على أصحاب رسول الله وأمر الرسول بحفر الخندق الذى أشار به سلمان الفارسى حول المدينة ولكن الله القاهر أرسل على الأحزاب ريحا باردة وأرسل الملائكة ، وقذف الرعب فى قلوب المشركين فأطارت الريح الخيام وكفأت القدور ، وطاروا على ظهور الخيل والجمال ، والخوف يسوقهم بعد أن جاءوا المدينة من فوقكم أى من جانب الشرق ومن أسفل منكم أى من جانب الغرب وهم أهل مكة وزاغت أبصار المسلمين وبلغت القلوب الحناجر كناية عن غاية الشدة وظنوا بالله وبنصره للمؤمنين الظنون وقد تناولت السير القصة كاملة .

وقد أمر الله المؤمنين فى الآية بان يذكروا نعمة الله عليهم ونصره لهم فى هذا الموقف .

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بذكر الله وتسبيحه فى البكور والأصائل فقال :

(يَا أيُّهَا الذينَ آمنوا اذكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً وسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأصِيلاً) [١] .

فى كثير من القرآن ذكر الله الذكر ووصفه بالكثرة ليداوم المؤمن دائما على ذكر الله والإكثار منه ، وأنه ينبغى أن يكون ذكر الله على وجه تعظيمه وتنزيهه عن كل سوء ، وهو المراد بالتسبيح وقيل المراد من التسبيح الصلاة وقيل للصلاة تسبيحه .

---

(١) الأحزاب

والمراد بالبكرة والأصيل المداومة فذكر الطرفين يفهم منه ذكر الوسط فذكر البكرة والأصيل يفيد عموم اليوم .

● ★ ●

ثم نادى الله المؤمنين ليأمرهم بتقوى الله وسداد القول فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أعمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم)[١].

أرشد الله المؤمنين إلى ماينبغى أن يصدر عنهم من الأفعال والأقوال: أما الأفعال فينبغى ألا يصدر منها إلا الخير وأما الأقوال فيجب أن لايكون منها إلا الحق .

لأن من أتى الخير وترك الشر فقد اتقى الله ، ومن قال الصدق فقد قال القول السديد ثم وعدهم الله على الأمرين بأمرين : وعد على الخير باصلاح الأعمال فبتقوى الله يصلح العمل ووعد على القول السديد بغفران الذنوب

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليامرهم بالتقوى وليخبرهم بأن للذين أحسنوا فى الدنيا حسنة وأن أرض الله واسعة لمن أراد الاشتغال بالطاعات وذلك فى قوله تعالى :

(قُلْ يا عِبَادِىَ الذينَ آمنوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وأَرْضُ اللهِ واسِعَة)[٢].

وهذا لون جديد من نداء الله للمؤمنين وقد رأينا فيما سبق لونا واحدا

---

(١) الأحزاب (٢) الزمر

من نداء الله للمؤمنين (يا أيها الذين آمنوا) وهنا ينادى الله عباده المؤمنين فيضيف العباد إلى نفسه ثم يصفهم بالموصول وصلته (الذين آمنوا) ليأمرهم بالتقوى وهذا أمر المؤمنين بأن يضموا إلى إيمانهم تقوى الله حتى لا يبطلوا إيمانهم لأنه عند اتقائهم من الكبائر يسلم لهم الثواب .

فالذين أحسنوا فى الدنيا لهم حسنة فى الآخرة وهى الجنة أو الذين أحسنوا فلهم فى هذه الدنيا حسنة ثم بين للمؤمنين أنه لا عذر لهم فى التقصير فى العبادة فإذا ضيقت عليهم عبادة الله فى أرض ما فليتحولوا إلى عبادته فى غيرها فأرض الله واسعة فليشتغلوا بالطاعات والعبادات فى مهجرهم وبهذا يرغبهم الله فى الهجرة من موطن إلى آخر تطيب لهم فيه عبادة ربهم .

● ★ ●

ونادى الله للمؤمنين ليأمرهم بطاعة الله والرسول وينهاهم عن إبطال أعمالهم فقال :

(يَا ايها الذِينَ آمنوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ)[1] .

إن طاعة الله تحمل على طاعة الرسول وقد نادى الله المؤمنين أن يداوموا على طاعة الله وطاعة الرسول بفعل الخير الذى أمر به الله ورسوله وألا يبطلوا أعمالهم بالشرك قال تعالى : « لئن أشركت ليحبطن عملك » ، أو لا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة الرسول كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه أو لا تبطلوا أعمالكم بالمن والأذى لأن من يَمُنُّ بعمله على الرسول فقد فقد الإخلاص لله فيما يعمل .

● ★ ●

---

(١) محمد

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم باجتناب الظن ولينهاهم عن التجسس والغيبة فقال :

(يا أيها الذينَ آمنوا اجْتَنِبُوا كَثيراً منَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ولاَ تَجَسَّسُوا ولاَ يَغْتَبْ بَعضُكُمْ بَعْضاً)(١).

لقد أمر الله المؤمنين باجتناب الكثير من الظن وعبر بالكثير لأن بعض الظنون تبنى عليها الخيرات وقوله : « إن بعض الظن إثم » إشارة إلى الأخذ بالأحوط .

ثم نهى عن التجسس كما نهى عن الغيبة .

●★●

ثم نادى المؤمنين ليأمرهم بالتقوى والإيمان برسوله حتى يؤتيهم الله نصيبين من رحمته فقال :

(يا أيها الذين آمنوا اتقُوا اللهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ويَجْعَلْ لَكُمْ نوراً تَمْشُونَ بهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٢).

قيل : المراد بالمؤمنين هنا أولئك الذين آمنوا من قوم عيسى بمحمد صلى الله عليه وسلم فأمرهم الله أن يتقوه وأن يؤمنوا بمحمد حتى يؤتيهم نصيبين من رحمته لإيمانهم بعيسى أولاً ثم بمحمد ثانياً .

وقال ابن عباس: نزلت فى قوم جاءوا من اليمن من أهل الكتاب إلى رسول الله فأسلموا به وكانوا قد آمنوا من قبل بعيسى .

---

(١) الحجرات (٢) الحديد

وقد وعد الله هؤلاء بإعطائهم نصيبين من رحمته وأن يجعل لهم يوم القيامة نورا يمشون به وأن يغفر لهم ماسلف من المعاصى .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بالصدقة إذا أرادوا مناجاة الرسول فقال:

(يا أيها الذين آمنوا إذا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذلكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فإِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ)(١).

قال ابن عباس : إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه وأراد الله أن يخفف عن نبيه فلما نزلت هذه الآية شح كثير من الناس فكفوا عن المسألة .

وقيل : إن الله أراد نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة المقدمة قبل المناجاة فأمر الله المؤمنين الذين يريدون مناجاة الرسول أن يقدموا قبل المناجاة صدقة .

واختلف فى هذه الصدقة هل هى واجبة ؟ قال بعض المفسرين : هى واجبة مستدلا بقوله تعالى « فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم » .

وقال بعضهم إنها مندوبة مستدلا بقوله : « ذلك خير لكم وأطهر » .

وروى عن على أنه قال : لما نزلت هذه الآية دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ماتقول فى دينار قلت : لايطيقونه ، قال : كم قلت : حبة أو شعيرة قال : إنك لزهيد، والمعنى : إنك قليل المال .

---

(١) المجادلة

وقوله فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم : المراد منه الفقراء وهذا يدل على أن من لم يجد مايتصدق به كان معفوا عنه .

وروى عن على أنه قال : إن في كتاب الله آية ماعمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى : كان لى دينار فاشتريت به عشرة دراهم فكلما ناجيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمت بين يدى نجواى درهما ، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد .

وروى عن ابن جريج والكلبى وعطاء عن ابن عباس أنهم نُهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا ، فلم يناجه أحد إلا علىٌّ ، تصدق بدينار ثم نزلت الرخصة .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بالتقوى وبالنظر فيما قدمت النفس للغد ، ليوم القيامة ، ثم بالتقوى كذلك فقال :

(يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خَبِيرٌ بما تَعْمَلونَ) (١).

وهكذا نادى الله المؤمنين ليأمرهم بأمور :

الامر الأول : التقوى ، وطالما أمر المؤمنين بتقواه والخوف من سؤاله وحسابه وعذابه .

والأمر الثانى : أن تنظر كل نفس فيما قدمته لغدها ، والمراد بالغد هنا يوم القيامة ، وسماه بالغد تقريباً له ، ونكر الغد لعظم كنهه .

الأمر الثالث : التقوى ، وكررها للتقوية والتأكيد ، أو حمل «التقوى»

---

(١) الحشر

الأولى على أداء الواجبات ، والثانية على ترك المعاصى واقتراف الذنوب .

وذيل الآية بعد تلك الأوامر بأن الله خبير بكل ما يعمل الإنسان ، لا تخفى عليه سبحانه وتعالى خافية .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بنصر الله كما نصر الحواريون عيسى حين سألهم : من أنصارى إلى الله ، فقال تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ) (١).

نادى الله المؤمنين ليأمرهم بمداومة نصرة الله والثبات على نصره . والمعنى : انصروا دين الله فى جميع الأحوال والأفعال ، واستجيبوا له كما استجاب حواريو عيسى حين ناداهم : من أنصارى إلى الله ؟ فقال الحواريون : نحن أنصار الله .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بأن يقوا ويحفظوا أنفسهم وأهليهم من النار التى وقودها الناس والحجارة فقال :

(يا أيها الذين آمنوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (٢).

والوقاية المطلوبة من المؤمنين أن يؤدبوا أنفسهم وأهليهم بالأمر بالخير

---

(١) الصف (٢) التحريم

والنهى عن الشر ، أو بترك المعاصى وفعل الطاعات ، وأن يأخذوا أهليهم بما يأخذون به أنفسهم ، فإذا فعلوا ذلك فقد صانوا أنفسهم وأهليهم من النار التى وصفها الله بأن وقودها الناس والحجارة ، وأن عليها ملائكة هم زبانيتها الغلاظ الشداد فى أجرامهم وجفائهم وخشونتهم ، لا تأخذهم رأفة فى تنفيذ أوامر الله ، والانتقام من أعدائه العصاة .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بالتوبة النصوح عسى أن تكون سبباً لتكفير السيئات فقال :

(يا أيها الذينَ آمنوا تُوبُوا إلى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَار يَوْمَ لا يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ والذينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ . . .) (١) .

نادى الله المؤمنين ليأمرهم بالتوبة الصادقة الناصحة التى تنصح صاحبها بترك العودة إلى ما تاب منه من القبائح . مع الندم غاية الندم على ارتكاب ما ارتكب من الخطايا .

وفى قوله : « عسى ربكم أن يكفر » إطماع للعباد فى تكفير السيئات ، ومعنى قوله : « لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه » أى لا يفضحهم بين يدى الكفار ، والإخزاء : الفضيحة ، ومعنى إخزاء النبى : رد شفاعته فى العصاة من أتباعه .

---

(١) التحريم

والمراد بقوله « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » أنهم يؤتون الكتاب بأيمانهم وفيه نور وخير ، ويسعى النور بين أيديهم أى فى موضع وضع الأقدام .

يقولون عند إطفاء نور المنافقين : « ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا ذنوبنا » .

●★●

(ب) النداء الذى تلاه نهى :

كثيراً ما نادى الله المؤمنين لينهاهم عن اقتراف أمر نهت شريعته عن ارتكابه ، وفى الآية الآتية ناداهم لينهاهم عن التشبه بالكافرين فى مقالهم وفعالهم ، فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا واسْمَعُوا ؛ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (١) .

لقد كان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا عليهم شيئاً من العلم : راعنا يا رسول الله ، واليهود كانت لهم كلمة عبرانية يتسابون بها تشبه هذه الكلمة فى مبناها وهى « راعنا » ومعناها : اسمع لا سمعت ، فلما سمعوا المؤمنين يقولون راعنا انتهزوا ذلك وخاطبوا النبى عليه الصلاة والسلام بهذا اللفظ وهم يعنون تلك المسبة ، فنهى المؤمنون عن تلك الكلمة وأمروا بكلمة أخرى وهى قوله : انظرنا .

ويدل على ذلك قوله تعالى فى سورة النساء : « ويقولون سمعنا وعصينا

---

(١) البقرة

واسمع غير مسمع وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعناً فى الدين . . . » .

وروى أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال : يا أعداء الله ، عليكم لعنة الله ، والذى نفسى بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه ، فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنزلت الآية .

●★●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن إبطال الصدقة بالمن والأذى فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لاَ تُبْطِلوا صَدَقَاتِكُمْ بالمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ، واللهُ لاَ يَهْدِى القَوْمَ الكَافِرِينَ)(٢) .

لقد عقب الله نداء المؤمنين بالنهى عن إبطال أجر صدقاتهم ، ومثل لذلك الإبطال بمثلين :

المثل الأول : كمثل الكافر الذى لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ثم هو مع كفره ينفق ماله رئاء الناس ، فبطلان أجر نفقة هذا المرائى الكافر أوضح من بطلان أجر صدقة المسلم الذى يتبع صدقيته بالمن على الفقير ، وبالإيذاء .

والثانى : كالصفوان ، وهو الحجر الأملس الناعم الصلب الذى وقع عليه تراب وغبار ، ثم نزل به المطر القوى فأزال الغبار عنه إزالة لم تبق أثراً لما كان عليه من تراب ، فالكافر كالصفوان ، والتراب كالإنفاق ، والوابل كالكفر الذى يحبط ويبطل عمل الكافر ، وكالمن والأذى

---

(١) البقرة

اللذين يحبطان عمل هذا المنفق ، فكما أن الوابل أزال التراب الذى وقع على الصفوان ، فكذا المن والأذى يبطلان أجر الصدقة والإنفاق بعد حصولهما .

●★●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن اتخاذهم بطانة من غير المؤمنين فقال :

(يا أيها الذينَ آمنوا لاَ تَتّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَألُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)(١) .

إن النهى الوارد فى هذه الآية عام يشمل جميع الكفار ، وقد نهى الله المؤمنين عن أن يتخذوا بطانتهم وخاصتهم من غير المؤمنين .

وقد قيل لعمر بن الخطاب : هنا رجل من أهل الحيرة نصرانى لايعرف أقوى حفظا ولاأحسن خطا منه فان رأيت أن تتخذه كاتبا فامتنع عمر وقال إذن اتخذت بطانة من غير المؤمنين ، وهكذا اتخذ عمر من الاية دليلا على عدم اتخاذ الكفار بطانة وإن كان آخر الآية فى المنافقين .

وأصل الخبال : الفساد ، ولا يألون : لايقصرون ولا يدخرون جهداً فى مضرتكم وفسادكم ، فاذا عجزوا عن ذلك لم يزل فى قلوبهم حب إعناتكم

وقد بدت البغضاء من أفواههم من حيث إنهم يظهرون تكذيب نبيكم وكتابكم ويرمونكم بالجهل والحمق ، وماتخفى صدورهم أكبر ، فإن مايظهرونه من ألسنتهم أقل مما فى قلوبهم من الحقد وهكذا بين الله الآيات للمؤمنين لعلهم يعقلون فيفصلون بين الولى والعدو .

---

(١) آل عمران

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن أن يقول أحد منهم مقالة الكفار الذين قالوا لو لم يخرجوا ما ماتوا وماقتلوا وذلك النهى فى قوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لاَ تَكُونوا كالذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإخْوَانهم إذَا ضَرَبُوا فى الأرْضِ أوْ كَانُوا غُزًّا لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وما قُتِلوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فى قُلُوبِهِمْ ، واللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ واللهُ بما تَعْمَلونَ بَصِيرٌ) (١).

لما وقع من بعض المؤمنين فتور يوم أحد عفا الله بفضله عنهم ونهى المؤمنين أن يقولوا كمقالة الكفار : لو لم يخرجوا لما ماتوا وما قتلوا والله هو المحيي المميت فمن قدر له البقاء لم يقتل فى الجهاد ومن قدر له الموت لم يبق وإن لم يجاهد فاذا كان لابد من الموت فهو فى ميدان الجهاد مع نيل الثواب أفضل من الموت على الفراش .

●★●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فقال :

(يا أيها الذينَ آمنوا لاَ تَتَّخِذُوا الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلهِ عَلَيْكُم سُلْطَاناً مُبِيناً) (٢).

كثيرا مانزلت الآيات في نهى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء لهم من دون المؤمنين وقد قيل : إن الأنصار كان لهم فى بنى قريظة رضاع وحلف ومودة فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم من نتولى فقال : المهاجرين فنزلت هذه الآية تنهاهم عن اتخاذ غير المؤمنين أولياء .

---

(١) آل عمران (٢) النساء

وقيل : إن الآية نهى للمؤمنين عن موالاة المنافقين فيقول الله : لقد بينت لكم فيما سبق أخلاق المنافقين فلا تتخذوا منهم أولياء .

وهل تريدون أيها المؤمنون أن تجعلوا لله عليكم حجة فى عقابكم بسبب موالاتكم للمنافقين ؟

●★●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء فقال:

(يا أيها الذينَ آمنوا لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء ، بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكم فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالمِينَ)[1] .

روى أن عبادة بن الصامت جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبرأ عنده من موالاة اليهود فقال عبد الله بن أبيٍّ لكنى لا أتبرأ منهم لأنى أخاف الدوائر فنزلت هذه الآية ومعناها لاتتخذوهم أولياءولا تعتمدوا عليهم في الاستنصار بهم .

وأراد سبحانه التغليظ والتشديد على المؤمنين فى النهى فقال « ومن يتولهم منكم فإنه منهم أى كأنه مثلهم » .

وبين الله أن هؤلاء يوالى بعضهم بعضا لاتحاد ملتهم واجتماعهم على الكفر .

وقد قال عمر لأبى موسى الأشعرى فى شأن كاتبه النصرانى لاتكرموهم إذ أهانهم الله ولا تأمنوهم إذ خونهم الله ، ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله ، وقد قال له أبو موسى : لاقوام للبصرة إلا به ، فقال عمر : مات النصرانى والسلام

---

(١) المائدة

يعنى هب أنه قد مات فما كنت تكون صانعا حينئذ فاصنعه الساعة واستغن عنه بغيره .

«وإن الله لايهدى القوم الظالمين» أى الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفر يخذلهم الله مقتا لهم :

●★●

وبعد أن نادى الله المؤمنين لينهاهم عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ناداهم كذلك لينهاهم عن اتخاذ اليهود والنصارى والكفار بعامة أولياء لأنهم يتخذون من دينهم هزوا ولعبا فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُم وَالكُفَّارَ أولِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إن كُنْتُمْ مُؤْمِنِين)[1] .

إن اليهود والنصارى والكفار جميعا يتخذون من الدين الإسلامى هزوا ولعبا لهم ولايصح أن يقابل هذا من جانب المسلمين باتخاذهم أولياء لهم بل يجب أن يقابل بالبغضاء والشنآن .

واتقوا الله فى موالاة الكفار واليهود والنصارى إن كنتم مؤمنين حقا لأن الإيمان الحق يأبى موالاة أعداء الدين .

●★●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن أمرين : تحريم الطيبات التى أحلها لهم والاعتداء بتعدى حدود ما أحله الله لكم فقال :

(يا أيها الذينَ آمنوا لاَ تُحَرِّموا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ

---

(١) المائدة

تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ) (١) .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف القيامة يوما لأصحابه وأنذر ماشاء فاجتمع الصحابة فى بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على مداومة الصوم والقيام وألا يناموا على فراش وألا يأكلوا لحما ولا يقربوا النساء وأن يلبسوا المسوح ويسيحوا فى الأرض فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : (إنى لم أومر بذلك إن لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فانى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى) .

ثم قال «ولا تعتدوا» أى لاتتعدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ماحرم عليكم أو ولاتسرفوا فى تناول الطيبات إن الله لايحب المعتدين الذين يتجاوزون الحدود .

●★●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن الفرار فى القتال :

(يا أيها الذين آمنوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ) (٢) .

بهذا ينهى الله المؤمنين عن الفرار من ميدان القتال حين يرون جيوش المشركين تزحف فى العدد الكثير والعُدد . أى إذا لقيتموهم متزاحفين فلا تعطوهم ظهوركم ، إلا إذا كان الفرار لخديعة ، وهو الذى عبر عنه تعالى بعد ذلك بقوله « أومتحرفاً أو متحيزاً لقتال إلى فئة » أى منحازاً إلى جماعة أخرى .

---

(١) المائدة (٢) الأنفال

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : « إن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر » .

●★●

ونادى سبحانه المؤمنين لينهاهم عن خيانة الله ورسوله وخيانة الأمانات فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لاَ تَخُونوا اللهَ والرَّسُولَ وتَخُونوا أماناتِكُمْ وأنتُمْ تَعْلَمُون)[1].

نزلت هذه الآية فى « أبى لبابة » حين بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بنى قريظة لينزلوا على حكم الرسول ، فاستشار بنو قريظة « أبا لبابة » — وكان حليفهم فى الجاهلية — فى الحكم الذى يحكم به الرسول ، فأشار بيده إلى حلقه ، فعلموا أنه الذبح ، ثم أدرك أنه خان الله والرسول والأمانة ، فذهب إلى المسجد وربط نفسه فى إحدى سواريه ، ومكث على ذلك تسعة أيام حتى خرّ مغشياً عليه من الجهد والجوع ، فأنزل الله توبته ، وأراد الصحابة أن يحلوه فأبى إلا أن يحله الرسول ، وعرض على الرسول أن ينخلع من ماله صدقة لله يطهر بها نفسه ، فأمره عليه الصلاة والسلام بأن ينخلع عن ثلث ماله فحسب

●★●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن اتخاذ آبائهم أو إخوانهم أولياء إن آثروا الكفر على الإيمان فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لاَ تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإخْوَانَكُمْ أَوْلِياءَ إنِ

---

(١) الأنفال

آسْتَحَبُّوا الـكُفْرَ عَلَى الإيمانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنـكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالمونَ)[١].

لقد أمر الله بالتبري عن المشركين ، فقيل : كيف تمكن المقاطعة بين الرجل وبين أبيه وأمه وأخيه ، فذكر سبحانه أن الانقطاع عن الآباء والإخوان واجب بسبب الـكفر وهو قوله : « إن استحبوا الـكفر على الإيمان » وقد نهى الله عن مخالطتهم فقال : « فأولئك هم الظالمون » ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد مشركا مثلهم لأنه رضى بشركهم ، والرضا بالـكفر كفر .

●★●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن اتباع خطوات الشيطان فقال :

(يا أيها الذين آمنو لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فإنهُ يَأْمُرُ بالْفَحْشاءِ وَالْمُنْـكَرِ)[٢] .

ينهى الله المؤمنين ، والنهى لـكل المـكلفين ، عن اتباع آثار الشيطان وسلوك مسالـكه فى الإصغاء إلى الإفك ، وإشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا .

والفحشاء والفاحشة : كل قبيح مفرط فى القبح ، والمنـكر : ما تنـكره النفوس .

●★●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم أن يكونوا كأتباع موسى فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لاَ تَـكُونوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ

---

(١) التوبة (٢) النور

اللهُ مِمَّا قَالُوا ، وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً) (١) .

بين الله فى الآيات السابقة أن من يؤذى الله ورسوله يُلعن ويُعذب ثم أرشد المؤمنين إلى الامتناع عن إيذاء دون ذلك الإيذاء كإيذاء من لم يرض بحكم الرسول فى الفىء .

وحديث إيذاء موسى عليه السلام مختلف فيه ، فقيل : آذوه بنسبة عيب بدنى فيه ، وقيل : آذوه برميه بالفاحشة .

والإيذاء فى القرآن ظاهر من نحو قولهم « آذهب أنت وربك فقاتلا » ونحو « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » ، وقولهم « لن نصبر على طعام واحد » .

فقال الله للمؤمنين لا تكونوا أمثالهم فإذا طلبكم الرسول للقتال فلا تقولوا كما قالوا « آذهب أنت وربك فقاتلا » وإذا أمركم بشىء فأتوا منه ما آستطعتم .

●★●

ونادي الله المؤمنين لينهاهم عن الإسراع فى تقديم أى شىء بين يدى الله ورسوله فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لا تُقدِّموا بين يَدَى اللهِ وَرسُولِهِ واتقُوا اللهَ إنَّ اللهَ سَميعٌ عَليم) (٢) .

نهى الله المؤمنين عن أن يصدر منهم تقديم أى تقديم بين يدى الله ورسوله أو لا تقدموا أمراً أو لا تقدموا أى لا تجعلوا لأنفسكم تقدماً عند

---

(١) الاحزاب (٢) الحجرات

النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل ذلك يشير إلى وجوب احترام الرسول صلى الله عليه وسلم والانقياد لأوامره .

ثم أمرهم بالتقوى والخشية حتى يحققوا واجب الاحترام وإن الله سميع لكل ما يبدو منكم عليم بنواياكم ..

●★●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوت الرسول أو لا يجهروا له بالقول حتى لا تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ)(٢) .

إن رفع الصوت دليل على ترك الاحترام ، والمؤمنون مكلفون باحترام رسول الله ، وهذا الاحترام يستدعى عدم رفع الصوت فى حضرة الرسول كما نهاهم الله عن الجهر عنده كما يجهر بعضهم لبعض أى لا تخاطبوه كما تخاطبون غيره حتى لا تحبط أعمالكم وتبطل وأنتم لا تشعرون بحبوط أعمالكم حينما تداومون على رفع أصواتكم فى حضرة الرسول وتداومون كذلك على الجهر له بالقول فإذا تكرر ذلك منكم كان فى ذلك التجنى على مكانة الرسول واحترامه ، ومن ثم تبطل أعمالكم وأنتم لا تدركون بطلانها .

●★●

---

(١) الحجرات

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن سخريتهم بغيرهم كما نهاهم عن اللمز والنبز فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ . ولا نِساءٌ [٢] مِنْ نِساءٍ عَسَى أنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ولا تَلْمِزُوا أنْفُسَكُمْ ولاَ تَنابَزُوا بالأَلْقابِ) .

نهى الله المؤمنين فى الآية عن ثلاثة أمور : السخرية ، واللمز ، والنبز وكل هذه الأمور تدل على احتقار الرجل لأخيه أو المرأة لأختها وقد يكون الرجل أو المرأة التى يسخر منها خيراً من الساخر أو الساخرة . ثم نهى عن اللمز وهو الطعن فى الناس كما نهى عن التنابز بالألقاب ألقاب السوء .

وإن الإنسان لا يخلو من عيب ، فإذا عاب إنساناً فقد فتح له الباب ليعيبه فكأنه بذلك عاب نفسه .

●✱●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن التناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ويأمرهم بالتناجى بالبر والتقوى فقال :

(يا أيها الذين آمنوا إذَا تَناجَيْتُمْ فلا تَتَناجَوْا بِالاثْمِ والعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتقْوَى) [١] .

ذم الله اليهود والمنافقين فى الآية السابقة على التناجى بالإثم والعدوان وأتبع ذلك بنهى المؤمنين أن يسلكو مسلكهم فقال : لا تتناجوا بالإثم وهو ما يقبح مما يخصهم ، والعدوان وهو ما يؤدى إلى ظلم الغير .

وأمرهم أن يتناجوا بالبر ، وهو ضد العدوان ، وبالتقوى ، وهو

---

(١) الحجرات (٢) المجادلة

ما يتقى به من عذاب النار ، من فعل الطاعات وترك المعاصى والموبقات .

●★●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن اتخاذ أعداء الله وأعدائهم أولياء ، فقال تعالى :

(يا أيها الذينَ آمنو لاَ تتخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إليهمْ بالمَوَدَّة) (١).

نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة حين كتب إلى أهل مكة كتاباً يخبرهم فيه بتجهيز النبي صلى الله عليه وسلم لفتح مكة ، وكان له فى مكة أهل ومال فأراد أن يتقرب إليهم بذلك ، وقد دفع الكتاب إلى امرأة مولاة لبنى هاشم غير مسلمة ، كانت فى طريقها إلى مكة ، وأعطاها عشرة دنانير وكسوة فأطلع الله رسـوله على أمرها فأخرج فى أثرها عليًّا وعمر وطلحة والزبير وعماراً رضى الله عنهم ، فأدركوها وأنكرت الكتاب ، فقال لها علىّ : والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ، لتُخْرِجن الكتاب أو لتلقِينَّ الثياب ، فأخرجت الكتاب من عقاص شعرها ، وسُئِل حاطب عن ذلك ، فقال : يا رسول الله لى فى مكة أهل ومال فأردت التقرب إليهم ، وقد علمت أن الله ينزل بأسه عليهم ، فصدقه الرسول وقَبِل عذره ، ونزل القرآن بهذه الآية .

وأراد عمر أن يضرب عنق حاطب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ففاضت عينا عمر .

---

(١) الممتحنة

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن تولى قوم غضب الله عليهم فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ . . .) (١) .

قال ابن عباس : يريد حاطب بن بلتعة الذى نهاه فى أول السورة عن اتخاذ أعداء الله أولياء ، وقيل : النهى عام فى المشركين واليهود ، وذلك لأن جماعة من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين لحاجتهم إليهم ، فنهوا عن ذلك ، ولعل أولئك الفقراء كانوا يخبرون اليهود بحسن نية ، وأنهم لم يقصدوا بذلك خيانة الله ورسوله ، أو لعلهم كانوا يخبرون بأمور لا تمس كيان الأمة الجديدة ، ولكن الله سبحانه وتعالى نهى عن كل ذلك فانتهوا .

●★●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن أن تشغلهم فتنة المال والولد عن ذكر الله فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (٢) .

لقد نادى الله المؤمنين ليحذرهم من فتنة المال والولد حتى لا تشغلهم الفتنة بها عن ذكر الله ، وقيل : المراد بذكر الله : فرائض الله من صلاة وزكاة وحج ، أو عن طاعة الله ، ومن ألهاه ذلك عن الذكر فأولئك هم الخاسرون فى تجارتهم حيث باعوا العظيم بالحقير .

وقيل : المراد بذكر الله : القرآن ، وقيل : المراد النظر فى القرآن

---

(١) الممتحنة (٢) المنافقون

والتأمل فيه ، وقد أمر الله المؤمنين فى الآية التى بعد هذه الآية بالانفاق مما أعطاهم الله قبل أن ينزل بهم الموت فيندموا حيث لا ينفعهم ندمهم لأنهم لم ينفقوا ، وعندئذ يتمنون أن يؤخر الله أجلهم حتى يتصدقوا « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » .

●★●

(ج) نداء يعقبه بيان حكم شرعى أو توجيه وإرشاد لمبدإ إسلامى :

لقد كان القرآن المصدر الأول لشريعة الإسلام ، والنور الذى يهدى به الله البشرية إلى ما فيه سعادة الفرد والمجتمع .

وكثيراً ما نادى الله المؤمنين ليبين لهم على أثر النداء حكما شرعياً أو مبدأ اجتماعياً يصون الله به الأمة ، ويحفظها من عاديات التفكك والانحلال . . .

وقد نادى الله المؤمنين ليبين لهم أنه فرض عليهم القصاص فى القتلى ، فقال :

(يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكُمُ القِصَاصُ فى القَتْلى)[1].

قيل في سبب نزول هذه الآية :

١ — إزالة الأحكام التى كانت قبل بعثة الرسول ، وذلك لأن اليهود كانوا يوجبون القتل فقط ، والنصارى كانوا يوجبون العفو فقط ، أما العرب فتارة يوجبون القتل وتارة يوجبون الدية .

فلما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم أوجب رعاية العدل ، وسوى بين العباد فى حكم القصاص .

---

(١) البقرة

٢ – قيل إنها نزلت فى واقعة قتل حمزة رضى الله عنه .

وهنالك أسباب أخرى لا يتسع لها المقام فليرجع فيها إلى كتب التفسير من يريد .

وقوله : كتب يفيد الوجوب فى عرف الشرع قال تعالى: كتب عليكم الصيام ومنه الصلوات المكتوبة أى المفروضة

ولفظ « عليكم » يشعر كذلك بالوجوب ومنه قوله تعالى : ولله على الناس حج البيت ، والقصاص معناه : أن يفعل بالإنسان مثل ما فعل .

والذى يقوم بالقصاص هو الإمام أو من يجرى مجراه .

وقد اختلف الفقهاء فى قضية القصاص وما تفرع منها فليرجع إلى كتب الفقه

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليبين لهم فرضية الصوم فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ)(١) .

لقد كان الصوم عبادة مكتوبة على الأنبياء والأمم من آدم إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلم تفرض على المسلمين وحدهم بل فرضت على من قبلهم من الأمم .

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليبين لهم شريعته حول الدين وكتابته فقال :

---

(١) البقرة

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(١) .

فى هذه الآية بسط شديد لموضوع الدين حيث أمر بكتابة الدين فقال فاكتبوه ثم قال : وليكتب بينكم كاتب بالعدل ثم قال :

ولا يأبى كاتب أن يكتب كما علمه الله ثم قال فليكتب ثم قال : وليملل الذى عليه الحق ثم أمره بالتقوى فقال : وليتق الله ربه ثم قال : ولا يبخس منه شيئا ثم قال : ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ثم قال ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا .

والمراد من الآية كلما تداينتم بدين إلى أجل فاكتبوه .

---

(١) البقرة

وهكذا بين الله فى هذه الآية بعد نداء المؤمنين كل ما يتصل بالمداينة من حيث كتابة الدين استجابة لأمره تعالى فى قوله : فاكتبوه ومن حيث الإشهاد على الدين لأن الآجل قد يتخلله النسيان أو الجحد ، واختلف الفقهاء فى الأمر بالكتابة والإشهاد هل هو للوجوب أو الندب .

واشترط فى الكاتب أن يكون عدلا بحيث لا يزيد ولا ينقص ويكتبه بحيث يصلح أن يكون حجة عند الحاجة إليه ، وألا يخل بشرط من الشرائط

ثم اشترط أن يملى المكتوب من عليه الحق ليدخل فى إملائه اعترافه بما عليه من الحق ثم قال : وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا) وهذا أمر للمملى الذى عليه الحق ثم قال فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل فليملل وليه بالعدل والمعنى : أن من عليه الدين إذا لم يكن إقراره معتبرا فالمعتبر هو إقرار وليه .

ثم أمر بأن يشهدوا على المكتوب رجلا من أهل ملتهم أو من رجالكم الذين تعتقدونهم للشهادة بسبب العدالة على أن يكون الذى يشهد رجلين فإن لم يكونا رجلين فليكن رجل وامرأتان ثم علل الاشهاد بامرأتين فقال : أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى لأن النسيان غالب فى طبع النساء ، واجتماع المرأتين على النسيان أبعد فى العقل والضلال هنا بمعنى النسيان .

ثم نهى الشاهد عن الامتناع عن أداء الشهادة عند احتياج صاحب الحق إليها ثم بين أن القليل من المال كالكثير فى الاحتياط فقال ولا تسأموا أو تملوا من كتابة الدين الصغير لأن ذلك أقسط وأعدل وأقرب إلى عدم الريب والشك ثم نهى صاحب الحق عن إضرار الكاتب والشاهد، ويصح

أن يكون النهى للكاتب والشاهد بإضرار من له الحق بالزيادة أو النقص أو ترك الاحتياط أو يمتنع الشاهد عن الشهادة أو يشهد بما لا ينفع فى إثبات الحق لصاحبه وإن تفعلوا أيها المؤمنون شيئا مما نهيتم عنه أو تتركوا شيئا مما أمرتم به فان هذا هو الفسوق والخروج عن أمر الله ثم أمر بالتقوى .

وبين أخيرا أنه العالم بمصالح الناس فى الدنيا والآخرة .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليحذرهم من كيد اليهود ومحاولاتهم تفريق الصف الإسلامى وتمزيق وحدتهم فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)(١) .

روى أن شاس بن قيس اليهودى كان شديد الحسد على المسلمين وقد مر يوما على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج فعز عليه ذلك التآلف الذى صنعه الإسلام فى قلوبهم فجلس بينهم وذكر ما كان بينهم من حروب فى الجاهلية وراح ينشدهم ما قيل فيها من أشعار تسجل مفاخر هؤلاء وهؤلاء فتنازع القوم وتغاضبوا حتى استلوا السيوف وبلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم وقال لهم : أترجعون إلى أقوال الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالإسلام وألف بين قلوبكم فعرف المتنازعون أن ذلك من كيد ذلك اليهودى وألقوا سلاحهم وتعانقوا وأنزل الله الآية يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين .

---

(١) آل عمران

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن أكل الربا فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(١) .

كان الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل فاذا جاء الأجل ولم يكن المديون واجدا لذلك المال قال زد في المال حتى أزيد فى الأجل فربما جعله مائتين ثم إذا حل الأجل الثانى فعل مثل ذلك ثم إلى آجال أخرى كثيرة فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله تعالى: أضعافا مضاعفة ، واتقاء الله في هذا النهى واجب لأن الفلاح يتوقف عليه فلو أكل ولم يتق زال الفلاح .

★●★

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بتقوى الله وترك مابقى من الربا فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)(٢) .

اختلف فى سبب نزول هذه الآية فقيل :

نزلت فى أهل مكة فقد كانوا يرابون فى الجاهلية فلما أسلموا أمرهم الله أن يأخذوا رءوس أموالهم دون الزيادة .

وقيل نزلت فى جماعة من ثقيف .

وقيل : نزلت فى العباس وعثمان .

وقيل : نزلت فى العباس وخالد .

---

(١) آل عمران (٢) البقرة

ولقد نهى الله عن أكل الربا فى الآيات السابقة ثم نادى المؤمنين فى هذه الآية ليأمرهم بتقواه والخوف من حسابه وعذابه وأن يتركوا ما بقى من الربا ويبين أن الزيادة تحرم وليس لهم أن يأخذوا إلا رءوس أموالهم ويبين أنه إذا قبض شىء من الزيادة قبل هذا فهو معفو عنه وإن لم يقبضوه أو يقبضوا بعضه فإنه محرم قبضه بعد نزول الأمر بالترك .

ومعنى قوله : إن كنتم مؤمنين : أى إن كنتم تريدون استدامة الحكم لكم بالإيمان .

والنداء على معنى ياأيها الذين آمنوا بلسانهم ذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين بقلوبكم .

ونادى الله المؤمنين ليبين لهم أنه لايحل لهم إرث النساء كرها ولينهاهم عن عضلهن وحبسهن فقال :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمنُوا لا يَحِلُّ لَكم أنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلَا تَعضُلُوهن لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ)(١) .

وقد كان الرجل إذا مات له قريب من أب أو أخ أو حميم أو صديق عن امرأة ألقى ثوبه عليها . وقال : أنا أحق بها من كل أحد فقال الله : لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها أى أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تؤخذ المواريث وهن كارهات لذلك أو مكرهات .

وقيل كان يمسكها حتى تموت فقيل : لايحل لكم أن تمسكوهن حتى ترثوا منهن وهن غير راضيات بإمساككم .

---

(١) النساء

وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة والقهر لتفتدى منه نفسها بمالها وتختلع فقيل : ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ماآتيتموهن والعضل : الحبس والتضييق .

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن أكل الأموال بينهم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَموالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً)(١) .

خص الأموال بالأكل لأن المقصود والأعظم من الأموال هو الأكل

والمراد بقوله بالباطل : كل مالا يحل شرعاً كالربا والغصب والسرقة والخيانة وشهادة الزور ويدخل فى هذا أكل مال الغير بالباطل وأكل مال نفسه بالباطل وهو إنفاق المال فى المعاصى .

ولا يحل أكل المال إلا أن تكون التجارة تجارة عن تراض أى تجارة صادرة عن تراض .

ولا تقتلوا أنفسكم أى من كان من جنسكم من المؤمنين أو لا تقتلوا إخوانكم وإن الله كان بكم رحيما» فما نهاكم عما يضركم إلا لرحمته عليكم

●★●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن إقامة الصلاة وهم سكارى فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)(٢) .

---

(١) النساء (٢) النساء

لقد روى أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً وشراباً فدعا نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كانت الخمر مباحة فأكلوا وشربوا، فلما ثملوا وجاء وقت صلاة المغرب قدموا أحدهم ليصلى بهم فقرأ : أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد فنزلت فكانوا لا يشربون فى أوقات الصلاة فإذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحوا إلا وقد ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون ثم نزل تحريمها .

ومعنى قوله : لا تقربوا الصلاة : أى لا تغشوها ولا تقوموا إليها ، وقيل معناه : لا تقربوا مواضعها وهى المساجد كانهوا عن غشيان الصلاة أو المساجد وهم جنب إلا فى حالة السفر وهى التى عبر عنها بقوله : إلا لعابرى سبيل .

وقيل إن رجالا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد فتصيبهم الجنابة ولا يجدون ممراً إلا فى المسجد فرخص لهم .

●✱●

ونادى الله المؤمنين حين يجاهدون ليأمرهم بالتثبت حتى لا يسفكوا دماً حراماً فقال :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ في سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِليكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً)(١) .

والضرب فى الأرض السير فيها للتجارة أو الجهاد ومعنى ضربتم فى سبيل الله : أى غزوتم وسرتم إلى الجهاد .

والمراد بالنهى فى قوله : ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام : أى انقاد

---

(١) النساء

واستسلم لـكم أو حيّاكُمْ بتحية الإسلام : لا تقولوا له لست مؤمناً (وإنما قالها تعوذاً منكم) لتقدموا عليه وتأخذوا ماله .

أولا تقولوا لمن اعتزلكم ولم يقاتلكم لست مؤمناً تبتغون من ذلك الغرض الدنيوى وقد تعددت الروايات فى سبب نزول الآية ومما قيل فى ذلك :

أن مرداس بن نهيك من أهل فَدَك قد أسلم ولم يسلم قومه فذهبت سرية إلى قومه فهربوا إلا مرداس بن نهيك فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى جانب من الجبل فلما أقبلت السرية عليه كبروا فكبر وقال : لا إلاه إلا الله محمد رسول الله فقتله أسامة بن زيد وساق غنمه فلما أخبروا الرسول حزن حزناً شديداً وقال : قتلتموه إرادة ما معه ثم قرأ الآية على أسامة فقال : يا رسول الله استغفر لى فقال : فكيف وقد تلا (لا إلاه إلا الله) فما زال يعيدها حتى وددت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ ، ثم استغفر لى وقال : أعتق رقبة .

●✱●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن إحلال شعائر الله فقال(١) :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمنوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَلا الْهَدْىَ وَلا الْقَلائِدَ) ولا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِن رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ولَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ

(١) المائدة

وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ وَالعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) .

والشعائر جمع شعيرة : وهى إسم لما جعل علما للنسك من مواقف الحج ومرامى الجمار والطواف والسعى والحلق والنحر — والشهر الحرام أشهر الحج، والهدى ما أهدى إلى البيت تقرباً إلى الله ، والقلائد ما قلد به الهدى والآمون : القاصدون من الحجاج ، وإحلال هذه الأشياء أن يتهاون بحرمة الشعائر وأن يحال بينها وبين المتنسكين بها وأن يحدثوا فى أشهر الحج ما يصدون به الناس عن الحج، وأن يتعرض للهدى والتعرض للقلائد مبالغة فى النهى عن التعرض للهدى ونهيا عن التعرض لكل قاصد لحج بيت الله وللذين يبتغون رضوانه .

ولا يحملنهم شنآن قوم وبغضهم لأنهم صدوكم من قبل عن البيت الحرام أن تعتدوا عليهم وتعاونوا على العفو والإغضاء والبر والتقوى ولا تعاونوا على التشفى والانتقام واتقوا الله ، ثم ذيل بالتهديد : إن الله شديد العقاب ، لمن يخالف أوامره ولا يتجنب منهياته .

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بالوضوء أو الغسل حين القيام إلى الصلاة فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً

طَيِّبًا مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ)[1] .

المراد بالقيام للصلاة : القصد إى إذا قصدتم الصلاة وظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم للصلاة سواء كان محدثاً أو غير محدث والحق أن الأمر للوجوب للمحدثين وللندب عند غير المحدثين وكان الرسول والخلفاء يتوضئون لكل صلاة .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات وكان الرسول يتوضأ لكل صلاة حتى كان يوم الفتح فمسح على الخفين فصلى الصلوات الخمس بوضوء واحد فقال له عمر : صنعت شيئاً لم تكن تصنعه فقال : عمداً فعلته يا عمر وأراد بذلك بيان الجواز ·

وقيل : كان الوضوء لكل صلاة أول ما فرض ثم نسخ .

وقد اختلف الفقهاء فى مسح الرأس فأخذ مالك بالإحتياط وهو استيعاب الرأس كلها وأخذ أبو حنيفة ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ما روى عنه أنه مسح على ناصيته والناصية ربع الرأس وأخذ الشافعى بأقل ما يقع عليه اسم المسح وإن كنتم جنباً فطهروا أبدانكم (ولامستم النساء) كناية عن الجماع ثم كانت رخصة التيمم للمرضى أو من لم يجد الماء فأمر الله المسح بالتراب على الوجه واليدين فإذا أعوزهم التطهير بالماء فليطهروا بالتراب وبهذا أتم الله نعمته بترخيص التطهر بالتراب .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليخبرهم بأمر المرتدين عن دينه فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي

(١) المائدة

اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)[1]

كان أهل الردة إحدى عشر فرقة : ثلاث فى عهد الرسول وهم :

١ — بنو مدلج ورئيسهم المتنبي : الأسود العنيسى وقد تنبأ باليمن وأهلكه الله على يد فيروز الديلمى .

٢ — بنو حنيفة قوم مسيلمة وكتب إلى رسول الله يبلغه أن الأرض بينهما مناصفة فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وحاربه أبو بكر وقتله وحشى قاتلى حمزة .

٣ — بنو أسد قوم طليحة وقد بعث إليه رسول الله خالداً فانهزم ثم أسلم وحسن إسلامه أما المرتدون بعد وفاة الرسول — فهم :

فزارة قوم عيينة بن حصن ، وغطفان قوم قرة بن سلمة ، وبنو سليم قوم الفجاءة ، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة ، وبعض تميم قوم سجاح ، وكندة قوم الأشعث ، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم .

وفرقة واحدة فى عهد عمر : غسان قوم جبلة بن الأيهم .

أما أولئك الذين قيل فيهم فسوف يأتى الله بقوم فقيل : هم الأنصار .

وقيل هم أهل فارس وقوله يحبهم : أى يثيبهم أحسن ثواب ويحبونه بطاعتهم وتجنب ما يسخطه عليهم .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليبين لهم حكمه فى الخمر فقال :

---

(١) المائدة

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(١) .

لقد تدرج الأمر فى الخمر فأمر الله المؤمنين ألا يقربوا الصلاة وهم سكارى وكان هذا أول ما عرف فى شأن الخمر ثم نزل قوله : يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ثم نزلت هذه الآية لتحريم الخمر .

وفى هذه الآية نهى الله عن المؤمنين عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر وذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر وإظهار أن ذلك كان من أعمال الجاهلية وكأنه لا فرق بين من عبد صنماً وأشرك بالله وبين من شرب الخمر أو قامر واعتبر كل ذلك من عمل الشيطان وأمر الله باجتناب كل ذلك .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليخبرهم بأنه ابتلاهم وامتحنهم بشىء من الصيد ليعلم من يخافه فقال :

(يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَىْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(٢) .

إنه امتحان الله لعباده حين ابتلاهم بالصيد وهم محرمون عام الحديبية حيث كانت الوحش والطير تغشاهم في رحالهم فيقدرون على أخذها بأيديهم وصيدها برماحهم وقد امتحن الله أمة محمد بصيد البر كما امتحن بنى إسرائيل بصيد البحر .

---

(١) المائدة (٢) المائدة

وقد ابتلى الله المؤمنين بذلك ليعلم الله من يخافه بإخلاص ، وليتميز من يخاف عقاب الله وهو غائب فمن اعتدى فصاد بعد ذلك الابتلاء فالوعيد لاحق به وهو عذاب الله .

●✱●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن قتل الصيد وهو محرم فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا لا تَقتُلوا الصَّيْدَ وأَنتُمْ حُرُمٌ ومَنْ قتَلهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجزَاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ)[1] .

المراد بالصيد المنهى عنه المتوحش سواء كان مأكولا أو غير مأكول، وقيل المراد بالصيد هو ما يؤكل لحمه .

ولا جناح على المحرم أن يقتل فى الحل والحرم الغراب والحدأة والحية والعقرب والكلب العقور ومن قتل الصيد المنهى عنه فعليه جزاء مماثل للمقتول من الصيد (يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مسكين أو عدل ذلك صياما) .

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن سؤالهم عن أشياء إن تبد لهم تسؤهم فقال :

(يا أَيُّهَا الذينَ آمنوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أشياءَ إنْ تُبْدَ لكُمْ تَسُؤْكمْ وإنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ القُرْآن تُبْدَ لكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[2] .

وهكذا نهى الله المؤمنين ألا يكثروا سؤال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) المائدة (٢) المائدة

وسلم فربما يسألونه عن تكاليف شاقة عليهم فان أفتاهم بها ، وكلفهم القيام بها شق عليهم ذلك وندموا على السؤال عليها .

ومثل ذلك ماروى عن سراقة بن مالك أو عكاشة بن محصن حينما سأل الرسول فقال : يا رسول الله . الحج علينا كل عام فأعرض عنه الرسول صلى الله عليه وسلم حتى أعاد السؤال ثلاث مرات فقال صلى الله عليه وسلم : ويحك ما يؤمنك أن أقول : نعم، والله لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما استطعتم ولو تركتم لكفرتم فاتركونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإن تسألوا عن هذه التكاليف والرسول بين أظهركم تظهر لكم تلك التكاليف صعبة فإذا أمرتم بتحملها عرضتم أنفسكم لغضب الله إذا فرطتم فيها وقد عفا الله عن أسئلتكم فلا تعودوا لمثلها والله غفور عما فات حليم لا يعاجلكم بالعقوبة .

●✻●

ونادى الله المؤمنين ليبين لهم حكم الشرع في الشهادة على وصية الموصى إذا حضر الموت في السفر فقال :

(يا أيها الذين آمنوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ[1] مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الموتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِى بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الآثِمِينَ) .

---

(١) المائدة

بهذا نادى الله المؤمنين ليوضح لهم الحكم فى الشهادة على الوصية إذا كان الموصى فى سفر فحضرته الوفاة ، وحضور الموت معناه ظهور أمارات بلوغ الأجل ، فقرر أن يشهد بالوصية شاهدان عدلان (منكم) أى من أقارب الميت أو من المسلمين أو يشهد شاهدان من غيركم من غير أقارب الميت إذا لم يكن معه فى السفر أقارب إذا كان ذلك فى السفر وحل الموت بالموصى ، تحبسونهما وتقفونهما للحلف من بعد الصلاة صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس وعن الحسن بعد الظهر أو العصر لأن أهل الحجاز يقعدون للحكومة بين الناس بعدهما .

وقد روى فى ذلك أنه خرج بديل بين أبى مريم مولى عمرو بن العاص وكان من المهاجرين مع عدى بن زيد وتميم بن أوس (وكانا نصرانيين) تجاراً إلى الشام فمرض بديل وكتب كتاباً فيه ما معه وطرحه فى متاعه ولم يخبر به صاحبيه وأمرهما أن يدفعا متاعه إلى أهله ومات ففتشا متاعه فأخذا إناء من فضة فيه ثلثمائة مثقال مثقوشا بالذهب فغيباه فأصاب أهل بديل الصحيفة فطالبوهما بالإناء فجحدا فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت .

وبعد نزول الآية صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر ثم دعا بعدى وتميم فاستحلفهما عند المنبر فحلفا ثم وجد الإناء بمكة وأقر من كان عنده أنه اشتراه من تميم وعدى .

وكان على يحلف الشاهد والراوى إذا اتهمهما .

والمعنى إذا ارتبتم فى شأنهما فحلفوهما ويقسمان بالله أنا لا نبيع عهد الله بشىء من الدنيا ولا نكتم الشهادة التى أمر الله بحفظها وإذا كتمناها كنا من الآثمين .

ونادى الله المؤمنين ليخبرهم أنهم إذا اتقوا الله جعل لهم من ذلك فرقاناً فقال :

(يا أيها الذينَ آمنوا إنْ تتقُوا اللهَ يجْعَلْ لكم فُرْقَاناً ويُكفرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغفِر لكم وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم)[١] .

وهكذا نادى الله المؤمنين ليبين لهم أن اتقاء الله فى جميع الكبائر يجعل لهم فرقاناً يفرق بين كل الأحوال ونصراً لهم فيفرق ذلك الاتقاء بين الحق والباطل وبين الكفر بإذلال حزبه والإسلام بإعزاز أهله، ويكفر عنهم سيئاتهم التى وجدت والمراد بتكفير السيئات سترها فى الدنيا ، والمراد بالمغفرة إزالة تلك السيئات يوم القيامة والله ذو الفضل العظيم على عباده فى الدنيا والآخرة .

●✱●

ونادى الله المؤمنين ليخبرهم بأن المشركين نجس ليمنعوهم من قربان المسجد الحرام بعد عام تسع من الهجرة فقال :

(يا أيها الذين آمنوا إنما المُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هذا وَإنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إنْ شَاءَ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[٢] .

فالمشركون نجس لأنهم مشركون والشرك بمنزلة النجس ، ولأنهم لا يتطهرون ولا يجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم أو جعلوا كأنهم النجاسة نفسها وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وعن الحسن: من صافح مشركاً توضأ والفقهاء على خلاف ذلك .

---

(١) الأنفال　　　　(٢) التوبة

ومعنى فلا يقربوا المسجد الحرام أى لا يحجوا ولا يعتمروا كما كانوا يفعلون فى الجاهلية بعد عامهم هـــذا وهو عام تسع من الهجرة حين أمر ابو بكر على الموسم، ويدل عليه قول على حين نادى ببراءة : ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك ولا يمنعون من دخول المسجد الحرام ، وعند الشافعى : يمنعون من دخول المسجد الحرام خاصة وعند مالك يمنعون منه ومن غيره من المساجد .

وإن خفتم عيلة وفقراً بسبب منع المشركين من الحج وما كان فى قدومهم من المكاسب فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ذلك إن الله عليم بأحوالكم حكيم حيث لا يعطى ولا يمنع إلا عن حكمة وصواب .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليكشف لهم أحوال الأحبار والرهبان فى أكلهم أموال الناس بالباطل وصدهم عن سبيل الله فقال :

(يا أيها الذين آمنوا إنَّ كَثيراً مِنَ الأَحْبارِ والرُّهْبانِ لَيأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ)(١) .

بعد أن وصف الأحبار والرهبان فى الآيات السابقة بادعائهم الربوبية فى قوله : اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله بعد ذلك نادى المؤمنين ليوضح لهم أطماع أولئك الأحبار والرهبان الدنيوية والأحبار من اليهود والرهبان من النصارى بحسب العرف وَعَبَّرَ عَنْ أخذ الأموال بالأكل لأنه أعظم مقاصد جمع الأموال .

والمراد بالباطل فى الآية أنهم كانوا يأخذون الرشا لتخفيف الأحكام

---

(١) التوبة

والتسامح فى الشرائع وأنهم كانوا يدعون أنه لا سبيل إلى العوام إلى مرضاة الله إلا ببذل الأموال لأولئك الأحبار والرهبان ، وأما صدهم عن سبيل الله فهو أنهم كانوا ينكرون ما فى كتبهم من أوصاف رسول الله حتى لا يتبعه أحد من اليهود والنصارى فهم بذلك يصدون العوام عن الإسلام وعن الاستجابة إلى الدعوة التى ينادى بها الرسول .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليسألهم عن قعالهم إذا قيل لهم انفروا لقتال الأعداء فقال :

(يا أيها الذين آمنوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فى سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنيَا مِنَ الآخِرَةْ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةُ الدُّنيَا فِى الآخِرَةْ إِلاَّ قَلِيلْ) [1] .

لقد ذكر الله فى الآيات السابقة أسباباً كثيرة موجبة لقتال المسلمين لأعدائهم بينها الله فى قوله: يُعَذِّبْهُمْ الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم :

والمروى عن ابن عباس أن هذه الآية التى نادى الله بها المؤمنين ليسألهم عن التثاقل نزلت فى غزوة تبوك التى دعا فيها الرسول لغزو الروم بعد الرجوع من الطائف .

أما أسباب تثاقل المسلمين عن الخروج فهى :

إن الدعوة إلى الخروج لتلك الغزوة كانت فى الصيف والقحط وأن المسافة بين المدينة وتبوك كانت بعيدة وأن الثمار بالمدينة أوشكت على النضج

---

(١) التوبة

وأنها تحتاج إلى من يرعاها ويجمعها وأن المسلمين كانوا يدركون قوة الروم وأنهم لا طاقة لهم بلقائهم .

لكل هذه الأسباب مجتمعة كان التثاقل — والاستفهام في قوله : (مالكم) للانكار واثاقلتم مضمن معنى ملتم أو أخلدتم ، ولذلك التضمين عدى بقوله : إلى ، والمعنى : مالكم إذا دعيتم إلى الخروج ملتم إلى الأرض وأخلدتم إليها وإلى المقام فيها فلم ترغبوا فى مبارحتها فهل رضيتم بالحياة الدنيا ومتاعها بدل الآخرة على حين أن متاع الدنيا قليل إلى جانب متاع الآخرة ، ولذات الدنيا خسيسة منقطعة ولذات الآخرة شريفة دائمة .

والآية تنص على وجوب الجهاد إذا دعا الإمام أو من يقوم مقامه إلى الخروج والغزو، وفى الآية مجاز من إطلاق الكل وإرادة الجزء وذلك فى النداء الوارد فى قوله :

يا أيها الذين آمنوا (مالكم) فالحقيقة أن الحكم بالتثاقل كان من البعض ولم يكن من جميع المؤمنين لأن التثاقل معصية فلو انصرف النداء إلى المؤمنين جميعاً لدل ذلك على أن المؤمنين جميعاً أطبقوا على المعصية ووقعوا فيها

●✱●

ونادى الله المؤمنين ليوجههم ويرشدهم إلى مبدأ اجتماعى يريد الله أن يؤدب به الأمة فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لَا تَدْخُلُوا بُيوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)[1] .

بهذا نهى الله المؤمنين عن دخول بيوت غير بيوتهم حتى يستأنسوا

---

(١) النور

والاستئناس هو الاستعلام والاستكشاف ليعرف الداخل أيسمح له بالدخول أو لا يسمح كأن يسبح الداخل : الله أو يكبر أو يحمد الله أو يتنحنح .

وأما السلام فمعناه أن يقول الداخل : السلام عليكم أأدخل ؟ ثلاثاً فإن أذن له دخل وإلا انصرف .

وعن أبى موسى الأشعرى أنه أتى باب عمر رضى الله عنهما فقال : السلام عليكم أأدخل قالها ثلاثاً ، ثم رجع وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الاستئذان ثلاثاً .

(ذلكم) الاستئذان والسلام خير لكم من تحية الجاهلية لعلكم تذكرون وتتعظون وتعملون بما أمرتم به .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليبين لهم المأذون لهم فى الدخول إلى المضاجع والأوقات المسموح بدخولها فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيمانُكُمْ والَّذِين لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاَةِ الفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشاءِ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[1] .

بهذا نادى الله المؤمنين ليأمرهم أن يسأذن عليهم فى المضاجع العبيد ، وقيل العبيد والإماء والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم من الأحرار .

---

(١) النور

وأما الأوقات التى يستأذن فيها هؤلاء فهى ثلاث مرات فى اليوم والليلة .

الوقت الأول : قبل صلاة الفجر لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم عن النائمين .

الوقت الثانى : وقت الظهيرة لأنها وقت وضع الثياب عن الأجساد لشدة الحر .

الوقت الثالث : بعد صلاة العشاء لأنه وقت التجرد من الثياب .

وقد سمى كل وقت من هذه الأوقات : عورة .

وفيما عدا هذه الأوقات لا يستأذن الداخل من هؤلاء لأن المخالطة والمداخلة للخدمة لا تحتاج إلى إذن دائم فى الدخول لأن فى ذلك من الحرج ما فيه .

وقيل إن سبب نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل غلاماً أنصارياً إلى عمر ليدعوه فدخل الغلام على عمر وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر :

وددت لو أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا ألا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن ، ثم انطلق معه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية وهى إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر .

وقد سأل عطاء بن عباس أأستأذن على أختى قال : نعم وإن كانت فى حجرك تمونها .

وعن ابن مسعود : عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وإخوانكم .

ونادى الله المؤمنين ليوجههم إلى الهجرة فى سبيل عبادة الله إذا لم يتمكنوا من عبادته حيث هم فقال :

(يا عِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ)(١) .

وهكذا وجه الله عباده بعد أن ناداهم ليهاجروا بدينهم إلى أى بلد يستطيعون عبادة ربهم فيه وإقامة شعائر دينهم وبهذا أذن الله لكل من يضطهد من عباده فى الهجرة إلى موطن آخر يتمكن فيه من إقامة دينه على الوجه الذى يريده الله منه .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد .

وقيل هى فى المستضعفين بمكة الذين نزل فيهم : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها وذلك لأن نفوسهم لم تكن تستطيع إخلاص عبادتها بين ظهرانى الكفرة .

●✱●

ونادى الله المؤمنين بالإكثار من ذكره وتسبيحه فى البكور والأصائل فقال :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)(٢) .

أمر الله عباده المؤمنين بعد ندائهم ليقوموا بضروب من التقديس والتحميد والتسبيح والتكبير وأن يثنوا على الله بما هو أهله، وأطلق البكور

---

(١) الأحزاب (٢) الأحزاب

والأصائل وأراد كل الاوقات وقد قال صلى الله عليه وسلم ذكر الله على فم كل مسلم وروى فى قلب كل مسلم .

وعن قتادة : قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

●★●

ونادى الله المؤمنين ليبين لهم الحكم الشرعى فى عدة المطلقة التى لم يدخل بها فقال :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِن عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا)[1] .

المراد بالنكاح : العقد ، وقد سمى العقد نكاحاً لملابسته له لأنه طريق إليه وخص المؤمنات مع أن الحكم تستوى فيه المؤمنة والكتابية ليبين للمؤمنين أن عليهم أن يتخيروا لنطفهم المؤمنات العفيفات ، وكنى بالمساس عن الدخول ، وعند أبى حنيفه حكم الخلوة الصحيحة حكم المساس ثم بين أنه ليس على المرأة التى لم يدخل بها عدة تعتدها ثم أمر الله بإمتاعها وتسريحها .

●★●

ونادى الله المؤمنين لينهاهم عن دخول بيوت النبى إلا أن يؤذن لهم فى الطعام ثم ليبين لهم الآداب الإسلامية حول ذلك فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لَا تَدْخُلوا بُيُوتَ النَّبِىِّ إِلَّا أن يُؤْذَنَ لَكم إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ[2] إِنَاهُ وَلَكِن إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلوا فإذا طَعِمْتُمْ

---

(١) الأحزاب (٢) الأحزاب

فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً) .

بهذا النداء نادى الله المؤمنين لينهاهم عن دخول بيوت النبى إلا أن يؤذن لهم فى الدخول للأكل غير ناظرين وقد كان هنالك قوم يتحينون أوقات الطعام فناداهم الله : يا هؤلاء المتحينون للطعام لا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إلى إدراك الطعام وساعة الأكل .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أولم على زينب بتمر وسويق وشاة وأمر أنس بن مالك أن يدعو الناس فترادفوا أفواجاً إلى أن قال يا رسول الله دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ارفعوا طعامكم» وتفرق الناس وبقى ثلاثة يتحدثون فأطالوا فقام رسول الله ليخرجوا وطاف بحجرات نسائه ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون وكان الرسول شديد الحياء فتولى فلما رآه الثلاثة متولياً خرجوا فنزلت الآية .

ونهوا عن إطالة الجلوس واستئناس بعضهم بحديث البعض .

وقد أدب الله الثقلاء بقوله : فإذا طعمتم فانتشروا .

وقد كان عمر رضى الله عنه يحب أن يضرب الحجاب على النساء وكثيرا ما كان يذكر ذلك الرسول ومما قاله للرسول : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت : وإذا سألتموهن الخ .

وروى أنه مر على نساء الرسول وهن مع النساء فى المسجد فقال : لئن احتجبتن فإن لكن على النساء فضلا كما أن لزوجكن على الرجال الفضل فقالت زينب يا ابن الخطاب إنك لتغار علينا والوحى ينزل فى بيوتنا فلم يمض طويل حتى نزلت الآية .

وما يصح لكم إيذاء رسول الله ، ولا نكاح أزواجه من بعده تعظيما له .

● ✱ ●

ونادى الله المؤمنين ليوجههم إلى نصرة الله فإنهم إذا نصروه نصرهم وثبت أقدامهم فقال :

(يا أيها الذين آمنوا إنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكم وَيُثَبِّتْ أقْدَامكُمْ)(١) .

فى نصرة الله التى جاءت فى الآية وجوه :

يراد بنصرة الله نصرة دينه وطريقه أو حزب الله وفريقه فإذا نصر المؤمن دين الله أو حزبه نصرْ الله فقواه وثبت أقدامه بإرسال الملائكة الذين يحفظونه ولينصرن الله من ينصره والجزاء من جنس العمل .

● ✱ ●

ونادى الله المؤمنين ليوجههم ويرشدهم إلى التثبت من الأخبار التى تجيئهم مخافة أن يأتيهم فاسق بخبر كاذب فقال :

(يَا أَيُّهَا الذِين آمنوا إن جَاءَكم فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)(٢) .

---

(١) محمد　　　(٢) الحجرات

فى هذه الآية نادي الله المؤمنين ليرشدهم إلى مكارم الأخلاق والاحتراز عن الاعتماد على أقوال الفساق الذين يريدون إشعال الفتنة بينكم .

ويتضح من هذه الآية أن شهادة الفاسق لاتقبل وأن الله أمر المؤمنين فيها بالتبين والتثبت حتى لا يصيبوا قوما جاهلين فيندموا على ما فعلوا .

● ✱ ●

ونادى الله المؤمنين ليوجههم إلى آداب المجالس فقال :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكم تَفَسَّحُوا فى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكم)(١) .

كان المسلمون يتضامون فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم حرصا على القرب منه واستماع كلامه وقد روى أكثر من سبب لنزول هذه الآية ومما روى :

إن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى الصفة يوم الجمعة وفى المكان ضيق وكان يكرم أهل بدر فجاء ناس من أهل بدر فقاموا حيال النبى ينتظرون أن يوسع لهم فشق ذلك على الرسول فقال لمن حوله من غير أهل بدر قم يا فلان قم يا فلان ولم يزل يقيم بعدد النفر القائمين من أهل بدر حتى جلسوا فنزلت .

وروى عن ابن عباس أنها نزلت فى ثابت بن قيس وذلك أنه دخل المسجد وكان فى أذنيه وقرا فوسعوا له حتى يقرب من الرسول ليسمع كلامه فنزلت الآية .

● ✱ ●

---

(١) الحجرات .

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بامتحان اللواتى جئن إلى المدينة مهاجرات ليعلم مدى إيمانهن فقال :

(يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا جاءكم الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[1] .

سماهن الله مؤمنات لنطقهن بالشهادة ولم يظهر منهن ما ينافى ذلك أو لأنهن قريبات من الإيمان لإقبالهن على الامتحان ، والامتحان : هو الابتلاء بالحلف وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للممتحنة : لتردد قوله : بالله الذى لا إله إلا هو ما خرجت من بغض زوج ، بالله ما خرجت رغبة من أرض إلى أرض ، بالله ما خرجت التماس دنيا ، بالله ما خرجت إلا حبا لله ولرسوله .

فإن حلفن فلا ترجعوهن إلى الكفار أى إلى أزواجهن المشركين ، وبين علة عدم الإرجاع بقوله : لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن ، وذلك قوله : وآتوهم ما أنفقوا .

وكان ذلك عام الحديبية واشترط فى الصلح أن من أتى النبى من أهل مكة يرد إليهم ومن أتى مكة من المسلمين لا يرد .

وجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة والنبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) الممتحنة

بالحديبية فأقبل زوجها مسافر المخزومى فقال : يا محمد : اردد علىّ امرأتى فإنك قد اشترطت لنا شرطا أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طية الكتاب لم تجف بعد فنزلت بيانا لأن الشرط كان للرجال دون النساء .

وقضى الحكم بأن يعطى الزوج ما أنفق على زوجته من المهر ثم بين أنه لا جناح على المسلمين بعد أن ينكحوهن إذا أعطوهن مهورهن ، وألا يمسكوا بعض الكوافر والعصمة ما يعتصم به من عهد وغيره ، واسألوا ما أنفقتم فى حالة ما إذا لحقت امرأة منكم بأهل العهد من الكفار مرتدة فاسألوهم ما أنفقتم من المهر إذا منعوها ولم يدفعوا إليكم فعليهم أن يغرموا صداقها ذلكم حكم الله بين المسلمين وبين الكفار والله عليم حكيم .

●✱●

ونادى الله المؤمنين ليسألهم لم يقولون مالا يفعلون فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ)[1] .

هذه الآية فى جماعة أحبوا أن يعملوا بأحب الأعمال إلى الله فأنزل الله يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم الخ فتولوا يوم أحد وفروا من القتال فأنزل الله : يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، وقيل نزلت فى حق من يقول : قاتلت ولم يقاتل وطعنت ولم يطعن وفعلت ولم يفعل ، وقيل إنها فى حق أهل النفاق فى القتال لأنهم تمنوا القتال فلما أمر الله به قالوا : لم كتبت علينا القتال ؟ .

●✱●

ونادى الله المؤمنين ليرشدهم إلى تجارة من نوع جديد فيها النجاة من العذاب وهى الإيمان والجهاد فقال :

---

(١) الصف

(يا أيها الذين آمنوا هَلْ أَدُلُّكُم عَلَى تِجارَةٍ تُنجيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمْ تُؤْمِنُونَ (٢) باللهِ وَرسُولِه وتُجاهِدُونَ فى سَبيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم تعلمون)

نادى الله المؤمنين ليحثهم ويغريهم ، والإغراء أمر على نوع جديد من التجارة لم يعهدوه من قبل إنها تجارة بين المؤمنين وحضرة الله تعالى .

والتجارة معاوضة شيء بشيء ، والتجارة تنجى من الفقر ، وهذه التجارة تصديق بالقلب واللسان والتجارة فيها ربح وخسارة ، وكذلك هذه التجارة فمن آمن وعمل صالحا فله الأجر والربح ومن أعرض فله الخسران .

فرأس المال الذى يتقدم به المتجرون هو :

١ — الإيمان بالله ورسوله .

٢ — الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال .

وهذا الجهاد المطلوب ثلاثة أنواع :

(ا) جهاد فيما بينه وبين نفسه وهو قهرها ومنعها من اللذائذ والشهوات

(ب) وجهاد فيما بينه وبين الخلق وهو أن يترك الطمع ويشفق عليهم ويرحمهم .

(ج) وجهاد فيما بينه وبين الدنيا وهو أن يتخذها زاد المعاد .

ذلكم الذى أمركم الله به خير لكم من اتباع أهوائكم إن كنتم تعلمون

● ✱ ●

ونادى الله المؤمنين ليأمرهم بالسعى إلى صلاة الجمعة إذا نادى المنادى للصلاة فقال :

---

(١) الصف

(يا أيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)(١) .

كان إذا جلس النبى صلى الله عليه وسلم على المنبر أذن بلال على باب المسجد وكذا فى عهدى أبى بكر وعمر ، فلم يكن هنالك أذان للجمعة إلا هذا الأذان حينما يجلس الخطيب على المنبر ، وللصلاة أى لوقت الصلاة ـ

وقد نادى الله المؤمنين فى الآية ليأمرهم أمرين :

الأول : السعى إلى ذكر الله : وهو المشى والمضى والقصد، وقال الحسن: ليس المراد السعى على الأقدام ولكنه سعى بالقلوب وبالنية وبالرغبة .

وقوله : إلى ذكر الله : معناه : الخطبة ، وقيل : الصلاة .

الثانى : ترك البيع ـ قال الحسن : إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع .

وقال عطاء : إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء ذلكم خير لكم فى الآخرة إن كنتم تعلمون ماهو خير لكم وأصلح .

● ★ ●

ونادى الله المؤمنين ليخبرهم أن من الأزواج والأولاد أعداء لهم فليحذروهم فقال :

(يا أيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٢) .

قال الكلبي : كان الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به بنوه وزوجته

---

(١) الجمعة (٢) التغابن

فقالوا أنت تذهب وتذرنا ضائعين فمنهم من يطيع أهله ويقيم فحذرهم الله طاعة نسائهم وأولادهم ، ومنهم من لا يطيع .

وقال مسلم الخراسانى : نزلت فى عوف بن مالك الأشجعى : كان أهله وولده يثبطونه عن الهجرة والجهاد .

وسئل ابن عباس عن هذه الآية فقال : هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا المدينة فلم يدعهم أزواجهم وأولادهم فهو قوله : عدوا لكم فاحذروهم أن تطيعوهم وتدعوا الهجرة .

وكان الرجل منهم إذا هاجر ورأى من سبقوهم قد فقهوا فى الدين عاقب زوجته وأولاده الذين منعوه من الهجرة بعدم الانفاق عليهم فقال الله « وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم » .

وقيل : إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ينهونكم عن الإسلام ويثبطونكم عنه وهم من الكفار فاحذروهم .

الفصل الثاني

حول خطاب الرسول ونداثه

روى أن رءوساً من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو طردت عنا هؤلاء الأعبد ، يعنون فقراء المسلمين وهم : عمار وصهيب وبلال ، وضباب وسلمان رضوان الله عليهم وأرواح جبابهم عفنة وكانت عليهم جباب من صوف جلسنا إليك وحادثناك ، فقال عليه الصلاة والسلام ما أنا بطارد المؤمنين ، فقالوا : فأقمهم عنا إذا جئنا فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت فقال : نعم ، طمعاً فى إيمانهم قالوا فاكتب بذلك كتاباً ، فدعا بصحيفة وبعلى ليكتب فنزل قوله تعالى : ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين » . فرمى بالصحيفة .

ثم قال الله تعالى :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

بهذا خاطب الله رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه إذا جاءه من يؤمن بآيات الله قال : سلام عليكم وقوله : فقل سلام ، إما أن يكون أمراً من الله بتبليغ سلام الله إليهم ، وإما أن يكون أمراً للرسول بأن يبدأهم

(١) الأنعام

بالسلام « كتب ربكم على نفسه الرحمة » هذا من جملة ما يقول لهم ليبشرهم بسعة رحمة الله وقبول التوبة منهم .

والذى كتبه الله وأوجبه على نفسه أن من عمل منكم سوءا وهو جاهل بحكم الله فيها أو وهو فى حالة جهله ونزقه ثم تاب بعد ما عمل السوء وأصلح فالله غفور رحيم يغفر له سيئاته ويرحمه من المؤاخذة على ذلك السوء .

● ✱ ●

قيل : بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة بل إلى الجن .

وقد أمره الله أن ينادى الناس ليقول لهم إنى رسول الله إليكم جميعا ، الله الذى يملك السموات والأرض المحيي المميت الذى لا إله إلا هو فآمنوا بالله ورسوله .

فقال تعالى :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)(١) .

وهكذا يعلن رسول الله أنه بعث إلى كافة الناس وأن الذى بعثه مالك السموات والأرض وأنه لا إله يعبد بحق إلا هو ، وهو الذى يحيي ويميت ، وبعد أن أعلن للناس أنه رسول الله مالك السموات والأرض الذى بيده الأرواح يحيي ويميت لا شريك له فى الإحياء ولا فى الإماتة أمر الناس أن

---

(١) الأعراف

يؤمنوا به وبرسوله النبى الأمى الذى يؤمن بكلمات الله فيما أنزل عليه وما أنزل على الرسل من قبله فاتبعوه فى دعوته لعلكم تهتدون .

●✱●

وناداه الله فى موطن الجهاد بقوله :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)(١) .

وبقوله : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)(١) .

●✱●

ونادى الله نبيه ليبين له المهام التى يؤديها ووظيفته ورسـالته فقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً(٢) مُنِيراً وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً) .

لقد أرسل الله نبيه إلى الناس ليكون شاهداً على الخلق يوم القيامة قال تعالى : (ويكون الرسول عليكم شهيداً) أو شاهداً أنه لا إله إلا الله أو شاهدا فى الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط ، وليكون مبشراً للهداة المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالأجر العظيم وليكون نذيراً للكفار أو العصاة بحساب الله وعذابه وليكون داعياً إلى الله إلى الإيمان به وإلى عبادته وإلى اتباع رسله (بإذنه) وعلمه وليكون سراجا منيراً يضىء للناس طريق الحق ويهديهم إلى البر والخير .

ثم قال : (وبشر المؤمنين) وهو معطوف على مفهوم تقديره أرسلناك

---

(١) الانفال   (٢) الاحزاب

شاهدا ومبشراً المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً ، والفضل : ما يتفضل به عليهم زيادة على الثواب الذى أعده للمؤمنين .

● ★ ●

ونادى الله نبيه صلى الله عليه وسلم ليبين له ما أحل له فقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)(١) .

ذكر الله لنبيه فى هذه الآية ما هو الأولى :

١ — الزوجة التى أوتيت أجرها (مهرها) فإنها أطيب قلبا من التى لم تعط مهرا .

٢ — المملوكة التي سبيت وأفاء الله بها عليك من السبى وهى أطهر من التى اشتراها الرجل .

٣ — التي هاجرت معه من أقاربه من بنات الأعمام والعمات والأخوال والخالات وهى أشرف ممن لم تهاجر معه .

٤ — وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى وأراد النبي أن يستنكحها خالصة فلا بد من أن يقبل هبتها .

قال أبو حنيفة : تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة ومن أمهات المؤمنين لا تحل لغيرك .

●★●

---

(١) الأحزاب

ونادى الله الذين آمنوا ليأمرهم بالصلاة والسلام على النبى لأنه وملائكته يصلون عليه فقال :

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً)(١) .

إن مكانة الرسول فى الملأ الأعلى عظيمة فالله وملائكته يصلون على رسول الله هنا لك .

وأما فى الملأ الأدنى فقد نادى الله المؤمنين وأمرهم بالصلاة والسلام عليه والصلاة : الدعاء — وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم : كيف نصلى عليك يارسول الله ؟ فقال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وصلاة الملائكة على الرسول وصلاة المؤمنين لإظهار تعظيمه .

وقد قال عليه الصلاة والسلام : من صلى علىّ مرة صلى الله عليه بها عشراً .

●✶●

ونادى الله نبيه ليأمره بأن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن حتى لا يعرفن فيؤذين فقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)(١) .

كان النساء فى الجاهلية يخرجن إلى النخيل والغيطان لقضاء حاجتهن

---

(١) الأحزاب

وكن يخرجن فى درع وخمار حاسرات الوجوه، وكان الفتيان يتعرضون لهن إذا خرجن فإذا لامهم لائم قالوا حسبناها أمة فأمرن أن يخالفن بزيهن زى الإماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرءوس والوجوه ليحتشمن فلا يطمع فيهن طامع .

لهذا أمر الله نبيه أن يأمر نساءه وبناته بأن يدنين عليهن من جلابيبهن يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن وذلك أولى وأجدر بأن يعرفن فلا يتعرض لهن أحد ولا يلقين ما يكرهن أو يؤذين به .

وكان الله غفورا رحيما يغفر ما سلف برحمته .

***

ونادى الله نبيه ليذكر له بيعة النساء فقال الله تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(١) .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال أخذ فى بيعة النساء وهو على الصفا وعمر أسفل منه يبايع النساء بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبلغهن عنه وهند بنت عتبة زوجة أبى سفيان متقنعة متنكرة خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها فقال عليه الصلاة والسلام : أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً فرفعت هند رأسها وقالت : والله لقد عبدنا الأصنام وإنك لتأخذ علينا أمراً ما أخذته على الرجال، تبايع الرجال على الإسلام والجهاد فقط فقال صلى الله عليه وسلم ولا تسرقن فقالت هند :

---

(١) الامتحان

إن أبا سفيان رجل شحيح وإنى أصبت من ماله هناة فما أدرى أتحل لى أم لا ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها وقال لها : وإنك لهند بنت عتبة قالت : نعم فاعف عما سلف يا نبى الله عفا الله عنك فقال صلى الله عليه وسلم (ولا يزنين) فقالت : أو تزنى الحرة فقال : ولا تقتلن أولادكن ، فقالت : ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا فأنتم وهم أعلم ، وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قتل فى بدر فضحك عمر حتى استلقى على قفاه .

ثم قال الرسول : ولا تأتين ببهتان تفترينه ، وهو أن تقذف على زوجها ما ليس منه فقالت هند : والله إن البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ثم قال : ولا تعصيننى فى معروف ، فقالت والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شيء .

وبايع النساء رسول الله على ما قال استجابة لأمر الله إذا جاءك المؤمنات . . . . كما جاء فى الآية فبايعهن واستغفر لهن الله (عما سلف منهن) إن الله غفور للتائبين المنيبين إليه وهو رحيم بعباده .

●★●

الفصل الثالث

الإيمان والعمل فى القرآن

لقد قرن الله الكثير من الإيمان بالعمل فى القرآن وكثيراً مايعقب على ذلك الاقتران ببيان الجزاء وقد يخصص الجزاء بالجنة ويصفها وحينا يجعل الجزاء عاما ويبينه بأن لهم الفوز الكبير أو الأجــــر الكبير إلى غير ما سيبين بعد .

وحيث يجيء ذكر جزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات كثيراًمايجيء ذكر الكافرين وما أعد الله لهم من العذاب ليقابل بين النوعين وبين جزاء كل منهما .

فمثلا يقول الله في سورة البقرة :

(بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ثم يعقب على ذلك بقوله :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون)

ويقول فى سورة النساء :

(إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) .

ثم يقابل ذلك بقوله :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا) .

وفى سورة الحج قدم صورة مروعة للكافرين فى الآخرة فقال :

والذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به مافى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ثم قابل بصورة المؤمنين العاملين وهم فى الجنة فى زينة من الذهب واللؤلؤ ولباس الحرير فقال :

(إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حريراً) .

الإيمان المقترن بالعمل والجزاء

كثيراً ما اقترن الإيمان بالعمل والجزاء فى القرآن وقوبل بالكفر وجزائه أو لم يقابل بذلك ففى أول سورة البقرة ذكر الله الكفار وموقفهم من الدعوة فى قوله : (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) وذكر المنافقين ومواقفهم حيث كانوا يقولون آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم .

ثم ذكر موقف الكفار من القرآن الذى أنزله الله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم وخاطبهم بقوله :

(وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » .

ثم أمر رسوله بأن يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجنة فقال:

(وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)(١) .

إن النار التى أعدت للكافرين من نوع لم يشهده أهل الدنيا فهى موقدة بالناس والحجارة ، وقد جعل الله تلك الموقدة بالناس موقدة كذلك بالحجارة لأنهم قرنوا بها أنفسهم فى الدنيا حيث نحتوها أصناما وجعلوا منها آلهة يعبدونها من دون الله ، وقد بين الله ذلك فى قوله فى آية أخرى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) وقد أعدت تلك النار وهيئت للكافرين مأوى لهم وبئس المصير الذى صاروا إليه .

والبشارة إما أن يكون المأمور بها الرسول عليه الصلاة والسلام وإما أن يكون المأمور بها كل أحد من المؤمنين .

والجنة : البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه

واختلف فى الجنة : أهى مخلوقة أم لا .

قال البعض : إنها مخلوقة مستدلا بسكنى آدم وحواء فيها قبل هبوطهما إلى الأرض وإن ثمار الجنات تشبه أثمار جنات الدنيا وكلما رزقوا من ثمرة رزقا كالتفاح أو العنب أو الرمان قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا بذلك المرزوق متشابها لأن الإنسان بالمألوف آنس وإلى المعهود أميل وإذا لم ير ما يألفه نفر عنه طبعه وعافته نفسه .

ولهم فيها أزواج مطهرة ـ والمراد بتطهير الأزواج أن طهرهن مما

---

(١) البقرة

يختص بالنساء من الحيض والاستحاضة ومالا يختص بهن من الأقذار والأدناس . وهم فيها خالدون : والخلد الثبات الدائم والبقاء اللازم الذى لاينقطع .

●★●

وقد جمع الله الذين آمنوا اليهود والنصارى والصابئين إذا عملوا جميعا صالحا فى حكم واحد وهو أن لهم الأجر عند الله وأنهم لايخافون ولا يحزنون فقال :

(إنَّ الذين آمنوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)[1] .

اختلف المفسرون فى المراد من قوله : الذين آمنوا وسبب الاختلاف يرجع إلى قوله فى آخر الآية : من آمن بالله واليوم الآخر فالمراد بالإيمان فى آخر الآية غير المراد منه فى أولها ومن ثم اختلفوا فى الذين آمنوا الأولى .

١ — فبعضهم قال : المراد بهم الذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون .

٢ — وبعضهم قال : المراد الذين آمنوا قبل مبعث النبى بعيسى من أمثال قس بن ساعدة وبحيرى الراهب وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة ابن نوفل .

والذين هادوا من هاد يهود إذا دخل فى اليهودية

والنصارى الذين نصروا المسيح .

---

(١) البقرة

والصابئين من صبأ إذا خرج من الدين ، واختلف فيهم فقيل :

١ — هم طائفة من اليهود والمجوس لاتؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم .

٢ — وقيل هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى الشمس كل يوم خمس صلوات .

٣ — وقيل هم قوم كانوا يعبدون الكواكب .

وزوال الخوف والحزن عن هؤلاء جميعا قيل فى الدنيا وقيل فى الآخرة وهو الأصح وظاهر الآية يشير إلى أن هؤلاء جميعا حين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحا لهم ماقضى به الله وهو الأجر وعدم الخوف والحزن ولم ينص صراحة على الإيمان بمحمد ورسالته ولكن نظرة إلى قوله تعالى فى آية أخرى : ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين يتبين أن الذين آمنوا بألسنتهم على رأى اليهود والنصارى والصابئين لايقبل من أحد منهم عمل إلا ماوافق شريعة محمد بعد أن بعثه الله بما بعثه به من صلاة وزكاة وحج وصوم وكل ذلك بعد الشهادتين .

●★●

وإذا ذكر الله فى القرآن آية فى الوعيد ذكر بجانبها آية فى الوعد ليظهر بذلك عدله بين المصريين على الكفر وبين المؤمنين فجعل العذاب للأولين والنعيم للآخرين وبوعده يظهر كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته .

وعلى ضوء ذلك فقد قابل بين اليهود الذين قالوا (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) ، فرد عليهم بقوله : (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقابل بين هؤلاء وبين المؤمنين

الذين يعملون الصالحات وما جعله لهم فى الآخرة جزاء إيمانهم وعملهم فقال :

(والَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون) (١) .

وهكذا قضى الله بالجنة وبالخلود فيها لمن يجتمع فيه أمران :

أولهما : الإيمان بأوسع معانيه من حيث التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وبالغيب وبما أنزل على محمد من القرآن وبما أنزل من قبله من التوراة والإنجيل دون تحريف .

وثانيهما : العمل الصالح ، أى الإتيان بجميع الصالحات ومن جملتها التوبة عما ارتكب من الخطايا فالجنة التى يجزى الله بها طائفة من عباده كانت ثمرة الإيمان والعمل الصالح .

●✱●

وبعد أن صور الله آكلى الربا وأن من انتهى منهم فأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون أتبع ذلك ببيان جزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات فقال :

(إِنَّ الَّذِين آمنوا وعمِلُوا الصَّالِحَاتِ وأقامُوا الصَّلاَةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ولاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُون) (٢) .

جمع الله بين الإيمان والعمل الصالح وأضاف إليهما إقامة الصلاة وإيتاء

---

(١) البقرة (٢) البقرة

الزكاة ليجعل من كل من فعل ذلك عنده الأجر وليزيل عنه الخوف والحزن فى الآخرة .

ولاشك أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يدخلان فى العمل الصالح فخصهما بالذكر بعد دخولهما فى العمل الصالح لينبه على مزيد فضل القائمين بهما وهذا من ذكر الخاص بعد العام فكأنه ذكرهما فى نطاق العمل الصالح ثم ذكرهما منفردين لينوه بشأنهما .

وقال ابن عباس فى تفسير قوله : (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) إنهم لاخوف عليهم فيما يستقبلهم من أحوال القيامة ولا هم يحزنون بسبب ماتركوه من الدنيا .

و ل الأصم : لاخوف عليهم من عذاب يومئذ ولاهم يحزنون بسبب أنه فاتهم النعيم الزائد الذى قد حصل لغيرهم من السعداء .

● ★ ●

وقابل الله بين الكفار وما أعد لهم من عذاب دنيوى وأخروى وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات فبين أنه سيوفيهم أجورهم .

فقال (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين) والعذاب الدنيوى الذى توعـــدهم به هو القتل والسبى والمرض .

ثم قال :

(وأَمَّا الذين آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَنُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ واللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)[1] .

---

(١) آل عمران

فى هذه الآية لم يذكر الله جزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات على أنه الجنة كما ذكر فى الآيات السابقة وإنما وعدهم بإيفاء الأجر جزاء الإيمان والعمل الصالح .

وذيل بقوله والله لايحب الظالمين ، وهذا التذييل مقرر لمضمون آية الكفار وأورد الظلم للاشعار بأنهم بكفرهم قد تجاوزوا الحد وظلموا بذلك أنفسهم وحياتهم وهو لا يحب الظالمين .

●✱●

وبعد أن بين الله جزاء الكافرين فى أنه سوف يصليهم نارا وأنه سيبدل جلودهم كلما نضجت في قوله : (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب)

قابل بين ذلك وبين جزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات فقال :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً)[1] .

بين الله فى الآية ثواب المطيعين فى:

١ — أنه سيدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار أى مياه الأنهار .

٢ — وأنهم مخلدون فى تلك الجنات خلودا أبديا لا ينقطع .

٣ — وأن لهم فيها أزواجا مطهرة من الحيض والاستحاضة وقذارة الدنيا .

---

(١) النساء

٤ — وأنه سيدخلهم الظل الظليل الفينان الذى لاتنسخه الشمس وليس فيه حر ولا برد بل فيه كل مايمتع النفس من الراحة .

●★●

وبعد أن بين الله جزاء المشركين الضالين الذين اتخذوا الشيطان وليا يعدهم ويمنيهم ، وبين أنهم بين الجزاء الذى أعده لهم فجعل مأوام جهنم لا يجدون عنها محيصا ولا مفرا .

قابل بينهم وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات وقد وعدهم الله بأنه سيدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن أصدق قولا ووعدا من الله فقال :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سنُدْخِلُهُمْ جنَّاتٍ تجرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقَ مِنَ اللهِ قِيلاً)(١) .

أثبت الله فى هذه الآية جزاءه للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنه :

١ — سيدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .

٢ — أنهم خالدون فيها خلودا أبديا غير منقطع .

٣ — أثبت وعده لهم بالجنة والخلود فيها .

٤ — أكد هذا الوعد أولا بمصدرين هما وعد الله كأنه قال : وعد وعدا والثانى حقا أى حق ذلك حقا ثم أتى بمؤكد ثالث وهو قوله : ومن أصدق من الله قيلا .

---

(١) النساء

وبهذه المؤكدات عارض ماذكره الشيطان لأتباعه من المواعيد الكاذبة والأمانى الباطلة ، ووعد الله أولى بالقبول وأحق بالتصديق من مواعيد الشيطان الكاذبة .

●★●

قال مسروق لما نزل قوله تعالى : (من يعمل سوءً يجز به) قال أهل الكتاب للمسلمين : نحن وأنتم سواء فنزل قوله تعالى :

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)[1] .

إن الأمر معقود بالعمل فمن عمل صالحا فهو الفائز ومن عمل سيئا فهو الهالك . ومن فى قوله : من الصالحات للتبعيض والمراد ومن يعمل بعض الصالحات حيث لا يمكن عمل كل الصالحات لإنسان ما بل يعمل مافى وسعه وأما من فى قوله من ذكر . . فلبيان الإبهام فى قوله من يعمل .

والنقير : النقرة فى ظهر النواة والمعنى : أنهم لا ينقصون قدر النقرة التى فى ظهر النواة من أعمالهم وما ربك بظلام للعبيد من عمال الصالحات وعمال السوء .

●★●

ذكر الله المستنكفين المستكبرين عن عبادته وأنه سيحشرهم يوم القيامة جميعا ثم ذكر ثواب المؤمنين المطيعين ، وثنى بذكر ماأعد لأولئك المستنكفين المستكبرين فقال :

---

(١) النساء

(فَأَمَّا الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً)(١).

روى أن وفد نجران من النصارى قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعيب صاحبنا قال ومن صاحبكم قالوا : عيسى ، قال وأى شىء أقول ؟ قالوا تقول : إنه عبد الله ورسوله ، قال : إنه ليس بعار أن يكون عبد الله فنزلت الآية ومعناها : إن عيسى لا يستنكف من كونه عبد الله ولا الملائكة كذلك تستنكف وسيحشر الجميع إليه للسؤال والحساب وذكر الله ثواب المؤمنين المطيعين مجملا فى قوله : يوفيهم أجورهم فلا ينقصهم شيئاً من الأجر جزاء طاعتهم وإيمانهم ويزيد على الأجور أنه كذلك سيزيدهم من فضله وفضل الله عظيم يعطيهم من الثواب على قدر صالحاتهم ثم يزيدهم من إحسانه وسعة رحمته ، أما المستنكفون المستكبرون فلهم العذاب الأليم الشديد وحين يتلفتون من حولهم ليجدوا ولياً يتولاهم ويدفع عنهم العذاب أو ليجدوا نصيراً ينصرهم لم يجدوا غير العذاب الذى ينتظرهم .

● ★ ●

وكثيراً ما وعد الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجنة وفى الآية الآتية يعدهم بالمغفرة والأجر على حين يتوعد الكافرين الذين كذبوا بآياته بالجحيم الذى جعله صاحبهم وجعلهم أصحابه فقال :

---

(١) النساء

(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ عَظِيمٌ وَالذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)[1].

بهذه الآية بين وعده للمؤمنين ، وحدد الوعد بالمغفرة وبالأجر العظيم وكأن سائلا سأل : أى وعد جعله للمؤمنين العاملين الصالحات فقيل : لهم مغفرة وأجر عظيم أو على تقدير القول بمعنى وعدهم وقال : لهم مغفرة وأجر عظيم ، والله لا يخلف وعده وهذا القول يتلقون به عند الموت فيهون عليهم سكراته وأهواله أو يوم القيامة فيسرون به وتستروح نفوسهم ثوابه .

● ✱ ●

ثم رغب فى الإيمان والعمل الصالح فقال :

(إنَّ الَّذِينَ آمنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)[2] .

قيل : المراد بالذين آمنوا فى أول الآية هم الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .

وإن هؤلاء جميعا من آمن بالله واليوم الآخر منهم وعمل صالحا ، ولا يتأتى إيمانهم بالله وحده بل لا بد أن يؤمن برسوله بعد بعثته ويؤمن بما جاء به من شريعة فمن اتصف بكل ذلك لا خوف عليهم فيما يستقبلونه يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما تركوا وراء ظهورهم ، ولا على ما يكون قد فاتهم من العمل .

●★●

---

(١) المائدة (٢) المائدة

وبين الله أنه لا جناح على الذين آمنوا وعملوا الصالحات إذا كانوا قد شربوا الخمر وماتوا قبل أن ينزل تحريمها فقال :

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[١] .

روى أنه لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة : يا رسول الله فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر فنزلت الآية : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح) ومعنى ذلك أن المؤمنين الذين عملوا الصالحات لا جناح عليهم فى أى شىء طعموه مما كان مباحا قبل التحريم إذا ما اتقوا المحارم ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا أى أن أولئك كانوا على هذه الصفة وفى ذلك ثناء عليهم وحمد لأحوالهم فى الإيمان والتقوى والإحسان ، وللترغيب فى الإحسان ذيل الآية بقوله تعالى : (والله يحب المحسنين) ومن ذا الذى لا يود أن يحبه الله جزاء إحسانه .

●✱●

وبين الله أن رسله مهمتهم التبشير والإنذار وأن من آمن من الناس بهم وأصلح فلا خوف عليه فقال :

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[٢] .

قصر الله مهمة الرسل على التبشير والإنذار فحسب ، ثم بين موقف الناس منهم فمن آمن من الناس بقلبه وبكل ما جاء به الأنبياء من عند الله

---

(١) المائدة (٢) المائدة

وأصلح عمله باتباعه إياهم فلا خوف عليهم بالنسبه لما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمر الدنيا .

● ✱ ●

وقابل الله بين الذين كذبوا بآياته واستكبروا عنها فأخبر أنهم لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ثم بين جزاءهم الأخروى فقال : (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) تغشاهم وتغطيهم وهذا جزاء الظالمين ثم قابل هذا بالمؤمنين الذين يعملون الصالحات وأخبر بأن جزاءهم الجنة فقال :

(إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين) .

ثم قال :

(وَالَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[1] .

وهكذا بعد أن بين الله وعيده للكفار أتبعه بوعده للمؤمنين وقوله : (لا نكلف نفساً إلا وسعها) اعتراض بين المبدأ والخبر والتقدير والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة . . . ، وبهذا الاعتراض بين الله أن العمل الذى كلفوا به هو فى وسعهم غير خارج عن طاقتهم ، وليوضح للكفار أن الجنة مع عظمها يوصل إليها بالعمل السهل ومعنى الوسع : مايقدر الإنسان عليه فى حالة السعة والسهولة .

● ★ ●

---

(١) الأعراف

وبين الله جزاء الذين لايرجون لقاءه ورضوا بالحياة واطمأنوا بها وغفلوا عن آياته فحدد ذلك الجزاء بالنار وجعلها مأواهم فقال : (أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) .

ثم قابل ذلك بجزاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات وهداهم ربهم بإيمانهم وكان ذلك الجزاء أن جعل مقامهم في جنات النعيم التى تجرى من تحتها الأنهار فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)[1] .

وهكذا بين الله أن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح يرشدهم الله بسبب إيمانهن إلى سلوك السبيل المؤدى إلى الثواب وقوله تجرى من تحتهم الأنهار بيان وتفسير لذلك الثواب أو يهديهم الله فى الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة ويفسر ذلك الحديث .

إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة فيقول له : أنا عملك فيكون له نوراً وقائدا إلى الجنة ، والكافر إذا خرج من قبره صور له عمله فى صـــورة سيئة فيقول له : أنا عملك ، فينطلق به حتى يدخله النار .

والإيمان الذى يهدى هو الإيمان المقرون بالعمل الصالح .

● ✱ ●

وبين الله أن مرجع الناس جميعا إليه ليجزى الذين آمنوا وعملوا ثم قابل ذلك بجزاء الكافرين فقال :

---

(١) يونس

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ)(١) .

ثم قال (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) فبين أن العاقبة والنهاية هى الرجوع إلى الله وأكد ذلك بمصدرين الأول وعد والثانى حقا ، والحكمة فى بدء الخلق وإعادته هى جزاء المكلفين على أعم ى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالعدل ويوفيهم أجورهم بالقسط دون ر لم أحدا ، وبين جزاء الكافرين بأن لهم شرابا من حميم وهو الماء المغلى الذى لا يطفىء ظمأً وعذابا أليما بسبب كفرهم .

●✻●

وقابل بين جزاء الظالمين الذين يفترون على الله الكذب ويصدون عن سبيله ويكفرون بالآخرة ، وأولئك قد خسروا أنفسهم ، وجزاؤهم فى الآخرة الخسران .

قابل بين هؤلاء وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ثم بين أن جزاءهم الجنة فقال : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً إلى قوله : أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون) .

ثم قال :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)(٢) .

الخبت : الأرض المطمئنة والمراد بقوله : وأخبتوا إلى ربهم أى اطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع .

---

(١) يونس (٢) هود

فجزاء أولئك الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى الله جزاؤهم الجنة فهم أصحابها وأهلها وهم خالدون فيها .

●✱●

وبين الله أن طوبى جزاء أعده الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات فقال :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)[١] .

طوبى : قيل اسم شجرة فى الجنة وقيل : مصـــدر من طاب بمعنى أصاب طيبا .

وقيل : اسم الجنة .

المآب : المرجع والمقر .

وهكذا وعد الله عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأعظم النعيم ترغيبا لهم فى طاعته .

وقد جعل الله لهم طوبى وقدمنا تفسيرها كما جعل لهم المقر الحسن .

● ✱ ●

وبين الله جزاء الذين ظلموا أنفسهم باتباع الشيطان وقد ذكر الحوار بين التابع والمتبوع .

ثم بين الجزاء بأنه العذاب الأليم ثم بين جزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنه الجنة والخلود فيها بإذن ربهم فقال :

(وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) .

---

(١) الرعد (٢) ابراهيم

وهكذا بعد أن شرح أحوال الأشقياء بَيَّن أحوال السعداء وهم المؤمنون الذين عملوا الصالحات فأدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وجعل لهم الخلود فيها، وأن ذلك حصل بإذن الله وأمره وأن تحيتهم بينها : سلام ، فالملائكة يحيونهم بها كما قال الله : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم) والرب يحييهم أيضا بتلك الكلمة :)سلام قولا من رب رحيم) .

وبعضهم يحيي بعضا بقوله : سلام فتلك هى تحية الجنة .

●★●

ووعد الله المؤمنين العاملين الصالحات من الذكور والإناث بأن يحييهم حياة طيبة ويجزيهم أجر العمل فقال :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(١) .

إن (مَنْ) فى قوله من عمل صالحا إذا أطلق شمل الذكر والأنثى إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله الذكور ولهذا بينه بقوله: من ذكر أو أنثى ليعم الوعد النوعين من البشر ، وقوله حياة طيبة أى فى الدنيا ، وقد وعدهم بالجزاء فقال : ولنجزينهم أجرهم : فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : الحياة الطيبة : الرزق الحلال وعن الحسن : القناعة وعن قتادة : الجنة ، وقيل : هى حلاوة الطاعة والتوفيق الذى يحسه قلب المؤمن .

●★●

---

(١) النحل

وبين الله أن القرآن يهدى للشريعة والديانة القويمة ويبشر المؤمنين العاملين بالأجر ويبين ما أعده الله للكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة من العذاب فقال :

(إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً)[1] .

أثنى الله على القرآن بأنه يهدى للديانة الأقوم من كل الأديان ، وقوله : التى هى أقوم نعت لموصوف محذوف والتقدير : يهدى للملة أو الشريعة أو الطريقة التى هى أقوم ، وإلى جانب أنه يهدى للشريعة التى هى أقوم فإنه يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالأجر الكبير عند الله كما بشرهم بعقاب أعدائهم فى الآخرة وأنه أعد لهم العذاب الأليم أو بشر الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة بأن أعد لهم العذاب الأليم ، والبشارة بالعذاب على سبيل التهكم أو هو من باب إطلاق اسم الضدين على الآخر كقوله : وجزاء سيئة سيئة مثلها .

وهذه الآية فى شرح أحوال اليهود وهم لا يؤمنون بالآخرة وأكثرهم ينكر الثواب والعقاب الجسمانى أو أن بعضهم يقول (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) فهم بهذا القول صاروا كالمنكرين للآخرة .

وبين الله كذلك أن الكتاب الذى أنزله على عبده جعله قيما وبشر به المؤمنين العاملين الصالحات أن لهم أجراً حسناً وأنذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً فقال :

---

(١) الإسراء .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً لِيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً)[1] .

إنزال الكتاب على عبده نعمة على النبى ونعمة علينا ، لأنه أطلعه بهذا الكتاب على التوحيد وصفات الجلال وأحوال الملائكة والانبياء وغير ذلك ، ونعمة علينا لأنه اشتمل على التكاليف والأحكام والوعد والوعيد والثواب والعقاب .

والعوج يراد منه نفى التناقض عن آياته ومعانيه (وقيما) يعنى مستقيما وأنه سبب لهداية الخلق وقد أنزل الله الكتاب على عبده لينذر به الناس جميعا ويبشر به المؤمنين .

وقد وصف المؤمنين بالعمل الصالح ثم وعدهم الله بالأجر الحسن على ماعملوه ، وأن هذا الأجر الذى وعدهم الله به سيمكثون فيه أبدا فلايخرجون منه وهو الجنة التى وعد بها المؤمن الصالح ، وينذر بهذا القرآن وبما جاء فيه أولئك الذين قالوا اتخذ الله ولدا من اليهود والنصارى (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) فهؤلاء وأولئك يتوعدهم الله بعذابه على ماقالوا .

●✱●

وقابل الله بين ماأعد للظالمين وما أعد للمؤمنين العاملين فقال :

---

(١) الكهف

(إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا) .

ثم قال :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا)(١) .

ذكر الله الوعيد للظالمين ، وأردفه بوعده للمؤمنين وقد أثبت للمؤمنين الأجر المبهم ثم أتبعه بالتفصيل فوصف مكانهم بقوله: أولئك لهم جنات عدن والعدن : الإقامة فكأنه قال أولئك لهم جنات إقامة ومن صفات تلك الجنات أن الأنهار تجرى من تحتها لأن أفضل مساكن الدنيا هى البساتين التى تجرى فيها الأنهار .

واللباس إما أن يكون للتحلى والزينة ، أو للستر فلباس الزينة الذى يتحلى به المؤمنون فى الجنة هو أساور من ذهب كما يحلون بأساور من فضة بينها الله فى آية أخرى فى قوله : (أو حلوا أساور من فضة) .

وأما اللباس الذى يستترون به فبينه فى قوله : (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس) وهو الديباج الرقيق (واستبرق) وهو الديباج الغليظ .

ثم أشار إلى كيفية جلوسهم بقوله : (متكئين فيها على الأرائك) ،

---

(١) الكهف

والإتكاء هيئة المنعمين فى الدنيا من الملوك وغيرهم ، وهم على أسرتهم وعروشهم ، والأرائك جمع أريكة وهى السرير أو العرش .

وبعد أن وصف الله زينتهم ولباسهم وجلوسهم وما يجلسون عليه ختم كل ذلك بقوله : (نعم الثواب) الذى أثاب الله به المؤمنين العاملين وحسنت الجنة مرتفقا ومتكأ لأولئك المؤمنين العاملين

وقد أمر اليهود المشركين أن يسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن قصة أصحاب الكهف وعن الروح وعن ذى القرنين فقص عليهم قصة أهل الكهف وأجابهم : الروح من أمر ربى ، وقص عليهم قصة ذى القرنين

وذو القرنين هو الاسكندر الذى ملك الغرب بدليل قوله : (حتى إذا بلغ مغرب الشمس) وبلغ الشرق بدليل قوله تعالى : (حتى إذا بلغ مطلع الشمس) وبلغ أقصى الشمال بدليل قوله تعالى إن يأجوج ومأجوج) وهم قوم من الترك كانوا يسكنون أقصى الشمال .

وسمى (ذا القرنين) لأنه طاف قرنى الدنيا يعنى جانبيها شرقا وغربا وقيل : كان له قرنان أى ضفيرتان وقيل كان على تاجه قرنان .

وقد مكن الله له فملك أرض فارس والروم وروى : الترك والروم .

وقد كان سكان آخر المغرب كفارا فخير الله ذا القرنين فيهم بين التعذيب إن إقاموا على كفرهم وبين المن عليهم والعفو عنهم وذلك قوله تعالى :

(قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا قال : أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا) .

ثم قال :

(وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى)(١) .

قيل التقدير : فله جزاء الفعلة الحسنى وهى كلمة الشهادة وذلك الجزاء قد جعل لمن جمع بين الإيمان ومايقتضيه وبين العمل الصالح .

●★●

وقابل الله بين الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وكفروا بآيات الله فحبطت أعمالهم ، قد جعل الله جزاءهم جهنم بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزوا .

قابل بين هؤلاء وبين المؤمنين العاملين الصالحات ، وقد جعل الله لهم جنات الفردوس نزلا وخلدهم فيها فهم لايحولون عنها فقال :

(إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا)(٢) .

وهكذا ذكر الله وعيده لمن ضل سعيهم وكفروا بآياته ورسله ثم أتبعه بوعده للمؤمنين وعن قتادة أن الفردوس وسط الجنة وأفضلها .

وقيل الفردوس أعلى الجنان وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، وفى الحديث : إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإن فوقها عرش الرحمن ومنها تتفجر أنهار الجنة .

وإن جنات الفردوس التى وعد الله بها المؤمنين الذين يعملون الصالحات قد جعلها الله نزلا لهم ومقرا ، وجعل لهم الخلود الدائم فيها وهم لا يطلبون

---

(١) الكهف

تحولا عنها ولا تطمح أبصارهم إلى ما هو أعلى منها لأنها وصلت إلى درجة من الكمال تشد المؤمن دائما إليها، ولا تجعله يتطلع إلى النزوح إلى غيرها أملا فى سعادة أكثر فليس بعد المقام فيها سعادة ترتجى فى غيرها .

● ★ ●

وبعد أن ذكر الله الذين أنعم عليهم من النبيين وممن هداهم واجتباهم ممن يخرون سجدا إذا تليت عليهم آيات الرحمن ذكر أنه خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وتوعدهم بأنهم سيلقون غيا وهو واد فى جهنم، ثم استثنى من أولئك من تاب وآمن وعمل صالحا فقال :

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا)[1] .

إن الاستثناء يدل على أن أولئك الذين قضى لهم بدخول الجنة وأنهم لا يظلمون شيئا من أعمالهم لابد أن يجمعوا بين التوبة والإيمان والعمل الصالح .

● ★ ●

وبعد أن ذكر الله أحوال الكفرة ختم سورة مريم بذكر أحوال المؤمنين فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدًّا)[2] .

ومعنى الآية أن الله سيحدث لهم الحب والمودة فى قلوب الناس من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب التى تكتسب بها المودة .

---

(١) مريم (٢) مريم

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : إذا أحب الله عبدا نادى جبريل ، قد أحببت فلانا فأحبوه فينادى جبريل عليه السلام بذلك فى السماء والأرض

●✶●

وإن من رحمة الله بعباده أنه يقبل توبة التائب ، ويغفر خطيئة المذنب وما أكثر ما وعد فى القرآن بتكفير السيئات ومغفرة المعصية وفيما يلى يؤكد مغفرته لمن تاب وآمن وعمل صالحا واهتدى فقال :

(وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى)[١] .

ولقد وصف الله نفسه بكونه غافرا وغفورا وغفارا وبأن له غفرانا ومغفرة وعبر عن غفرانه بالماضى والمستقبل والأمر فقال : (غافر الذنب) ، (وربك الغفور) (وإنى لغفار) ، (غفرانك ربنا) ، (إن ربك لذو مغفرة) ، (فغفرنا له ذلك) ، (إن الله لا يغفر أن يشرك به) ، (ليغفر لك الله) ،(واستغفر لذنبك) وقد استغفر الأنبياء كلهم فقال آدم : (وإن لم تغفر لنا) وقال نوح (وإلا تغفر لى وترحمنى) وقال إبراهيم (والذى أطمع أن يغفر لى) وقال يوسف : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) وقال موسى : (رب اغفر لى ولأخى) وأما داود (فاستغفر ربه) وسليمان قال : (رب اغفر لى) . وعيسى : (وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) وأما محمد فقوله (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات)

وفى هذه الآية يعد الله بغفران ذنب من اجتمعت فيه الأمور الأربعة : التوبة والإيمان والعمل الصالح والاهتداء .

---

(١) طه

والمراد بالاهتداء : استمراره على طريق الهداية .

●✱●

وبعد أن شرح الله أحوال يوم القيامة من نحو قوله : وعنت الوجوه للحي القيوم طمأن المؤمنين الذين عملوا الصالحات على مصيرهم فقال :

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا)(١) .

قيل إن (من) فى قوله من الصالحات للتبعيض لأن الإنسان لا يستطيع القيام بكل الصالحات وقيل : الصالحات هى الفرائض . ومن قرب العمل بالإيمان (فهو لا يخاف ظلما) والظلم أن يعاقب على غير جريمة ارتكبها أو يمنع من الثواب على الطاعة والهضم : أن ينقص من ثوابه وقيل: الهضم أن لا يوفي حقه من الإعظام .

●★●

وبعد أن ذكر الله أن أمة الإسلام أمة واحدة وأنه الله الذى يجب أن يعبد وذكر تفرقهم وأنهم راجعون إليه جميعا قال :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)(٢) .

فى هذه الآية بين أن من جمع بين أن يكون مؤمنا وبين أن يعمل الصالحات فلا كفران لسعيه أى لا بطلان لثواب عمله ، والله كاتب لجميع سعى ذلك المؤمن العامل والجمع للتعظيم أو كاتبون بمعنى حافظون لعمله لنجازيه عليه .

---

(١) طه (٢) الأنبياء

والمراد من هذا ترغيب العباد فى التمسك بطاعة الله من الإيمان والتصديق به وبرسله وترك المحظورات .

●✱●

وبعد أن بين الله حال المنافقين وحال معبودهم فى قوله ومن الناس من من يعبد الله على حرف إلى آخر الآية بين حال المؤمنين وأوضح ما أعد للمؤمنين العاملين من الجنة التى وعدهم بدخولها فقال :

(إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)(٢) .

وهكذا وعد الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجنات التى تجرى تجرى من تحتها الأنهار ، وبين أنه يفعل ما يريد بهم من أنواع الفضل والإحسان زيادة على أجورهم كما قال فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وهو يفعل ما يريده لا ما يريد أن يفعله غيره .

●✱●

وقابل الله بين الخصمين اللذين اختصموا فى ربهم وبين جزاء كل منهما (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به مافى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) .

أما المؤمنون فقد وعدهم الله بالجنة وقدم لهم الوصف المغرى لها ليرغبهم فيها ويحثهم على العمل لبلوغها فقال :

---

(١) الحج

(إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)(١) .

الخصمان اللذان بينهما الله فى الآية السابقة هما طائفة من المؤمنين وجماعة الكفار وبعد أن بين الله حال الكفار من تقطيع ثياب لهم من النار إلى آخر ما صور بين حكمه فى المؤمنين من ناحية :

١ — المسكن : فهو يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار .

٢ — الزينة : يحلون فى الجنة من أساور من ذهب ولؤلؤ .

٣ — اللباس : وعدهم بأن يلبسهم فى الجنة الحرير .

٤ — هداهم إلى الطيب من القول وإلى صراط الله الحميد .

● ★ ●

وبين الله لرسوله أن ينادى فى الناس إنه النذير المبين لهم ثم أردف ذلك بوعده للمطيعين ووعيده للعصاة وقابل بين جزاء كل منهما .

فقال :

(فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)(٢) .

ثم قال : (والذين سعوا فى آياتنا مُعاجزين أولئك أصحاب الجحيم) .

فقد جمع فى الآية الأولى بين وصفين هما الإيمان والعمل الصالح وفى هذا دليل على أن العمل الصالح غير الإيمان ، ويدخل فى العمل الصالح أداء الواجبات ، وترك المنهيات ثم بين الله أن من جمع بينهما جمع الله له بين

---

(١) الحج (٢) الحج

أمرين: المغفرة والرزق الكريم ، أما المغفرة فهى غفران الصغائر أو الكبائر بعد التوبة .

وأما الرزق الكريم دائماً فهو إشارة إلى ثوابه وكرمه وجعل الرزق كثيراً دائماً خالصاً الن شوائب الضرر والتكدير .

●★●

وبين الله أن الملك يوم القيامة له وحده يحكم فيه بين الناس جميعاً ثم قابل بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين فقال : الملك يومئذ لله يحكم بينهم .

ثم قال : (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ)(١) .

وقال (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك لهم عذاب مهين) .

بعد أن بين الله أنه الحاكم فى هذا الموقف بين كيف يحكم بينهم وأنه يصير المؤمنين إلى جنات النعيم ، والكافرين فى العذب المهين .

●★●

ووعد الله المؤمنين الذين عملوا الصالحات باستخلافهم فى الأرض وأن يمكن لهم الدين المرتضى وهو دين الإسلام ويثبته ويوطده فقال :

(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)(٢) .

---

(١) النور　　　(٢) النور

بهذا وعد الله المؤمنين أن ينصرهم على الكفار ويورثهم الأرض ويجعلهم فيها خلفاء، وأن يمكن ويوطد للدين الإسلامى وأن يؤمن نفوسهم، ويزيل عنهم الخوف الذى كانوا عليه .

وقد عاش النبي وصحبه بمكة عشر سنين خائفين ، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون فى السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل : ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فقال صلى الله عليه وسلم : لاتغبرون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة، فأنجز الله وعده ، وأظهرهم على جزيرة العرب ، وافتتحوا بلاد المشرق والمغرب ، ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم ، واستولوا على الدنيا .

وهكذا حقق الله وعده ، ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الدين وفرقتهم الأهواء وحب الدنيا فذلوا وهانوا على الناس بل على أنفسهم .

●★●

وبين الله أن من صفات عباد الرحمن : الاحتراز عن الشرك والقتل والزنا ثم بين أنه من يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب ويخلد فيه ثم استثنى ممن يضاعف لهم العذاب التائب المؤمن الذى عمل صالحا فقال :

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا)[1] .

إن العمل الصالح يدخل فيه الإيمان والتوبة ، ولكن الله أفردها بالذكر لعلو شأنهما .

وتبديل الحسنات إنما يكون فى الدنيا فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم

---

(١) الفرقان

فى الشرك بمحاسن الإعمال فى الإسلام فَيُبَدِّلُهم بالشرك إيماناً ، وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا عفة وإحصاناً .

وقيل : إن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة .

وهكذا يبدل الله السيئات حسنات لمن جمع بين التوبة والإيمان والعمل الصالح ، ثم ختم الآية بالإخبار عن غفران الله ورحمته بعباده المنيبين إليه العائبين عن المعاصى المؤمنين العاملين الصالحات .

●✱●

وقد ذم الله الشعراء وبين أنهم يهيمون فى كل واد ويقولون مالا يفعلون .

ولما نزلت الآية جاء حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهم يبكون لأن القرآن وصفهم ووصف غيرهم بالغواية وأنهم يقولون مالا يفعلون وقد علم الله حين أنزل الآية أنا شعراء فنزل قوله تعالى :

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا)(٢) .

وبهذا استثنى الله من وصفوا بالغواية أولئك الشعراء الذين اتصفوا بما يأتى :

١ – الإيمان كما فى قوله تعالى : إلا الذين آمنوا .

٢ – العمل الصالح كما فى قوله تعالى : وعملوا الصالحات .

---

(١) الشعراء

٣ — أن يكون شعرهم فى التوحيد والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق كما فى قوله : وذكروا الله كثيراً .

٤ — ألا يهجوا أحداً إلا على سبيل الانتصار ممن يهجوهم كما فى قوله تعالى : وانتصروا من بعد ما ظلموا .

وقيل المراد بهذا الاستثناء : حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير لأنهم كانوا يهجون قريشا ويدفعون عن الرسول أولئك الذين هجوه من أمثال أبى سفيان بن الحارث وعمرو ابن العاص وعبد الله بن الزِّبَعْرَى وقد عبأتهم قريش لهجاء الرسول بعد الهجرة فقام شعراء الإسلام بهجائهم ليدفعوا عن الرسول ، وعن كعب ابن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : اهجهم فوالذى نفسى بيده لهو أشد عليهم من رشق النبل ، وكان يقول لحسان بن ثابت قل وروح القدس معك .

●✱●

وبعد أن بين الله حال الكفار وما يجرى عليهم من التوبيخ وسؤالهم أين شركائى الذين كنتم تزعمون ودعوتهم للشركاء ورؤيتهم العذاب أتبع ذلك بذكر التائبين ترغيباً فى التوبة وزجراً عن الاستمرار فى الكفر فقال :

(فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)[1] .

وهكذا بيّن الله أن من تاب عن الكفر والمعاصى والخطايا وآمن بالله

---

(١) القصص

وأضاف إلى إيمانه العمل الصالح فإنه يرجى ويطمع فى أن يكون فالحاً فائزاً بشرط المداومة على التوبة والإيمان .

وقد جعل الله رجاء الفلاح مقيداً بالتوبة والإيمان والعمل الصالح .

●★●

ووعد الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن يكفر عنهم سيئاتهم ويجزيهم أحسن عملهم فقال :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُون)(١) .

بين الله أن من يعمل صالحاً فلنفسه ثم فصل جزء المطيع الذى صلح عمله فى هذه الآية فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح جازاه الله بتكفير سيئاته وجزاه أحسن الجزاء .

وهكذا ذكر الله من أعمال العبد نوعين وقابلهما بنوعين من أفعال الله فتكفير السيئات فى مقابلة الإيمان والجزاء الأحسن فى مقابلة العمل الصالح .

●★●

ووعد الله المؤمنين العاملين الصالحات بأن يدخلهم فى نطاق الصالحين فقال :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِين)(٢) .

الصالحون هم الهداة ولهذا قال كثير من الأنبياء : ألحقنى بالصالحين .

---

(١) العنكبوت (٢) العنكبوت

والتقدير : لندخلنهم فى مقام الصالحين أو فى دار الصالحين أو يكون المعنى جعلهم فى عداد الصالحين .

●✱●

وقابل الله بين الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله واستعجلوا العذاب ثم استعجلوه وإن جهنم لمحيطة بالكافرين يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

ويقول (ذوقوا ما كنتم تعملون) قابل الله بين هؤلاء وجزائهم وبين المؤمنين الذين عملوا الصالحات وقد بوأهم الله غرف الجنة التى تجرى من تحتها الأنهار فقال :

(وَالذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنةِ غُرَفاً تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينْ)[1] .

وهكذا بين الله أن للمؤمنين جنات فى مقابلة أن للكافرين النيران وبين أن فى الجنات غرفاً فى مقابلة أن تحت الكافرين النار وبين أن ذلك أجر عملهم ونعم الأجر فى مقابلة جزاء عمل الكفار الذى بينه بقوله (ذوقوا ما كنتم تعملون) .

وقد ذكر فى جزاء الكافرين أن نوقهم عذاباً أى نارا لأنهم فى الدرك الأسفل وفوقهم طبقات أما المؤمنون ففى أعلى عليين .

وذكر فى العذاب : ذوقوا الإيلام قلوبهم ، وذكر فى جزاء المؤمنين : نعم أجر العاملين ليملأ قلوبهم فرحاً بالجزاء المحمود .

●✱●

---

(١) العنكبوت

ووجه الله الكافرين للسير فى الأرض لينظروا عاقبة من كان قبلهم ممن هم أشد منهم قوة وآثاراً ثم ظلموا أنفسهم بكفرهم فدمرهم الله ، وكانت عاقبتهم الخسران ، ثم أعلن أنه هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، ثم يرجعه إليه ، وكل الخلائق يوم تقوم الساعة يتفرقون وينقسمون ثم قابل بين مآل القسمين وجزاء الفريقين فقال :

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ) (١) .

ثم قال : (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون) .

عن الحسن رضى الله عنه : هو تفريق بين المسلمين والكافرين هؤلاء فى عليين وهؤلاء فى أسفل السافلين ـ والروضة البستان وأريد بها الجنة ـ ويحبرون : يسرون يقال : حبره إذا سره وتهلل له ووجهه ، واختلف فى حبور أهل الجنة وسرورهم فقيل : يكرمون ، وقيل : ينعمون .

وهكذا جعل الله السرور فى الجنة لمن جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وأما الكافرون المكذبون بآيات الله ولقاء الآخرة فهم محضرون دائماً فى العذاب لايغيبون عنه ولايخفف عنهم وما هم بخارجين من النار ولا من عذاب الله .

وأمر الله نبيه أن يأمر الكافرين بالسير فى الأرض للنظر فى عاقبة من كان قبلهم ثم طلب منه أن يقيم وجهه ووجهته للدين القويم من قبل أن

---

(١) الروم

يأتى من الله يوم لا يستطيع أحد رده ، ولا يرده الله عنهم يومئذ يصدعون ويتفرقون فمن كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحا فقد مهدوا لأنفسهم .

(لِيَجْزِىَ الذينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ مِنْ فَضْلِهِ) (١) .

إن الله سبحانه يقدم من فضله وبما يتفضل به على المؤمنين الذين عملوا الصالحات الجزاء الأوفى ولا يفلح عنده إلا المؤمن الصالح العمل .

●★●

ثم قابل الله بين من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ويولى مستكبرا إذا تليت عليه آيات الله وكأنه أصم لا يسمع ووعيد الله وتبشيره له بالعذاب الأليم .

قابل بين هذا وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات وما لهم عند الله فقال :

(وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم) ثم قال :

(إنَّ الذينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعيمِ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ العَزِيزُ الْحَلِيمْ) (٢) .

بين الله حال من تليت عليه الآيات فاستكبر ثم بين جزاء من أقبل على تلك الآيات وعمل .

فأولئك الذين جمعوا بين الإيمان (بكل ما أمر الله بالإيمان به ومن بين ذلك آياته) وبين العمل الصالح جعل الله لهم جنات النعيم وجعل

---

(١) الروم (٢) لقمان

لهم الخلود فيها وهذا وعده الحق الذى وعدبه المؤمنين العاملين وهو العزيز الذى كملت قدرته يعذب المعرض ويثيب المقبل وهو الحكيم الذى يفعل بحكمته مايراه .

وقد وحد الله العذاب فى الآية السابقة بقوله فبشرهم بعذاب على سبيل التهكم وجميع الحيثات فى الآية الثانية إشارة إلى أن رحمته أكثر وأوسع من غضبه .

وقال وعد الله حقا فأكد الجنة والخلود فيها فى جزاء المؤمنين بمصدرين هما : وعد الله ، حقا واستغنى مع المؤمنين عن البشارة لأن البشارة بالجنة دون مايكون للصالحين عند الله كالرحمة والرضوان ، ولهذا قال فى آية أخرى (يبشرهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم) وكأنه قدم الرحمة والرضوان لأنهما أعظم من الجنة ، وإن كان قد بشر بالجنة فى موطن آخر فقال : (وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) إلا أنه لم يبشر بالجنة وحدها وإنما بشر بها وبما بعدها من قوله : نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة إلى قوله : (نزلا من غفور رحيم) والنزل مايهيأ عند النزول والإكرام العظيم بعده .

●✱●

وبعد أن بين الله ماأعد للذين آمنوا بآياته وإذا ذكروا بها خروا سجدا وقد تجافت جنوبهم عن المضاجع وسهروا يدعون الله خوفا وطمعا وأنه لاتعلم نفس ما أخفى لهم من النعيم جزاء عملهم استفهم أفمن كان مؤمنا كمن فاسقا ثم فصل بين الفريقين وبين جزاء كل منهما فقال :

(أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون)[١].

ثم قال :

(وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) .

بين الله حال المجرم ثم بين حال المؤمن وكأنه يقول لمن يعقل : هل يستوى الفريقان ثم فصل بين جزاء الفريقين فأولئك الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح لهم جنات المأوى وهو نوع من الجنان ، قيل سميت بذلك لأنها تأوى إليها أرواح الشهداء ، وقيل هى عن يمين العرش ، والنزل عطاء النازل عند نزوله .

وأما الفاسقون فخذلهم وملجؤهم النار وكلما أرادوا الخروج منها أعادتهم الزبانية إليها ، وبهذا قدم الله صورة الفساق وهم يتدافعون ، ويحاولون الخروج من النار ، ولكن ملائكة العذاب يدفعونهم إلى العودة فيها على حين تدوى فى أسماعهم أصوات الحق : ذوقوا عذاب النار الذى طالما كذبتم به فى دنياكم .

وهكذا لا يسوى الله فى الجزاء أبداً بين المؤمن والفاسق : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) .

•✱•

وقد كذب الكفار بالساعة وأمر الله رسوله أن يقسم لهم أن الله لا يغيب

---

(١) السجدة

عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وأنه يحصى على الخلائق أعمالهم وأحوالهم وأفكارهم ليجزى المؤمنين العاملين بالمغفرة والرزق الكريم أما الذين سعوا فى آيات الله معاجزين فأولئك لهم عذاب من رجز أليم .

وذلك فى قوله : (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) إلى قوله :

(لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)(١) .

ثم قال : (وَالَّذِين سَعَوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم) .

بين الله علمه بالصغائر والكبائر وأنه لايعزب عن علمه مثقال ذرة وقد جمع كل ذلك وأثبته للعبد فى كتابه ليجزى من جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح بجزاءين : المغفرة والرزق الكريم فالمغفرة جزاء الإيمان والرزق الكريم جزاء العمل الصالح .

وأما الذين سعوا فى آيات الله بالإبطال ظانين أنهم يفوتون الله ويعجزونه بسعيهم فى ترويج باطلهم أولئك لهم عذاب من رجز وهو أسوأ العذاب ليؤلم الله به نفوسهم .

●★●

وقال الكفار : نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين ، وأمر الله رسوله أن يقول : إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء والرزق في الدنيا لا تدل سعته وضيقه على المحق والمبطل ولكن أكثر الناس لايعلمون ،

---

(١) سبأ

وأفسد الله استدلالهم على أن سعة الرزق تدل على أنهم محقون فى دينهم بقوله :

(وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ)(١) .

ثم قابل بين هؤلاء وبين الذين يسعون فى آيات الله بإبطالها وبين جزاءهم بقوله :

(الذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون) .

ومعنى الآية الأولى أن قولهم نحن أكثر أموالا وأولاداً لا يصح استدلالا على حقهم فى الدين فإن المال لا يقرب إلى الله وإنما المفيد والنافع هو العمل الصالح بعد الإيمان ، والمال والولد يشغل عن الله ويبعد عنه فكيف يقرب منه ، والعمل الصالح إقبال على الله واشتغال بذكره وعبادته .

فالأموال والأولاد إذا لم تشغل العبد عن الله بل بذلهما العبد فى مرضاة الله تكون عندئذ زلفى وقربى مع الإيمان والعمل الصالح وأولئك الذين يبذلون المال والولد فى سبيل الله وقد آمنوا وعملوا الصالحات لهم جزاء الضعف أى الحسنة المضاعفة بسبب عملهم وهم فى الغرفات آمنون من كل شر وسوء وأشار بالغرفات إلى غرفات الجنة وبالأمن إلى دوام النعيم فيها لأن من تنقطع عنه النعمة لا يكون آمناً .

---

(١) سبأ

ثم بين جزاء الساعين فى آيات الله بقوله : أولئك فى العذاب محضرون أى مقيمون كلما أرادوا الخروج من العذاب أعيدوا فيه .

●✻●

وبين الله أن الشيطان عدو للانسان فليتخذه الإنسان عدوه وأنه يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب النار ، ثم بين جزاء الكافرين وأنه العذاب الشديد ، أما الذينَ آمنُوا وعملوا الصالحات فلهم الأجر الكبير فقال :

(الذين كفروا لهم عذاب شديد) .

ثم قال :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)(١) .

وقد جمع الله بين أمرين من عمل العبد وبين جزاءين من جانبه .

فإذا آمن العبد الإيمان الكامل بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وأضاف إلى إيمانه العمل الصالح قابل الله ذلك بجزاءين : المغفرة وتكفير السيئات وذلك فى مقابل الإيمان .

والأجر الكبير وقد أبهمه ونكره للدلالة على عظمه وذلك فى مقابل العمل الصالح .

●★●

وفى قصة داود عليه السلام التى يحكيها القرآن يقول :

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)(٢) .

---

(١) فاطر (٢) ص

فقد خص داود عليه السلام الخلطاء بزيادة البغى والعدوان ، ثم استثنى عن هذا الحكم الذين آمنوا وعملوا الصالحات لأن مخالطتهم لاتكون إلا للدين وطلب السعادة الروحانية ومن ثم فمخالطتهم لاتوجب المنازعة وأما من تكون مخالطتهم للدنيا فلابد وأن تصير مخالطتهم سبباً لمزيد من العدوان والبغى ، والحكم بقلة أهل الخير كثير في القرآن وقد قال الله : (وقليل من عبادى الشكور) .

●✱●

ثم بين الله أنه لم يخلق السماء والأرض وما بينهما باطلا وذلك مظنون الذين كفروا وويل لهم من النار ثم استفهم على سبيل الإنكار : أم نجعل الذين آمنوا الخ .

يقول الله : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ثم قال :

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ المتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)[1] .

فبعد أن بين الله أنه لم يخلق السموات والأرض وما بينهما خلقاً باطلا أوعبثا وذلك الخلق الباطل مظنون الذين كفروا فإنهم لما أنكروا البعث والحساب جعلوا كأنهم يظنون ذلك .

وأم منقطعة والاستفهام فيها على سبيل الإنكار والمراد أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكفار لاستوت عند الله أحوال من آمن وعمل صالحا مع أحوال المفسدين واستوت كذلك أفعال المتقين مع أحوال الفجار

---

(١) ص

ومن سوى بين المؤمنين العاملين وبين المفسدين وسوى بين المتقين والفجار لم يكن حكيما وحاشا لله .

●✱●

وفي حكاية الرجل المؤمن من آل فرعون يحكى القرآن قوله فيما قاله مما حكاه القرآن :

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)(١) .

لقد أشارت الآية إلى أن جانب الرحمة غالب على جانب العقاب فمن عمل سيئة يجزى بسيئة واحدة وهى التى تقابلها فى الاستحقاق ، أما من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وجمع إلى ذلك الإيمان فأولئك قضى الله لهم بدخول الجنة كما قضى أنهم يرزقون فى الجنة بغير حساب ، ومعنى ذلك أن جزاء العمل الصالح بغير تقدير أو حساب بل يزيد الله فيه ما شاء ويكثر ما شاء ويوسع ما شاء .

●✱●

وفرق الله بين الجدل الذى يدفع إليه الكبر والحسد والجهل وبين الجدل الذى يعتمد على العقل والحجة وقد نبه على الفرق بينهما بذكر المثل فى قوله تعالى :

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ)(١) .

---

(١) غافر

يعنى : وما يستوى المستدل والجاهل المقلد فشتان بين من يعتمد على المنطق الخالى من بواعث الحسد والكبر ومن يبعثه إلى الجدل حسده وكبره وحقده وبهذا يظهر الفرق بين العالم والجاهل ، وشتان كذلك بين المؤمن الذى عمل الصالحات وبين الكافر الذى يأتى بالفاسد الباطل من الأعمال ، وإنهم وإن كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل وأن العمل الصالح خير من العمل الفاسد إلا أنه قليلا ما يتذكرون ذلك .

● ★ ●

وقد ذكر الله وعيده للكفار فهددهم بالويل بعد أن أمر رسوله بأن ينادى فيهم :

(إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) .

ثم أردف ذلك الوعيد بوعده للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بأجر غير مقطوع فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)(١) .

وهكذا أتبع الله وعيده للكفار بوعده للمؤمنين الذين عملوا الصالحات بأجر غير مقطوع عنهم وقد سمى الله جزاءهم على الإيمان والعمل الصالح بالأجر ، والأجر لايوجب المنة ـ وقيل : نزلت هذه الآية فى المرضى إذا عجزوا عن أداء الطاعات كتب الله لهم أجراً كأحسن ما كانوا يعملون إذا كانوا فى صحتهم آمنوا وعملوا الصالحات ثم حال المرض بينهم وبين

---

(١) فصلت

استمرارهم فى العمل الصالح وأعجزهم ضعفهم عن قيام الليل وصوم النهار فأولئك لهم أجر عند الله لاينقطع عنهم بسبب مرضهم وضعفهم .

● ✱ ●

وقد بين الله جزاء الظالمين من المشركين وحالتهم ثم بين جزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات فجعله روضات الجنات إلى جانب أن لهم ما يشاءون عند الله وذلك هو الفضل ، وذلك الذى يبشر الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذلك فى قوله تعالى :

(وإن الظالمين لهم عذاب أليم ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم) .

ثم قال :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)(١) .

بعد أن ذكر الله أحوال أهل العقاب فى قوله وإن الظالمين لهم عذاب أليم وصور إشفاقهم على أنفسهم مما كسبوه فى دنياهم بَيّن أحوال أهل الثواب فى قوله : والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات ، وروضة الجنة أطيب بقعة فيها ثم قال : لهم ما يشاءون عند ربهم ليدل على أن كل الأشياء مهيأة حاضرة لهم ثم قال فى تعظيم درجتهم : ذلك هو الفضل الكبير ، وهذا تصريح من الله بأن الجزاء المرتب على العمل إنما حصل بطريق الفضل لا بطريق الاستحقاق ، ثم قال: ذلك الذى أشار إليه

---

(١) الشورى

من روضات الجنات التى جعلها مستقراً لهم وأن لهم ما يشاءون ذلك هو الذى يبشر الله به عباده المؤمنين العاملين الصالحات .

★●★

وذكر الله أنه لايسوى بين مرتكبي السيئات وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأنهم سواء فى المحيا والممات فقال :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)[١] .

(أم) وضعت للاستفهام ومعنى ذلك أفيعلم المشركون أن ربك يقضى بينهم يوم القيامة وأنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وأن بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين .

أفيعلمون ذلك أم يحسبون أنا نتولاهم كما نتولى المتقين .

واجتراح السيئات : اكتسابها .

وقيل : نزلت هذه الآية فى علىّ وحمزة وأبى عبيدة الجراح وفى ثلاثة من المشركين : عتبة وشيبة والوليد بن عتبة قالوا للمؤمنين : ما أنتم على شىء ولو كان ما تقولون حقا لكان حالنا أفضل من حالكم فى الآخرة فأنكر الله عليهم ذلك وبين أنه لايمكن أن يكون حال المؤمن المطيع مساويا لحال الكافر العاصى وأنهم سواء محياهم ومماتهم .

قال مجاهد عن ابن عباس : يعنى أحسبوا أن حياتهم ومماتهم كحياة المؤمنين وموتهم كلا فإنهم يعيشون كافرين ويموتون كافرين والمؤمنون يعيشون مؤمنين ويموتون مؤمنين .

---

(١) الجاثية

أو المراد إنكار أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة فإنهما قد يستويان في الصحة والرزق وربما كان الكافر أرجح فى الحياة فى ذلك والفرق بينهما فى الممات .

● ✱ ●

وذكر الله أنه فى يوم القيامة ترى كل أمة جاثية جالسة على الركب كل أمة تدعى إلى كتابها والناس عندئذ فريقان : فالفريق الأول فريق المؤمنين العاملين الصالحات مع جزائهم والفريق الثانى فريق الكافرين المجرمين ، ذلك ما جاء فى قوله تعالى :

(فَأَمَّا الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فى رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ(١) وَأَمَّا الَّذينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ) .

لقد جمع الفريق الأول بين الإيمان والعمل الصالح فكان جزاؤهم أن أدخلهم الله فى رحمته ، وقد سمى الله ثوابهم الذى يثيبهم به رحمة أدخلهم الله فيها ، وذلك هو الفوز الكبير الذى يفوزون به فى يوم القيامة .

وأما الذين كفروا فيقال لهم : أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم عن قبول الحق وكنتم قوما مجرمين ومع كفرهم لم يكونوا عدولا فى اختيار الدين الحق الذى يدينون به .

● ★ ●

وقابل الله بين الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وقد أضل الله

---

(١) الجاثية

أعمالهم وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وقد كفر الله عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم فقال :

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) .

وقال: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ)(١) .

قيل : إن المراد بالذين كفروا كفار قريش أو أهل الكتاب أو الكفار بعامة والمراد بقوله : صدوا ، أنهم صدوا أنفسهم عن سبيل الحق ، أو صدوا غيرهم ، والمصدود عنه الإنفاق أو الجهاد أو الإيمان أو عن كل طاعة دعا إليها الله ورسوله .

والمراد بقوله : أضل أعمالهم . أنه أبطلها .

وأما أولئك الذين جمعوا بين الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر وقد جمعوا بين كل ذلك وغير ذلك من أنواع الإيمان وبين العمل الصالح وأضافوا إلى الإيمان والعمل الصالح الإيمان بما نزل على محمد وهو الحق المعجز وأيقنوا بأن القرآن لا يأتى به غير الله كفر الله عنهم بكل ذلك سيئاتهم وسترها بل محاها محوا وأصلح بالهم وخاطرهم بأن يبدل السيئات ويغيرها إلى حسنات أى يجزيه بعد السيئات حسنات .

وذلك الإضلال والإبطال بالنسبة للكافرين وتكفير السيئات بالنسبة

---

(١) محمد القتال

للمؤمنين العاملين لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل فاتبعوا إلهاً غير الله أو اتبعوا الشيطان أو اتبعوا قول الكبراء : إنا وجدنا آباءنا على أمة وعلى دين ونحن مقتدون بهم ، أو الباطل الذى اتبعوه هو ما سوى الله وتكفير السيئات بالنسبة للمؤمنين العاملين الصالحات لأنهم اتبعوا الحق الذى جاءهم من عند الله .

●★●

وبعد أن بين الله حال المؤمنين وحال الكافرين فى الدنيا بين حالهم فى الآخرة فقال :

(إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَامُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) (١) .

بذلك قد قضى الله للمؤمنين فجعل جزاء إيمانهم وعملهم الصالح جنات تجري من تحتها الأنهار وقضى للكافرين بالمتاع الدنيوى وهو لا يلتفت إليه وإن همهم فى الحياة الأكل فهم كالأنعام همهم فى البطون والنار مثوى لهم فهم مستحقون لها بسبب كفرهم واتباعهم الباطل .

وبعد أن وصف الله محمداً ومن معه بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم وأنهم الراكعون الساجدون يبتغون فضل الله وأن سيماهم فى وجوههم من أثر السجود وأن ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ واستوى على سوقه وأن الله نما ذلك وقواه ليغيظ بالمؤمنين فى قوتهم الكفار بعد كل ذلك الذى صوره عن حال

---

(١) محمد القتال

محمد وأتباعه من المؤمنين فى الدنيا بين أنهم لهم فى الآخرة الغفران والأجر العظيم لقاء إيمانهم وعملهم الصالح وهكذا يعد الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات بغفران ذنوبهم وتكفير ما ارتكبوا من السيئات وإلى جانب هذا فإن لهم الأجر وقد نكر الأجر ليدل بذلك التنكير على تعظيمه والعظيم يعطى العظيم وذلك فى قوله : « مُحمدٌ رسولُ اللهِ والذين معه » الخ الآية[١].

● ★ ●

وقد أخبر الله بزعم الكفار أنهم لن يبعثوا وأمر رسوله أن يقسم لهم بأنهم سيبعثون وينبئون بعملهم ثم أمرهم بالإيمان بالله ورسوله وبالنور الذى أنزله معه وأنه سيجمعهم ليوم التغابن حيث يكون الناس بين فريقين: فريق آمن وعمل صالحا وقد جعل الله مصيره الجنة ، وفريق كفر وكذب بالآيات وأولئك أصحاب النار وهم فيها خالدون فقال الله :

(فَآمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[٢] .

ثم قال: (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) .

لقد أمر الله المنكرين للبعث من الكفار أن يؤمنوا بالله وبرسوله حتى لا ينزل بهم ما نزل على من قبلهم من العذاب وأن يؤمنوا كذلك بالنور الذى أنزله الله وهو القرآن لأنه يهتدى به فى الشبهات والله بما

---

(١) الفتح (٢) التغابن

تعملون خبير لايخفى عليه شيء فراقبوه واذكروا اليوم الذى يجمعكم فيه للحساب ثم العذاب ذلك يوم الجمع يوم التغابن ، والتغابن المجازاة ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن قوما فى النار يعذبون وقوما فى الجنة يتنعمون ، وقيل هو يوم يغبن فيه أهل الحق أهل الباطل وأهل الهدى أهل الضلالة وقد ذكر الله أن الكافرين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم أما المؤمنون فقد باعوا أنفسهم بالجنة فخسرت صفقة الكفار وربحت صفقة المؤمنين فمن يؤمن بالله وبما جاءت به رسل الله ويعمل صالحا إلى أن يموت فالله يكفر عنه سيئاته ويدخله الجنة ويخلده فيها وذلك هو الفوز العظيم الذى فاز به المؤمن أما من كفر وكذب بآيات الله فهو صاحب النار وهو الخالد فيها وبئس المآل والمصير الذى صار إليه .

● ✱ ●

وبعد أن أخبر الله بأنه كم من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبها الله حسابا شديداً وعذبها عذابا ذاقت به عاقبة أمرها أمر الله المؤمنين أصحاب العقول الواعية بالتقوى وقد أنزل الله إليهم ذكراً رسولا يتلو عليهم آياته ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور فمن يؤمن بالله ويعمل صالحا أدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار . يقول الله :

(فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (١) رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ

---

(١) الطلاق

صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا) .

يأمر الله أهل الإيمان بالتقوى مع أنهم متقون بالضرورة لأنهم مؤمنون ولكن ذلك الأمر بالنسبة للكبائر والصغائر ، وقيل : الذكر الذى أنزله الله هو الرسول وقيل الرسول : هو جبريل وقد يراد بالذكر : الشرف وقد يراد به القرآن وقد أنزل الله الآيات ليخرج بها المؤمنين العاملين الصالحات من الظلمات والضلالة إلى النور والهدى ومن يؤمن بالله ويجمع إلى إيمانه العمل الصالح أثابه الله بإدخاله الجنة التى تجرى من تحتها الأنهار وخلده فيها أبداً وقد أحسن الله له الرزق بالجنة التى لا ينقطع نعيمها فهى رزق رَزَقَ الله به المؤمنين الذين يعملون الصالحات .

●*●

لقد أنكر الكفار البعث فسأل الله ما لهم لا يؤمنون ثم قال: بل الذين كفروا يكذبون والله أعلم بما يوعون ويجمعون فى صدورهم فبشرهم بعذاب أليم ، ثم استثنى فقال :

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)(١).

قيل : إن الاستثناء منقطع عما قبله وقد بين الله أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات أجرهم عند الله دائم لا ينقطع بسبب إيمانهم وعملهم الصالح وقال بعض المفسرين إنه استثناء متصل ، والمعنى بشر الكافرين بأن لهم عذابا أليما إلا أنهم متى تابوا وعملوا الصالحات فلهم أجر وهو الثواب

(١) الانشقاق

الذى أثابهم الله به لإقلاعهم عن الكفر وإيمانهم وعملهم الصالح وأجرهم عند الله غير منقوص أو منقطع .

●★●

وتوعد الله أولئك الذين فتنـوا المؤمنين والمؤمنات وهم أصحاب الأخدود أو كل من يفتن المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا عن جرمهم توعدهم الله بعذاب الحريق ، ثم وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجنات فقال :

إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق .

ثم قال :

(إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعِمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ)(٢) .

وهكذا يعد الله المؤمنين الذين جمعوا مع إيمانهم العمل الصالح بالجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، وإخبار الله بهذا الوعد يدل على رضائه عنهم وذلك الرضا هو الفوز الكبير الذى يفوز به أولئك المؤمنون العاملون ورضوان الله أكبر من الجنة .

●★●

وقد خلق الله الإنسان فى أحسن تقويم وهو تصيير الشىء على ما ينبغى أن يكون ثم رددناه أسفل سافلين وهو أرذل العمر أو رددناه إلى النار ثم استثنى فقال :

---

(١) الانشقاق

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)(١) .

والاستثناء إما أن يعتبر منقطعا فإذا اعتبرنا أسفل سافلين أرزل العمر فالمعنى ولكن الذين كانوا صالحين فى ماضيهم لهم ثواب دائم على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله إياهم بالشيخوخة والكبر وعلى ما يقاسونه من المشاق فى سبيل عبادتهم وإذا اعتبرنا أسفل سافلين النار فالاستثناء متصل أى ردهم إلى النار إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأجرهم غير ممنون أى منقوص أو منقطع أولا يُمَنّ به عليهم .

●✱●

وقد حكم الله على الكافرين من أهل الكتاب وعلى المشركين بالخلود فى نار جهنم ، وأنهم شر خلق الله جميعا بسبب كفرهم ، وحكم للمؤمنين بالخلود فى الجنة وأنهم خير الخلق بسبب إيمانهم ، وعملهم الصالح فقال فى الأولين :

(إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية) ثم قال :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)(٢) .

حكم الله للمؤمنين الذين عملوا الصالحات بأنهم خير البرية (والبرية الخلق) وبهذه الآية احتج البعض على أن هذا الصنف من الناس خير من الملائكة حيث أخبر الله بأنهم خير الخلق جميعا ثم قدم الله جزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات وهو الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار فالجنات

---

(١) التين (٢) البينة

جزاؤهم ووجودهم فيها وجود إقامة لا زيارة لأن الجنات التى وعدوا بها جنات عدن ، وعدن معناه الإقامة ومعنى ذلك أنهم مقيمون فى الجنة لايخرجون منها ثم أكد مايفهم من عدن وهو الإقامة بقوله أبداً والتأبيد يفيد الدوام ثم أضاف رضا الله عنهم وعن أعمالهم ورضوا هم عن الله بما جازاهم به من النعيم والثواب .

●★●

وقد أقسم الله بالعصر إن الإنسان لفى خسر وبهذا حكم على الإنسان بالخسران واستثنى من جنس الإنسان المحكوم عليه بذلك .

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)(١) .

دلت الآية على أن الإنسان فى الخسارة مطلقا ثم استثنى من جمع بين الإيمان والعمل الصالح والتواصى بالحق والتواصى بالصبر فبالإيمان والعمل الصالح خرج المؤمنون العاملون من الخسران ولم يقتصروا على مايخص أنفسهم بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ليكونوا سببا لطاعات الغير ويوصون أيضا غيرهم بالصبر على المشقات بعد أن يحملوا أنفسهم على الصبر على التكاليف الواجبة واجتناب ما حرم الله ونهى عنه ، والصبر على المصائب والأذى وكل ماينوب الإنسان ويحل به .

●★●

---

(١) العصر

الفصل الرابع

ما جاء من الإيمان

حول المؤمنين دون قيد النداء أو العمل والجزاء

لقد ورد الإيمان بمشتقاته حول المؤمنين أو دعوة المؤمنين إلى الإيمان بالله وبالغيب كالبعث واليوم الآخر وبالكتب التى أنزلها الله على رسله ومن بينهـــا القرآن كما ورد الإيمان فى المعارك التى دارت بين المؤمنين والكفار والكتابيين وورد ذكر الإيمان فى الأحكام الشرعية والمبادىء الإسلامية الإجتماعية وكل ذلك سأقدمه إن شاء الله فى هذا الباب مستعينا بالله .

ونقدم فى هذا الباب بكلمة حول مسمى الإيمان عند أهل القبلة وهم حوله أربع فرق

الفرقة الأولى :

تقول : الإيمان اسم لأفعال القلوب والجوارح والإقرار باللسان وهم : المعتزله والخوارج والزيدية وأهل الحديث وعلى الرغم من اتفاقهم فى ذلك فقد اختلفوا على المراد بالإيمان من حيث هو المعرفة بالله وبكل ماوضع الله عليه دليلا عقليا أو نقليا ومن حيث إن الإيمان عبارة عن فعل كل الطاعات واجبة أو مندوبة أو أنه عبارة عن فعل الواجبات فقط أو أنه اجتناب كل ماورد فيه الوعيد إلى آخر هذه الخلافات التى لايتسع المقـــام لمناقشتها أو عرضها .

الفرقة الثانية :

تقول : الإيمان أن يكون بالقلب واللسان معا واختلف القائلون بذلك إلى مذاهب :

الأول : الإيمان إقرار باللسان ومعرفة بالقلب .

الثانى : الإيمان هو التصديق بالقلب واللسان معا .

الفرقة الثالثة :

تقول : الايمان عبارة عن عمل القلب فقط .

الفرقة الرابعة :

تقول : الإيمان هو الإقرار باللسان فقط .

وحين نعرض آيات الإيمان التى دارت حول المؤمنين لانتعرض لشىء من الاختلاف الذى قدمناه حول مفهوم الإيمان عند الجميع وإنما نعرض الآيات مجردة عن الخلافات المذهبية .

وقد بين الله فى صدر سورة البقرة أن ذلك الكتاب وهو القرآن جعله الله هدى للمتقين الذين وصفهم بقوله :

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)(١) .

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) .

قيل : إن قوله بالغيب صفة المؤمنين وهى صفة مدح لهم ومعنى ذلك

---

(١) البقرة

أنهم يؤمنون بالله حال الغيب كما يؤمنون به حال الحضور يعنى أن ظاهرهم يوافق باطنهم فليسوا كالمنافقين الذين يختلف ظاهرهم وباطنهم .

وجمهور المفسرين أن الغيب هو الذى يغيب عن الحاسة وهو إما أن يدل عليه دليل أولا ، فهو قد مدح المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب الذى دل عليه تفكيرهم ويدخل فى هذا العلم بالله وبصفاته والعلم بالآخرة والعلم بالنبوة والعلم بالأحكام الشرعية ، وقيل يؤمنون بالغائبات على الإجمال .

ويؤمنون كذلك بإقامة الصلاة أى تعديل أركانها أو المداومة عليها أو يؤدونها على أحسن وجوهها فى القيام والقراءة والركوع والسجود .

وينفقون إلى جانب ذلك مما رزقهم الله وأعطاهم ويدخل فيه الإنفاق الواجب كالزكاة والمندوب كالصدقة .

ثم عطف على ذلك قوله والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك .

قيل هم الذين آمنوا من أهل الكتاب بما أنزل على رسلهم ثم آمنوا بمحمد من أمثال عبد الله بن سلام وأمثاله .

وقيل هم المؤمنون الذين آمنو برسول الله وآمنوا برسل الله الذين بعثهم إلى عباده وبالكتب التى نزلت عليهم .

وآمنوا كذلك بالآخرة أى بالدار الآخرة وما فيها من حساب .

ثم حكم الله لهم على إيمانهم بكل ذلك بأنهم على هدى من الله وقد ثبت لهم إلى جانب ذلك اختصاصهم بالفلاح والفوز والظفر وعلة الفلاح والظفر هى فعل الإيمان والصلاة والزكاة .

واختلف المفسرون فى الذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك إلى ثلاثة أنواع :

الأول : أن المراد بمن يؤمنون بالغيب فى الآية الأولى ويؤمنون بما أنزل إليك فى الثانية هم مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم .

الثانى : أن هؤلاء وأولئك يراد بهم مؤمنو أهل الكتاب .

الثالث : أن الموصوفين بالآية الأولى مؤمنو العرب وبالثانية مؤمنو أهل الكتاب وهذا الأخير نقل عن ابن عباس واستدل على ذلك بالآيات :

١ — وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله .

٢ — الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، وبما ثبت فى الصحيحين من حديث الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى الخ .

●★●

وقد تحدى الله الذين يشكون فى القرآن من الكفار أو اليهود وطلب منهم أن يؤتوا بسورة من مثله فراحوا يطعنون القرآن بأنه قد ذكر فيه الكثير من التوافه مثل النحل والذباب والعنكبوت والنمل وأنه جاء فيه ضرب الأمثال بهذه الأشياء ، وقد ورد ذكر المثل فى القرآن فى نحو قوله تعالى

«يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له » « ومثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت » و « ألم تر كيف ضرب الله مثلا » «ضرب الله» مثلا رجلين » ، و «تلك الأمثال نضربها للناس » .

وقد نزلت الآية الآتية للرد على الطاعنين فقال الله سبحانه :

(إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ)(١) .

وقال : «وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيراً ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين » .

عن ابن عباس أنه لما نزل قوله تعالى : يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له فطعن فى أصنامهم وشبه عبادتها ببيت العنكبوت قالت اليهود : أى قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله المثل بهما فنزلت هذه الآية .

وقيل هذا الطعن كان من جانب المنافقين وقيل من جانب المشركين .

والحياء : تغير وانكسار يعترى الإنسان من خوف ما يعاب به أو يذم .

وضرب المثل كثير فى لغة العرب بالأشياء الصغيرة فقالوا : أطيش من ذباب وأصفر من قراد .

و (ما) فى قوله (مثلا ما) .

قيل هى صلة (زائدة) كقوله تعالى فبما رحمة من الله .

وقيل هى نكرة فسرت باسم الجنس بعدها وقيل موصولة صلتها

---

(١) البقرة

الجملة وقيل استفهامية « فما فوقها » أراد بما فوقها فى الصغر أى بما هو أصغر منها .

فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه (أى المثل) هو الحق من ربهم .

وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا من جهة التمثيل به وكان الجواب يضل به كثيراً ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين(١) .

●✱●

ولما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة جاءه عبد الله بن صوريا أحد علماء اليهود وراح يسأله عن أشياء ليتثبت من نبوته وقد حدثت التوراة بأوصاف نبى آخر الزمان وما يجيب به على بعض أسئلة بن صوريا : أى ملك يأتيك بما تقول عن الله ؟ قال رسول الله : جبريل ، قال ابن صوريا : إن ذلك عدونا ينزل بالقتال والشدة ، ورسولنا ميكائيل يأتى بالبشر والرخاء فلو كان هو الذى يأتيك آمنا بك فأنزل الله قوله تعالى :

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينْ)(٢) .

إن القرآن الذى نزل به جبريل من عند الله على محمد صلى الله عليه وسلم بشارة للمطيعين بالثواب وإنذار للعصاة بالعقاب فعداوة من هذا سبيله توجب عداوة الله وعداوة الله كفر والهاء فى قوله (فانه) تعود على جبريل والهاء فى قوله : نزله تعود على القرآن والمعنى أن الله نزل جبريل بالقرآن لا أن جبريل نزل نفسه بالقرآن .

---

(١) البقرة (٢) البقرة

وقوله على (قلبك) للاشارة إلى أن الذى نزل من القرآن ثبت فى قلبه عليه الصلاة والسلام حفظاً حتى أداه إلى أمته فلما كان من سبب تمكنه من الأداء ثباته فى قلب الرسول حفظاً جاز أن يقال (نزله على قلبك) .

وهذا القرآن الذى نزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم جعله الله هدى وبشرى للمؤمنين أما أنه (هدى) فلأنه بين ما وقع التكليف به من أعمال القلوب وأعمال الجوارح فهو لهذا (هدى) .

وأما أنه بشرى للمؤمنين فلأنه بين أن من يأتى بتلك الأعمال التى بينها القرآن حصل على ثواب الله عليها فهو بهذا بشرى للمؤمنين العاملين .

وخص المؤمنين بالهدى والبشرى لأنهم هم الذين اهتدوا بالكتاب فهو هدى للمتقين وأنه لا يكون إلا بشرى للمؤمنين لأن البشرى هى الخبر الدال على حصول الخير ، وهذا لا يحصل إلا فى حق المؤمنين .

●★●

ولقد سأل المسلمون الرسول كثيراً وأسرفوا فيما سألوا عن أمور لا خير لهم فى معرفتها أو بحثها كما سأل اليهود موسى من قبل فأنزل الله قوله تعالى :

(أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) (١) .

ولقد اختلف فى المخاطب بهذه الآية فقيل : هم المسلمون لقوله فى آخر

---

(١) البقرة

الآية ومن يتبدل الكفر بالإيمان وهذا التبديل لا يصح إلا في حق المسلمين وأن المسلمين كثيراً ما سألوا الرسول عن أشياء فقال الله أتريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، وكثيراً ما سأل اليهود موسى حتى سألوا أن يروا الله جهرة .

وسواء السبيل وسطه ، وإن من سلك طريق الإيمان فهو على سبيل الاستقامة وطريقها والمبدل لذلك بالكفر عدل بذلك عن الاستقامة فيقال إنه ضل سواء السبيل .

وفى هذه الآية توجيه للمؤمنين بعدم التعنت مع الرسول فى الإكثار من الأسئلة ، وقيل الأمر عام ، وعن الربيع بن أنس عن أبى العالية قال قال رجل يا رسول الله : لو كانت كفارتنا ككفارة بنى إسرائيل فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم لا نبغيها ثلاثا . ما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها ، فإن كفرها كانت له خزياً فى الدنيا والآخرة وإن لم يكفرها كانت له خزياً فى الآخرة فأنزل الله قوله :

أم تريدون أن تسألوا رسولكم الآية .

وعن السدى وقتادة : إن الله ذم من سأل الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه التعنت كما سألت بنو إسرائيل موسى تعنتاً وتكذيبا .

وقيل إن المعنى يعم المؤمنين وغيرهم فالرسول للجميع وقد سأله الكتابيون عن أشياء كما أثبت ذلك قوله :

(يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) .

ولم ينم اليهود عن كيدهم للمسلمين والإسلام وقد روى أن فنحاص ابن عاذوراء ونفرا من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد : ألم تروا ما أصابكم ولو كنتم على الحق ماهزمتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل، ونحن أهدى منكم سبيلا فقال عمار : كيف نقض العهد فيكم ؟ قالوا : شديد قال : فإنى عاهدت أنى لا أكفر بمحمد ما عشت فقالت اليهود : أما هذا فقد صبأ، وقال حذيفة : وأما أنا فقد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخوانا، ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه فقال : أصبتما ونزلت الآية :

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ)(١) .

لقد تبين لليهود أن الإسلام هو الحق ومع هذا فإنهم لم يؤمنوا بل عز عليهم إيمان المسلمين فحسدوهم على إسلامهم وكثيرا ما حاولوا أن يفتنوهم فى دينهم وأن يشككوهم فيه وود كثير منهم أن يقلع المسلمون عن الإسلام وأن يردوهم بعد كافرين حسدا منهم للمسلمين .

والحسد من أشد الرذائل وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

وقال : دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء، والبغضه هى الحالقة لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين .

وقد يطلق الحسد على المنافسة كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : لا حسد

---

(١) البقرة

إلا فى اثنين : رجل آتاه الله مالا فأنفقه فى سبيل الله ، ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس .

وقد قيل : إن الآية نزلت فى كعب بن الأشرف اليهودى وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم وطالما سعى إلى رد المسلمين عن دينهم وعن محمد من بعد ما تبين لهم الحق وأنه رسول الله كما جاءت أوصافه فى التوراة وعلى الرغم من أنهم لم يجهلوا أمره فقد حملهم الجحود والحسد على عدم الإيمان به بل صد الناس عن الدين الذى يدعو إليه .

●★●

ومدح الله المؤمنين لأنهم يتلون القرآن حق التلاوة ويؤمنون به ، فقال :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)(١) .

فالمؤمنون هم الذين يتلون القرآن حق التلاوة وأعظمها وقوله : أولئك يؤمنون به يدل على أن الإيمان بالقرآن مقصور عليهم . وقيل هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومعنى تلاوتهم حق التلاوة أنهم يتدبرونه ويعملون بما فيه وأنهم يخضعون ويخشعون عند قراءتهم فى صلاتهم أو خلواتهم وأنهم عملوا بمحكمه وأنهم يقرءونه كما أنزله الله فلا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يتأولونه على غير الحق وقال ابن مسعود : إن حق تلاوته : أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزل .

---

(١) البقرة

وقيل : إن المراد بقوله : الذين آتيناهم الكتاب هم أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول من اليهود واستدل أصحاب هذا الرأى بأن الذين تكلم عنهم فى الآيات السابقة هم أهل الكتاب فلما ذم طريقة أهل الكتاب وسوء أفعالهم أتبع ذلك بمدح من ترك طريقتهم منهم .

وعن قتادة أن المراد فى الآية هم من آمن من اليهود والنصارى ومعنى يتلونه حق تلاوته أى يتبعونه حق اتباعه .

أو من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق الإقامة وآمن بما أرسلت به محمداً أولئك يؤمنون بالقرآن ومن يكفر به من الكتابيين فأولئك هم الخاسرون .

● ✱ ●

وحكى الله عن اليهود والنصارى قولهم للمسلمين : كونوا هوداً أو نصارى وذكر الله فى مقابلة ذلك أمره للنبى صلى الله عليه وسلم: قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين .

ثم قال لأمته :

(قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وما أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)(١) .

وهكذا أمر الله نبيه أن يكلف المسلمين بأن يقولوا آمنا بالله ، وليس المراد القول باللسان بل لابد من الإيمان بالقلب إلى جانب القول باللسان

---

(١) البقرة

وعبر بالأمر بالقول ليشا كل ماسبق من القول فيما حكى الله قالوا كونوا هودا وأمره للرسول بالقول فى قول : قل بل ملة إبراهيم .

وقد أمر الله بالإيمان بالرسل والأنبياء الذين جاء وافى الآية وبما أنزل إليهم جميعا .

وأما قوله : لانفرق بين أحد منهم فمفهومه : أنا لانؤمن ببعض ونكفر ببعض بل نؤمن بجميع الأنبياء والرسل ولا نقول إنهم متفرقون فى أصل الديانات بل هم مجتمعون على الأصول وهى الإسلام لقوله تعالى :

شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .

وأما قوله : ونحن له مسلمون فمعناه أن إسلامنا لأجل طاعة الله .

وكثيراً ماتطلع النبى صلى الله عليه وسلم إلى السماء يقلب وجهه بينها وقد وعده الله بأن يوليه قبلة يرضاها وهى الكعبة ، ولما حولت القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام عاب الكفار المسلمين فقالوا : ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها .

وقال ابن عباس إن اليهود كانوا يأنسون بموافقة النبى لهم فى القبلة، فلما تحول عن قبلتهم استوحشوا ، واغتموا فقالوا ما حكاه الله عنهم : ماولاهم عن القبلة التى كانوا عليها .

والضمير فى قوله : ماولاهم : للرسول والمؤمنين ، والتولية : الصرف يعنى : ماصرفهم عن القبلة التى كانوا عليها .

واختلفت الروايات فى متى تحولت القبلة .

قال أنس بن مالك : بعد تسعة أشهر أو عشرة أشهر وعن معاذ بعد ثلاثة عشر شهرا .

وقال قتادة : بعد ستة عشر شهرا وقال ابن عباس والبراء بعد سبعة عشر شهرا .

وقد جعل الله تغيير القبلة امتحانا ليعلم الله من يتبع الرسول ومن ينقلب على عقبيه فيخالف وما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين لأنه الرءوف الرحيم وذلك قوله تعالى :

(وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)[(١)] .

قال : وما جعلنا القبلة ، أي ماشرعنا وحكمنا بالقبلة التى كنت عليها إلا لتمتحن الناس وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم بمكة يصلى إلى الكعبة فلما هاجر إلى المدينة أراد الله تأليف قلوب اليهود فحول القبلة إلى بيت المقدس ثم عاد فحول القبلة إلى الكعبة ثانيا وقد فعل الله ذلك ليعلم بمعنى ليميز الله هؤلاء من هؤلاء بانكشاف مافي قلوبهم .

وأهل التحقيق قالوا لقد اختلف الناس بسبب تحويل القبلة وقالوا إن محمدا صلى الله عليه وسلم لو كان على يقين من أمره لما تغير رأيه .

وقد روى القفال عن ابن جريج أنه قال : بلغنى أنه رجع ناس ممن أسلم وقالوا : مرة هنا ومرة هنا .

---

(١) البقرة

وقال السدى : لما توجه النبى صلى الله عليه وسلم نحو المسجد الحرام اختلف الناس فقال المنافقون : ما بالهم كانوا على قبلة ثم تركوها .

وقال المسلمون : لسنا نعلم حال إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون نحو بيت المقدس ، وقال آخرون : اشتاق إلى بلد أبيه ومولده .

وقال المشركون : تحير فى دينه .

وهكذا كان التحويل إختباراً ليميز بين من يتبع الرسول ومن ينقلب على عقبيه ويكفر بالله وبرسوله .

وقد كانت التولية كبيرة إلا على الذين هدى الله .

أما المخاطبون بقوله وما كان الله ليضيع إيمانكم فاختلف فيهم .

قيل : هم المؤمنون وأنهم سألوا عن مات قبل نسخ القبلة فأجابهم الله وما كان الله ليضيع إيمانكم الماضى أى إذا كان إيمانكم الماضى قبل النسخ لا يضيعه الله فكذلك إيمان من مات قبل النسخ .

وقيل هم أهل الكتاب ، والمراد بالإيمان صلاتهم وطاعتهم قبل البعثة

وقد فسر ابن كثير الايمان فى هذه الآية بالصلاة فقال : وما كان الله ليضيع إيمانكم أى صلاتكم إلى بيت المقدس .

ولما أخبر الله بأنه لا يضيع الإيمان بسبب تحويل القبلة قال : إن الله بالناس لرءوف رحيم والرءوف الرحيم كيف يتصور منه الإضاعة .

وقد اختلف فى صلاة النبى إلى بيت المقدس فقال البعض كان وهو بمكة يصلى إلى بيت المقدس ويجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس وقيل بل كان يصلى إلى بيت المقدس فقط هذا وهو بمكة وأما حين هاجر إلى المدينة فقد

كانت صلاته إلى بيت المقدس حتى تحولت القبلة إلى الكعبة فصلى إليها وولى وجهه شطرها .

●★●

وبين الله أن حب المؤمنين له أشد من حب عبدة الأصنام لأصنامهم فقال :

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ)(١) .

وقد اختلف فى الأنداد التى اتخذت للعبادة من دون الله فقيل :

١ — هى الأوثان التى عبدت وقالوا مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فهى أنداد لله بحسب ظنونهم (وأصل الند : المثل والمنازع) فهى أنداد بعضها لبعض أو لله حسب ظنونهم .

٢ — وقيل إنها السادة الذين كانوا يطيعونهم فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله والناس منقادون لهم فى الحياة وهذا القول هو الأرجح فى الآية لقوله تعالى : يحبونهم كحب الله بدليل ضمير العقلاء (الهاء والميم) وأنه ذكر بعد هذا (إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتبَعوا) .

(والذين آمنوا أشد حبا لله) لأن عبادتهم خالصة عن الشرك وأن حبهم لله اقترن بالرجاء والثواب والرغبة والخوف من العقاب فكلما كان علمهم بالله أكمل كانت محبتهم أشد

●★●

---

(١) البقرة

وأرشد الله إلى أن البر هو الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة فقال :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ والْكِتَابِ والنَّبِيِّينَ وآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى والْيَتَامَى والمسَاكِينَ وابنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وفِي الرِّقَابِ وأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ والْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ فى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)(١) .

(الْبِرُّ) اسم للخير ولكل فعل مرضى .

وقد كان اليهود يولون وجوههم قبل المغرب إلى بيت المقدس وكان النصارى يولون وجوههم قبل المشرق وزعم كل فريق أن البر هو التوجه إلى قبلته فرد الله عليهم بقوله : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) .

وقيل كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب فى أمر القبلة فقيل ليس البر العظيم الذى تشغلون به هو أمر القبلة ولكن البر الذى تجب العناية به هو (من آمن بالله) والكلام على حذف مضاف تقديره ولكن البر برُّ من آمن بالله أو ولكن ذا البر أى صاحب البر من آمن الخ .

وقد جعل الله البر هو الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب (وهو جنس الكتاب المنزل من عند الله أو القرآن) وآتى المال على

---

(١) البقرة

حبه مع حب المال والبخل به وقيل على حب الإيتاء وقدم ذوى القربى لأنهم أحق ، قال عليه الصلاة والسلام : صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذى رحمك اثنتان لأنها صدقة وصلة وقال : أفضل الصدقة على ذى الرحم ، واليتامى ويريد الفقراء منهم والمسكين وابن السبيل المسافر المنقطع وقيل هو الضعيف ويدخل فيه طالب العلم والسائلين المستطعمين وفى الرقاب ، وفى معاونة المكاتبين لفك رقابهم من العبودية وقيل ابتياع الرقاب وإعتاقها وأقام الصلاة فأداها كاملة وآتى الزكاة وفى هذا دليل على أن الصدقة غير الزكاة ، والموفون بالعهد ، والصابرين فى مواطن القتال والبأساء : الفقر والشدة، والضراء : المرض وحين البأس: القتال .

وأولئك جميعاً هم الذين صدقوا فى دينهم وأولئك هم المتقون الذين يخافون الله وحساب الله .

●★●

ولقد كان الناس فى الماضى أمة واحدة ثم اختلفوا بسبب البغى والتحاسد والتباغض وذلك مابينه الله فى قوله :

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ(١) وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

---

(١) البقرة

تدل هذه الآية على أن الناس كانوا أمة واحدة ولكنها لم تدل على أنهم أمة واحدة في الحق أو في الباطل، ويرى المحققون أنهم كانوا على دين واحد وهو الحق واستدلوا بقوله : فبعث الله النبيين وهذا يدل على أن النبيين بعثوا حين اختلف الناس ليحكموا بينهم فيما اختلفوا فيه والضمير في قوله (فيه) يرجع إلى الكتاب أو الحق وقد آتاهم الله الكتاب بعد مجيء البينات وقد أصر أهل الكتاب على الكفر والبغي بعد كمال البينات .

ثم بين أن حال هذه الأمة بخلاف حال أولئك فإن الله عصمها عن الزلل وهداها إلى الحق وذلك قوله : فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ،ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ونحن أول الناس دخولا الجنة يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فهذا اليوم الذي هدانا له والناس لنا فيه تبع وغدا لليهود وبعد غد للنصارى .

وقوله (بإذنه) أى بعلمه أو بسبب إذنه والمراد بالهداية : الطريق إلى الجنة .

وقال ابن زيد : اختلفوا في القبلة فصلت اليهود إلى بيت المقدس وصلت النصارى إلى المشرق وهدانا الله إلى الكعبة .

●★●

ثم بين الله أن المسلمين بعد هدايتهم إلى الحق بإذنه احتملوا الشدائد في إقامة الحق وصبروا على البلايا ومن ثم استحق المسلمون المكانة العظمى بسبب المحن التي تحملوها في حياتهم وكفاحهم في نصرة الحق وقد امتحنهم الله فظفروا وفازوا وذلك في قوله :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ).

(أم) للاستفهام وهى منعطفة للتقدير وإنكار الحسبان واستبعاده.

والمعنى: أحسبتم أن دخولكم الجنة متوقع وأن إتيان ذلك مؤكد ولما يأتكم من الشدة أحوال كأحوال من سبقكم ممن مستهم البأساء والضراء.

قال ابن عباس: لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة اشتد الضرر عليهم لأنهم خرجوا بلا مال وتركوا ديارهم وأموالهم فى أيدى المشركين وأظهرت اليهود العداوة للمسلمين فأنزل الله تطييبا لقلوبهم أم حسبتم الخ.

وقال قتادة والسدى: نزلت فى غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ماأصابهم من الجهد والحزن حتى بلغت القلوب الحناجر.

وقيل نزلت فى أحد.

وتقدير الآية: أحسبتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة بمجرد الإيمان بى وتصديق رسولى دون ابتلائكم بأذى الكفار والفقر ومعاناة الضر والبؤس ومقاساة مجاهدة العدو.

وفى الكلام حذف تقديره مثل محنة الذين من قبلكم.

---

(١) البقرة

وقوله : مستهم للاستئناف كأنه جواب لسؤال تقديره : كيف كان ذلك المثل فقال : مستهم .

وقد عَزَّى الله المؤمنين فى ذلك وبين أن حال من قبلهم كان كذلك وحين وقعت البأساء والضراء وزلزل الرسول والمؤمنون قال المؤمنون: متى نصر الله ؟ وقال الرسول : ألا إن نصر الله قريب، أو قال الله: ألا إن نصر الله قريب ، أو قال بعضهم بعد أن علموا أن الله لا يعلى عدوهم عليهم : ألا إن نصر الله قريب .

●✱●

وقد خرجت سرية بعد غزوة بدر الأولى برياسة عبد الله بن جحش وقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل نخلة وهو مكان بين مكة والطائف ويرصد قريشا ولم يؤمر بقتال ولكن حين نزلوا قتلوا وأسروا وغنموا وقد طمع أولئك فى أجر المجاهدين فأنزل الله :

(إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وجَاهَدُوا فى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وقد قال عبد الله بن جحش : يا رسول الله هب أنه لا عقاب علينا فيما فعلنا فهل نطمع منه أجرا فنزلت الآية لأن عبدالله كان مؤمنا وكان مهاجرا وكان بسبب هذه المقاتلة مجاهدا .

وقد بين الله حالتهم بقوله : أولئك يرجون رحمة الله » أى أنهم يطمعون فى ثواب الله وذلك لأن عبد الله ما كان قاطعا بالفوز والثواب في عمله بل كان يرجوه .

---

(١) البقرة

ثم ختم الآية بقوله : والله غفور رحيم : أى أن الله يحقق لهم رجاءهم إذا ماتوا على الإيمان والعمل الصالح وأنه غفور رحيم غفر لعبد الله ابن جحش وأصحابه مالم يعلموا ورحمهم .

●★●

وبين الله أن المتمسك بالعروة الوثقى هو المؤمن وأنه لا إكراه فى الدين فقال :

(لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)(١) .

وقد بين الله فى الآية أنه لم يجر أمر الإيمان على الإجبار بل على التخيير « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، فقد تميز الإيمان من الكفر بالدلائل فمن اختار الكفر بالشيطان أو الأصنام والإيمان بالله فذلك المستمسك بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق المحكم فلا انفصام ولا انقطاع لهذه العروة والله سميع بكل شىء عليم بما فى السموات والأرض وما بينهما لايعزب عنه مثقال ذرة فيهما ، ويراد بالاستمساك الثبات على الطريقة المثلى والطريق المستقيم والتمسك بأقوى سبب .

وقال بعضهم : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم .

وقيل هى فى أهل الكتاب لأنهم حصنوا أنفسهم بالجزية .

---

(١) البقرة

وقيل كان لأنصارى من بني سالم ولدان فتنصرا قبل بعثة الرسول ثم قدما المدينة ولزمهما أبوهما وقال والله : لا أدعكما حتى تسلما فأبيا فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الأنصارى : أيدخل بعضى النار وأنا أنظر فنزلت الآية : لا إكراه فى الدين ، والله ولى الذين آمنوا إذا أرادوا الإيمان فإنه يلطف بهم حتى يخرجهم من الظلمات إلى النور بلطفه وتأييده لهم .

● ★ ●

ذكر الله فى سورة البقرة أنواع الشرائع وأقسام الأحكام ثم قال :

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)[١] .

فبين أن الرسول عرف أن ذلك وحى من الله تعالى وصف إليه وأن الذى أخبره بذلك ملك مبعوث معصوم من التحريف وليس بشيطان مضل وقد عرف الرسول بالدلائل أن هذا القرآن وجملة ما فيه من الشرائع والأحكام نزل من عند الله .

وآمن المؤمنون كذلك بما أنزل إليه من ربه وآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله .

والمراد بالإيمان بالله : الإيمان بوجوده وبصفاته وبأفعاله وبأحكامه وبأسمائه .

والإيمان بالكتب : هو أن يعلم أن هذه الكتب وحى من الله إلى رسله وأن القرآن الذى أنزل من عند الله لم يغير ولم يحرف .

---

(١) البقرة

والإيمان بالرسل معناه: أنه يؤمن أنهم رسل الله أرسلهم إلى أقوامهم أو إلى الناس : وأنهم معصومون .

ومعنى لا نفرق بين أحد من رسله : أى يقول المؤمنون : لا نفرق بين أحد من رسله وهذا هو الإيمان المطلوب من المؤمنين أو الذى أخبر الله بأن المؤمنين آمنوا به .

●✻●

فى القرآن ما يدل على أنه كله محكم كقوله تعالى : (كتاب أحكمت آياته) : أى أنه فصيح الألفاظ صحيح المعانى، وفيه ما يدل على أنه كله متشابه كقوله تعالى :(كتاباً متشابها) والمعنى أنه يشبه بعضه بعضا بحيث يعجز العقل عن التمييز بينهما .

وفيه ما يدل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه وهو قوله تعالى :

(هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وأُخَر مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الْأَلْبَابِ)[1] .

ولقد نقل عن ابن عباس فى المحكم والمتشابه أنه قال : المحكمات هى الثلاث آيات التى فى سورة الأنعام : قل تعالوا أتل إلى آخر الآيات الثلاث والمتشابهات هى التى تشابهت على اليهود وهى أسماء حروف الهجاء المذكورة فى أوائل السور .

---

(١) آل عمران

وروى عن ابن عباس أيضاً أن المحكم هو الناسخ والمتشابه هو المنسوخ .

وروى عن الأصم : أن المحكم هو الذى يكون دليله واضحاً كقوله تعالى : وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، والمتشابه هو الذى يحتاج فى معرفته إلى التدبر والتأمل وقوله : هن أم الكتاب : أى أصل الكتاب .

وقد بين الله أن الزائغين يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فإنهم حين يوقعون المتشابهات فى الدين يخالف بعضهم بعضا فى الرأى ويتقاتلون وتلك هى الفتنة والتمسك بذلك المتشابه يقرر البدعة والباطل .

وهم يبتغون كذلك تأويله بما ليس فى كتاب الله دليل عليه .

وقيل إنهم يحملونه على غير الحق وذلك المراد من قوله (ابتغاء الفتنة) وأنهم يحكمون بحكم فى الموضع الذى لا دليل عليه وهذا هو المراد من قوله وابتغاء تأويله ، والراسخون فى العلم بالله يعلمون أنه الحق من عند ربهم وهم الذين علموا بالدلائل القطعية أن الله تعالى عالم بالمعلومات التى لا نهاية لها وعلموا أن القرآن كلام الله تعالى وعلموا أنه لا يتكلم بالباطل وهم كثيراً ما يفوضون تعيين المراد إلى علمه تعالى ولذلك يقولون : «آمنا به كل من عند ربنا » وما يتعظ بما فى القرآن إلا أصحاب العقول الكاملة وهذا ثناء من الله على الذين قالوا آمنا به .

وقد قال الإمام أحمد وأنهى السند إلى السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) إلى قوله : (أولو الألباب) فقال : إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عَنَى فاحذروهم .

وفى رواية أخرى عن عائشة أيضاً : قالت : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : «هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات» إلى قوله : «أولو الألباب » ثم قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » البخارى .

● ✱ ●

وبعد أن بين الله أنه قد زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة أمر رسوله أن يخبر الناس بما هو خير من ذلك للمتقين وهو الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ثم وصف الله المتقين أو العباد الذى هو بصير بهم بقوله :

(الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (١) .

لقد توسلوا بالإيمان إلى طلب المغفرة وحكى الله عنهم ذلك فى معرض الثناء عليهم فدل هذا على أن العبد بإيمانه يستأهل طلبه الرحمة والمغفرة من الله تعالى .

● ✱ ●

(لاَ يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ)(٢) .

كثرت المرويات في سبب نزول هذه الآية :

١ — جاء قوم من اليهود إلى قوم من المسلمين ليفتنوهم فى دينهم

---

(١) آل عمران (٢) آل عمران

فقال رفاعة بن المنذر وعبد الرحمن بن جبير لأولئك المسلمين اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا أن يفتنوكم فى دينكم فنزلت .

٢ — وقال مقاتل : نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة .

٣ — وقيل نزلت فى عبد الله بن أبىّ .

وقد أنزل الله فى هذا المعنى الكثير من الآيات كقوله : (لا تتخذوا بطانة من دونكم) ، (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) ، (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) وقوله : من دون المؤمنين أى من غير المؤمنين كقوله : (وادعوا شهداءكم من دون الله) أى غيره (ومن يفعل ذلك فليس من ولاية الله فى شىء) (إلا أن تتقوا منهم تقاة) أى إلا أن يكون ذلك على سبيل التقية، والاتقاء من العدوان والتقية إنما تكون إذا كان الرجل بين كفار ويخاف منهم على نفسه وماله فيداريهم باللسان وهى جائزة لصون النفس ، واختلف فى جوازها لصون المال واعتمد من جوزها على قوله عليه الصلاة والسلام : حرمة مال المسلم كحرمة دمه .

ويحذركم الله نفسه أن تعصوه فتستحقوا عقابه (وإلى الله المصير) أى أن الله يحذركم عقابه عند مصيركم إليه .

وقد أباح الله التقية بالظاهر لا بالباطن وقال : (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) .

● ★ ●

لقد كان اليهود يقولون : إن إبراهيم كان على ديننا والنصارى كانوا

---

(١) آل عمران (٢) آل عمران

يقولون : كان إبراهيم على ديننا ، وجادلوا وحاجوا فى إبراهيم وما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين قال الله :

(إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)(١) .

وبهذه الآية بين الله أن أولى الناس بإبراهيم فريقان : أحدهما من اتبعه فى عهده وسار على دينه بعد موته وأما الفريق الآخر فهو هذا النبى وهو محمد عليه الصلاة والسلام والذين آمنوا وهم أتباع محمد ممن آمنوا برسل الله وبرسالاتهم ومن بينهم إبراهيم ثم ختم الآية بقوله : (والله ولى المؤمنين) بالنصرة والتوفيق .

●✱●

وأمر الله محمد صلى الله عليه وسلم أن يعلن إيمانه بالله وما أنزل عليه وعلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم وألا يفرق بين أحد منهم فقال الله :

(قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)(٢) .

بهذا أمر الله نبيه أن يعلن للناس إيمانه بالله قبل كل شىء كما أمره أن يؤمن بما أنزل عليه لأن كتب الأنبياء حرفت وبدلت فلا سبيل إلى

---

(١) آل عمران (٢) آل عمران

معرفة أحوالها إلا بما أنزله الله على محمد فكان ما أنزل على محمد هو الأصل لما أنزل الله على الأنبياء ولهذا قدمه .

ثم أمره بالإيمان بما أنزل على الأنبياء الذين يعترف أهل الكتاب بوجودهم كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب (والأسباط) وهم أسباط يعقوب كما أمر بالإيمان بما أوتى النبيون من عند الله وألا يفرق بين أحد منهم فيؤمن ببعض ويكفر ببعض كما فرقت اليهود والنصارى (ونحن له مسلمون) مخلصون مستسلمون لحكمه وأمره .

●✱●

وقد نوه الله بشأن الأمة الإسلامية وأنها فى اللوح المحفوظ خير الأمم وأفضلها حتى لا يبطلوا على أنفسهم هذا الفضل فقال :

(كُنْتُمْ خَيْرًا أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس تَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ باللهِ ولَوْ آمن أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ المُؤْمِنُونَ وأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ)(١) .

تعرض آخر الآية لإيمان أهل الكتاب وأن منهم المؤمن وأكثرهم فاسق وجريا وراء إكمال الآية ذكرناها كاملة فى هذا الموطن وإن كانت فى إيمان الكتابيين الذى سنعرض له فيما بعد .

وقد أخبر الله فى هذه الآية أن المسلمين خلقوا خير أمة أى خلقوا فى علم الله خير أمة ، أو كنتم فى اللوح المحفوظ خير أمة أو صرتم خير أمة بسبب

---

(١) آل عمران

كونكم آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ومؤمنين بالله و (أخرجت للناس) معناه أظهرت حتى تميزت وعرفت وفصل بينها وبين غيرها .

ولما كان الإيمان بالله أمرا مشتركا بين جميع الأمم الحقة قدم الميزات التى امتازت بها الأمة الإسلامية واختصت بها وهى : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولو آمن أهل الكتاب بالإسلام الذى حصلت صفة الخيرية له لحصلت هذه الخيرية لهم كذلك ولكنهم آثروا دينهم على دين الإسلام حبا للرياسة واتباع العوام لهم ، ولهذا فقد كان منهم مؤمنون من أمثال ابن سلام وغيره من اليهود الذين أسلموا ومن أمثال النجاشى ومن آمن كإيمانه من النصارى وأكثر الكتابيين فسقوا وخرجوا عن الدين الحق .

●★●

وحول القتال وما دار فى بعض الغزوات جاءت كلمة المؤمنين فى كثير من الآيات منها قوله :

(وإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[1] إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

اختلف المفسرون فى هذا اليوم وأكثرهم على أنه يوم أحد وقيل يوم بدر وقيل يوم الأحزاب وأكثر علماء المغازى أنه يوم أحد واستدلوا بأنه ذكر بعد هذه الآية : ولقد نصركم الله ببدر وهذا معطوف على ماتقدم والمعطوف مغاير للمعطوف عليه ، وإلى جانب هذا فإن انكسار المسلمين

---

(١) آل عمران

كان يوم أُحد وأن الطائفتين اللتين حاولتا الفشل والرجوع كما سنبين موقفهما كان يوم أُحد .

وقوله تعالى : (وإذ غدوت من أهلك) أى واذكر إذ غدوت وخرجت والمراد من الأهل هنا حجرة عائشة رضى الله عنها وتبوىء تنزل من قولك بوأتك منزلا أى أنزلتك منزلا ومقاعد للقتال : مواطن ومواضع

وقد أمر النبى أصحابه المؤمنين بعد إنزالهم ووضعهم فى مواضعهم أن يثبتوا فى تلك المقاعد وألا يبرحوها والله سميع لكل توجيهات رسوله وأوامره عليم بكل ما يخطر فى النفوس ، والعامل فى قوله إذ همت إما أن يكون تبوىء أو سميع عليهم أو إذ همت بدلا من إذ غدوت .

أما الطائفتان اللتان همتا بالفشل والرجوع فهما بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وكان الهمُّ بالفشل حين انهزم عبد الله بن أُبىّ بثلث الجيش وقد عصمهما الله من الفشل فثبتوا مع الرسول ، والهَمّ هو العزم وظاهر الآية يدل على عزمهما على الرجوع .

وقد يراد بالهمّ : الفكر أو حديث النفس ، ولولا توفيق الله لوقع الفشل ، ثم إن تلك الهمة لم تخرجهم عن ولاية الله فقد بين الله أنه وليهما .

ثم ختم الآية بقوله : (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وهذا أمر بالتوكل على الله والاعتماد عليه فهو الناصر عبده والمعز جنده ، (وإن جندنا لهم الغالبون) .

ومن آيات القتال التى ورد فيها ذكر الإيمان قوله تعالى :

(إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ)(١) .

وقد اختلف المفسرون كذلك فى أن هذا الوعد حصل يوم بدر أو يوم أحد فقال بعضهم : يوم أحد كالآية السابقة ومن القائلين بهذا : ابن عباس والواقدى ومقاتل وابن إسحاق ولهم فى ذلك حجج :

١ — أن يوم بدر إنما أمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بألف لقوله تعالى : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) .

٢ — أن الكفار كانوا يوم بدر ألفا فأمد الله المسلمين بألف ليصير عددهم كعدد الكفار .

٣ — قال الله بعد هذه الآية : (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة) ويوم أحد هو اليوم الذى يأتيهم فيه الأعداء من كل هذا يتضح وعلى ضوء تلك الحجج أن الآية نزلت فى أحد .

وقال مجاهد : حضرت الملائكة يوم أحد ولكنهم لم يقاتلوا .

وقال البعض إن هذا الوعد كان يوم بدر ولا يتسع المقام هنا لعرض الحجج ومناقشة الآراء .

وقد اختلف فى كيفية نصرة الملائكة فقال بعضهم بالقتال مع المؤمنين وقال بعضهم بتقوية نفوسهم وإشعارهم بأن النصر لهم وبإلقاء الرعب فى قلوب الكفار .

● ★ ●

---

(١) آل عمران

ومن الآيات التى تتصل بالمعارك والحروب تسلية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى قوله تعالى :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)(١)

بهذا يسلى الله رسوله والمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وبهذا يقوى قلوبهم فهو ينهاهم عن الوهن والضعف فى الجهاد ومعناه لايورثنكم ما حدث فى أحد. وَهْناً ولا جبنا ، ولا تحزنوا على من قتل منكم أو جرح ، وأنتم الأعلون أى وحالكم الأعلى لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد أو وأنتم الأعلون شأنا ومقاما لأن قتالكم لله ولإعلاء كلمته ، وقتالهم للشيطان وإعلاء كلمة الكفر وشتان بين الهدفين ، وإن قتلاكم فى الجنة وقتلاهم فى النار أو ذلك بشارة لهم بالعلو والغلبة ولهم العاقبة الكريمة .

وقوله : « إن كنتم مؤمنين » أى ولا تهنوا إن صح إيمانكم ؛ لأن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بما صنع الله .

أو وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين مصدقين بما يعدكم الله به ويبشركم بالنصر .

●✱●

ويمضى القرآن فى تسلية المسلمين على ما أصابهم يوم أحد فيقول الله :

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ(١) النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ

---

(١) آل عمران

شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا)[١] .

القرح بفتح القاف وضمها : الجرح . وقيل بالفتح : الجرح وبالضم ألم الجرح .

والمعنى : المراد بالآية أنكم إذا مسكم جراح فى أُحد ، وكنّى بالقرح عن كل ما أصاب من قتل أو جراح ، فقد مس القوم جراح مثلها من قبل فى بدر .

ويجب ألا يضعف قلوبكم ما مسكم ويجب ألا يثبطكم عن معاودة القتال ما نالكم والدنيا دول والأيام يصرفها الله بين الناس لحكمة يراها ومن أمثال العرب « الحرب سجال ، يوم لك وويوم عليك» .

وقوله : « وليعلم الله الذين آمنوا » قد يكون المعلل محذوفا والتقدير : فعلنا ذلك ليتميز الثابتون على الإيمان من الذين يعبدون الله على حرف .

والمعنى : فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم مَن الثابت على الإيمان منكم ومَن غير الثابت .

أو أن هنالك علة محذوفة عطف عليها قوله : وليعلم الله الذين آمنوا » والتقدير فعلنا ذلك ليكون كذا وكذا وليعلم الله للاشارة إلى أن المصلحة فيما فعل ليست واحدة ليسليهم عما جرى وليبصرهم أن العبد يسوءه مايحل به من المصائب ولايشعر أن لله في ذلك من المصالح ماهو غافل عنه وقوله : (ويتخذ منكم شهداء) ، معناه : وليكرم ناسا منكم بالشهادة يريد المستشهدين يوم أحد أوليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة قال تعالى : « لتكونوا شهداء على الناس » .

---

(١) آل عمران

« والله لايحب الظالمين » أى لايحب من لا يكون ثابتا على الإيمان صابرا على الجهاد لأن الذى لايثبت ولا يصبر على مواطن الشدة ظالم لنفسه ولأمته .

أو « والله لايحب الظالمين » أى المشركين لقوله تعالى : إن الشرك لظلم عظيم .

وقد جعل الله الأيام مداولة بين الناس فإن حصلت الغلبة للكافرين على المؤمنين كان المراد تمحيص ذنوب المؤمنين وإن كانت الغلبة للمؤمنين كان المراد محق آثار الكافرين .

وكأن تقدير الكلام : فعلنا مافعلنا ليعلم الله الذين آمنوا وليتخذ منكم شهداء وليمحص المؤمنين وينقيهم من ذنوبهم ويمحق الكافرين، وتمحيص الذنوب تنقية النفوس منها وتكفيرها إن كانت لهم ذنوب أو برفع درجاتهم إلى درجات أعلى عند الله .

●★●

ويمضى القرآن كذلك فى الحديث عما يتصل بالحرب فى أحد فيقول الله :

(وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ[1] وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) .

قيل كان النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى المنام أنه يذبح كبشا فصدق

---

(١) آل عمران

الله رؤياه بقتل طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين يوم أحد ، وقتل بعده تسعة نفر على اللواء فذاك قوله : ولقد صدقكم الله وعده أى صدق الله رؤيا الرسول .

وقيل الوعد : هو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للرماة : لاتبرحوا هذا المكان فإنا لانزال غالبين مادمتم فى هذا المكان (إذ تحسونهم بإذنه) أى تستأصلونهم بإذن الله وعلمه (حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون) .

أى قد نصركم الله وصدقكم وعده إلى أن كان منكم الفشل والتنازع المؤدى إلى العصيان بمخالفة أوامر الرسول فى عدم ترك المكان الذى حدد للرماة وأمروا ألا يبرحوه حتى إذا كان ذلك صرتم فريقين منكم من يريد الدنيا فيترك مكانه وينزل لجمع الغنائم ، ومنكم من يريد الآخرة فيتمسك بالبقاء تنفيذا لأمر الرسول .

(ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) بأن لم يأمركم بمعاودتهم من فورهم ليبتليكم ويمتحنكم (ولقد عفا عنكم) وظاهره يدل على تقدم الذنب وكان الذنب المخالفة الصريحة لأمر الرسول تلك المخالفة التى كانت سببا فى هزيمة المسلمين وقتل عدد كبير منهم .

(والله ذو فضل على المؤمنين) وقد تجلى فضله فى نصرهم أولا ثم فى العفو عن المذنبين ثانيا وكان عفوه فضلا عظيما .

●★●

ويمضى كذلك القرآن فى تقديم مايتصل بالحرب فيقول :

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى

يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (١)

قال ابن عباس :

إن ينصركم الله كما نصركم يوم بدر فلا يغلبكم أحد وإن يخذلكم كما خذلكم يوم أحد لم ينصركم أحد .

والآية تدل على الترغيب فى الطاعة والتحذير من المعصية وقد بين الله فيما تقدم قوله : بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة وبين فى هذه الآية أن من نصره الله فلا غالب له فمن اتقى الله فاز بنصر الله وبسعادة الدارين ومن عصى الله خذله الله وأشقاه فى الدارين .

وقد أمر الله المؤمنين بالتوكل عليه ومن توكل على الله كفاه الله .

●★●

وبين الله أنه أنعم على المؤمنين نعمة لا يعدلها شىء حين بعث فيهم محمدا رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فقال :

(لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ (٢) وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

وأصل المن : الإنعام والإحسان إلى من لا تطلب الجزاء منه والمنان من صفات الله تعالى وهو المعطى ابتداء من غير أن يطلب عوضا .

ولقد منّ الله على المؤمنين أى أحسن إليهم ببعثة محمد حيث كان

---

(١) آل عمران (٢) آل عمران

وجوده نعمة عظيمة وقد بين الله في الآية مهمة الرسول والمنافع التى عادت على أمته من بعثته :

فهو يتلو عليهم آيات الله وفيها من الشريعة والتوجيه والإرشاد والخير مافيها وهو يزكيهم فيبعدهم عن الباطل ويطهرهم .

وهو المعلم الذى يعلمهم العلوم النافعة لهم فى دينهم ودنياهم ويعلمهم تأويل الكتاب وتفسيره وهو الذى انتشلهم من الضلال المبين الذى كانوا فيه فى جاهليتهم .

● ★ ●

وحول معركة أحد يقول الله تعالى :

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمُ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا)[١] .

لقد التقى الجمعان يوم أحد : جمع المؤمنين بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمع المشركين بقيادة أبى سفيان وكان ما أصاب المسلمين بإذن الله وبعلمه وبقضائه وقدره .

(وليعلم المؤمنين) أى ليتبين المؤمن من المنافق ويتميز أحدهما عن الآخر أو في الآية حذف تقديره : ليعلم إيمان المؤمنين ونفاق المنافقين حيث انخذل عبد الله بن أبىّ بثلث الجيش الذى كان عدده ألفا فصاروا بانخذاله سبعمائة يواجهون ثلاثة آلاف من المشركين .

● ★ ●

(١) آل عمران

وبشر الله الشهداء بنعمته وفضله فقال :

(يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ) (١) .

الاستبشار : هو الفرح التام العظيم وإن الشهداء ليفرحون فرحا عظيما بالنعمة التى تحصل لهم فى الآخرة فالاستبشار بنعمة الله وبفضل الله وبرحمته وبأن الله لايضيع أجر المؤمنين بل حفظه لهم ليوفيهم به فى الآخرة ونعم الأجر أجرهم .

وإن دعايات الإرهاب التى خطط لها المشركون لإخافة المسلمين قد زادت المؤمنين إيمانا وذلك ماحكاه القرآن فى قوله تعالى :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (٢) .

نزلت الآية فى بدر الصغرى ـ وقد روى ابن عباس رضى الله عنهما أن أبا سفيان لما عزم على الانصراف إلى مكة فنادى يامحمد موعدنا موسم بدر الصغرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر : قل بيننا وبينك ذلك ، فلما حضر الأجل خرج أبو سفيان وألقى الله الرعب فى قلبه فبدا له الرجوع فلقى نعيم بن مسعود فقال : يانعيم إنى واعدت محمدا أن نلتقى بموسم بدر وهذا عام جدب فاذهب إلى المدينة فثبطهم ولك عندى عشرة من الإبل فخرج نعيم ، فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم : ماهذا بالرأى ، لقد أتوكم فى دياركم وقتلوا الكثير فان ذهبتم لم يرجع منكم أحد ، فوقع هذا القول

(١) آل عمران (٢) آل عمران

فى قلوب بعض المؤمنين ، فلما عرف الرسول قال : والذى نفس محمد بيده لأخرجن إليهم ولو وحدى ، ثم خرج ومعه سبعون رجلا وذهبوا حتى وصلوا بدر الصغرى ، ولم يلق رسول الله أحدا من المشركين ، ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين ونزل فى ذلك قوله تعالى (الذين قال لهم الناس) وأراد بالناس الأولى : نعيم بن مسعود وأراد بالثانية المشركين (وقد جمعوا لكم) أى جمعوا جموعهم للحرب .

وقد زاد المسلمين قول نعيم إيمانا على إيمانهم (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) فهو الكفيل بنصر المؤمنين ونعم الكفيل والوكيل .

●✱●

وبين الله أن الشيطان يخوف أولياءه ليقعدهم عن قتال المشركين ونهى المؤمنين عن الخوف إن كانوا مؤمنين فقال تعالى :

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)(١) .

للمفسرين فى المراد من الآية آراء :

١ — أن تقدير الكلام : ذلكم الشيطان يخوفكم بأوليائه وبهذا قرأ أبىّ بن كعب .

٢ — أن تقدير الكلام : ذلكم الشيطان يخوفكم أولياءه .

٣ — أن المعنى : أن ذلكم الشيطان يخوف أولياءه المنافقين ليقعدهم

---

(١) آل عمران

عن قتال المشركين : أى أنه يخوف أوليائه الذين يطيعونه فأما أولياء الله فإنه لا يخوفهم ولا ينقادون له .

ثم أمر المؤمنين بالجهاد مع الرسول إن كانوا مؤمنين لأن الإيمان يقتضى من المؤمن أن يؤثر خوف الله على خوف الناس (فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) .

●★●

وأخبر الله أن ماوقع فى أحد من قتل وهزيمة وجراح ودعاء النبى إلى الخروج إلى بدر الصغرى للقاء أبى سفيان كل ذلك كان دليلا على امتياز المؤمن على المنافق فقال :

(مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ[1] حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِى مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

والمعنى : ما كان الله ليترككم يامعشر المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاط المؤمن بالمنافق حتى يميز الخبيث (المنافق) من الطيب (المؤمن) وذلك التمييز بالامتحان بالمصائب والهزائم والقتل فمن كان مؤمنا ثبت على إيمانه وتصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن كان منافقا ظهر نفاقه وكفره فأما معرفة ذلك فهو من الغيب وما كان الله ليطلعكم

---

(١) آل عمران

على الغيب ولكن الله يصطفى من رسله من يشاء فيخصهم بإعلام أن هذا مؤمن وهذا منافق ، والله يمتحن الخلق بالشرائع التى تجىء عن طريق الرسل حتى يتميز المؤمن من المنافق .

ولم يبق بعد هذا إلا أن تؤمنوا أيها المؤمنون بالله ورسله أى تثبتوا على إيمانكم ثم قرن ذلك بالوعد فقال : (وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم) .

وقال السدى : فى سبب نزول هذه الآية أنهم قالوا : إن كان محمد صادقا فليخبرنا عمن يؤمن به منا ومن يكفر فأنزل الله : ما كان الله ليذر المؤمنين الخ .

● ✱ ●

ووصف الله أصحاب الألباب والعقول الواعية بأنهم يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم وبأنهم حينما سمعوا منادى الإيمان أجابوه بقلوبهم وألسنتهم فقالوا آمنا ، وذلك فى قوله تعالى : يحكى قولهم ودعاءهم :

(رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)(١) .

المنادى إما أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أخذا من قول الله : (ادع إلى سبيل ربك) وقوله (داعيا إلى الله بإذنه) .

وإما أن يكون القرآن أخذا من قوله تعالى يحكى قول الجن : (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به) .

---

(١) آل عمران

وبعد الإخبار بإيمانهم بعد أن دعاهم النبي أو القرآن طلبوا من الله في دعائهم ثلاثة أشياء : غفران الذنوب ، وتكفير سيئاتهم ووفاتهم مع الأبرار . والأبرار جمع بر أو بار ووفاتهم مع الأبرار معناه أن يموتوا على مثل أعمال الأبرار ليكونوا في درجاتهم يوم القيامة .

•✱•

وحول حكم شرعي في النكاح وجه الله إلى نكاح المحصنة المؤمنة فمن لم يستطع وليست لديه سعة في المال فلينكح ما ملكت اليمين من الفتيات المؤمنات بعد إذن أهلهن ودفع مهورهن فقال :

(وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ من فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم من بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)(١) .

أي ومن لم يستطع أن تكون له زيادة في المال وسعة يبلغ بها نكاح الحرة فلينكح الأمة قال ابن عباس من ملك ثلاثمائة درهم وجب عليه الحج وحرم عليه نكاح الإماء .

وروى عن ابن عباس أنه قال مما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة واليهودية والنصرانية وقوله (من فتياتكم المؤمنات) حدد الإماء بالمؤمنات ومفهومه عدم جواز الأمة الكتابية وإليه ذهب أهل الحجاز وجوزه العراقيون والله أعلم بتفاضل ما بينكم وبين أرقائكم في الإيمان أي أنتم

---

(١) النساء

وأرقائكم متواصلون متناسبون لاشتراككم فى الإيمان (باذن أهلهن) أى الموالى (وآتوهن أجورهن بالمعروف) أى أدوا إليهن مهورهن ، وفى أدائه لمواليهن أداء لأنهن وما يملكن لمواليهن

وهكذا أباح الله المؤمنين نكاح الإماء المؤمنات إذا لم يكن لديهم من الثروة ما يسمح بنكاح المحصنات من الحرائر على أن يكون نكاح الإماء بإذن مواليهن وأن تدفع لهن أو لمواليهن المهور .

●★●

ورغب الله المؤمنين فأخبرهم أنهم إنما يقاتلون فى سبيل الله وهو يتولاهم وينصرهم فقال :

(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)[1] .

بين الله أن قتال المؤمنين إنما هو فى سبيل الله ولإعلاء كلمته ومن كانوا يقاتلون فى سبيل الله تولى الله أمرهم وكفاهم أعداءه وأعداءهم

أما الكافرون فقتالهم فى سبيل الطاغوت وهو الشيطان ومن كان وليه الشيطان فالله خاذله ، ثم أمر الله المؤمنين أن يقاتلوا أولياء الشيطان وأنصاره ولا ولى لهم سواه ، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شىء وأوهنه

وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالقتال فى سبيل الله وتحريض المؤمنين على القتال :

---

(١) النساء

(فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً)(١) .

لقد أمر الله نبيه بالقتال فى سبيله ولو أفرد وترك وحده (لا تكلف إلا نفسك) فنفسك وحدها هى التى أمرت أن تقدمها للجهاد فالله الناصر لا الجنود فإن شاء نصرك وحدك إذا خضت وحدك المعارك كما ينصرك وحولك الألوف من الجند

وقيل سبب نزول هذه الآية أن بعض المسلمين كرهوا الخروج معه إلى بدر الصغرى فنزلت هذه الآية وخرج إلى بدر الصغرى فى سبعين من أصحابه وقوى لا تكلف بالجزم على النهى ثم أمره الله بالتحريض والحث على الجهاد فقط وذلك قوله (وحرض المؤمنين) أى ما عليك فى هذا سوى تحريض المؤمنين فحسب وألا تعنفهم حتى لا يكرهوا على الخروج وقد يكون خروج الكاره إلى الحرب سببا فى الهزيمة (عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) وهم قريش وقد كف الله بأسهم حين ألقى الرعب فى قلب أبى سفيان فرجع عن الحرب والله أشد بأساً من قريش والله أشد تنكيلا وتعذيبا منهم ، قال البراء لما نزلت آية : فقاتل فى سبيل الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرنى ربى بالقتال فقاتلوا

وقد أمر الله رسوله بتحريض الناس على القتال وترغيبهم فيه وقد قال عليه الصلاة والسلام وهو يسوى الصفوف ، قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وهذا تحريض وحث من الرسول

---

(١) النساء

وبين الله أن قتل المؤمن خطأ يلزم القاتل بتحرير رقبة وبالدية إلا أن يعفو أهل القتيل وشرح الله صور القتل الخطأ إن كان القتيل مؤمنا يعيش بين أعداء المسلمين أو كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فالدية لأهله وتحرير رقبة فان لم يجد القاتل فصيام شهرين متتابعين

أما من قتل مؤمناً متعمدا فجزاؤه جهنم وقد بين الله كل ذلك في قوله تعالى :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلا خَطأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خطأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً) .

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)(١) .

يقول الله : « وما كان لمؤمن » أي ما صح ولا استقام لمؤمن أن يقتل مؤمناً ابتداء غير قصاص إلا إذا كان القتل على وجه الخطأ .

وقيل سبب نزول الآية أن عياش بن أبي ربيعة وكان أخاً لأبي جهل من الأم أسلم وهاجر خوفا من قومه قبل هجرة الرسول فأقسمت أمه ألا تأكل ولا تشرب ولا يأويها بيت حتى يرجع فخرج أبو جهل ومعه الحارث ابن زيد إلى المدينة وما زالا به حتى عاد معهما فلما خرجا به من المدينة

---

(١) النساء .

كتفاه وجلداه فقال للحارث : عليّ إن وجدتك خالياً أن أقتلك وعاد إلى مكة ثم هاجر ثانياً وأسلم الحارث ولقيه عياش بقباء ولم يعلم بإسلامه فقتله ثم أخبر بإسلامه وجاء عياش إلى الرسول فقال للرسول قتلته ولم أعلم بإسلامه فنزلت الآية .

وحددت الآية كفارة القتل الخطأ :

١ — تحرير رقبة : وصفها الله بأنها مؤمنة وعن الحسن : لا تجزئ إلا رقبة صامت وصلت فلا تجزئ الرقبة الصغيرة .

٢ — دية تؤدّى إلى ورثة القتيل يقتسمونها كالميراث لا فرق بينها وبين التركة ، وعن ابن مسعود : يرث كل وارث من الدية إلا القاتل والدية على القاتل وقيل : يتحملها عنه أهله إذا لم يكن لديه مال إلا إذا عفا أهل القتيل ، وهذا معنى قوله : إلا أن يصدقوا فإن كان القتيل من قوم كفار أهل حرب وهو مؤمن يعيش بين أظهر قومه فعلى قاتله الكفارة إذا قتله خطأ ، وليس على عاقلته لأهله شيء لأنهم كفار والكفارة فى هذه الحالة : تحرير رقبة مؤمنة .

وإن كان من قوم كفرة لهم ذمة كالمشركين الذين عاهدوا المسلمين وأهل الذمة من الكتابيين فحكمه حكم مسلم من مسلمين : الدية المسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فإن كان مؤمنا فدية كاملة وإن كان كافرا فقيل دية كاملة وقيل نصف دية .

فمن لم يجد رقبة أى لا يملكها فعليه صيام شهرين متتابعين .

(توبة من الله) أى قبولا من الله ورحمة منه .

أما توبة قاتل المؤمن عمدا فهى غير مقبولة وهذا رأى ابن عباس وعن سفيان قال : كان أهل العلم إذا سئلوا عن ذلك قالوا لا توبة له .

وفى الحديث : لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم .

ونص الآية يشير إلى أن قاتل المؤمن عمدا جزاؤه الخلود فى جهنم بالإضافة إلى لعنة الله وإلى غضب الله وإلى العذاب العظيم الذى يعذبه به الله يوم القيامة .

●✱●

وحول القعود عن الخروج إلى الجهاد فى بدر أو تبوك نفى الله التسوية بين القاعدين غير أصحاب الضرر وبين المجاهدين بأنفسهم وأموالهم فقال تعالى :

(لَا يَسْتَوِى القَاعِدُونَ من المُؤْمنينَ غَيْرَ أُولى الضَّررِ والمُجَاهِدون فى سَبيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِم وأَنْفُسِهم فَضَّلَ اللهُ المجاهِدينَ بِأَموالِهم وأَنْفُسِهِم عَلَى الْقَاعِدينَ دَرَجَةً وكُلاً وعَدَ اللهُ الحُسْنَى وفَضَّلَ اللهُ المجاهِدين عَلَى الْقَاعِدينَ أَجْراً عَظِيماً دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمغْفِرةً ورحمةً)[1] .

عن زيد بن ثابت قال : كنت إلى جنب الرسول صلى الله عليه وسلم فغشيته السكينة فوقعت فخذه على فخذى حتى خشيت أن ترضها ثم سرى عنه فقال : اكتب . فكتبت فى كتف : لايستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فقال ابن أم مكتوم وكان أعمى : يا رسول الله وكيف بمن لايستطيع الجهاد من المؤمنين فغشيته السكينة كذلك ثم قال : اقرأ يا زيد فقرأت : (لايستوى القاعدون من المؤمنين) فقال : غير أولى الضرر ، فألحقتها .

وقوله : فضل الله المجاهدين : موضحة لنفى استواء القاعدين والمجاهدين

---

(١) النساء

وكل فريق منهما وعده الله الحسنى وهى الجنة وإن كان المجاهدون قدفضلوا على القاعدين درجة

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم وهم الذين صحت نياتهم ونفحت جيوبهم وكانت أفئدتهم تهوى إلى الجهاد وبهم ما يمنعهم من المسير من ضرر أو غيره

والمفضلون درجة واحدة هم المجاهدون الذين فضلوا على القاعدين أصحاب الضرر وأما الذين فضلوا درجات فهم المجاهدون الذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم فى التخلف اكتفاء بغيرهم

وأولئك المجاهدون الذين فضلوا بدرجات غفر الله لهم مغفرة عظيمة ورحمهم رحمة واسعة والله غفور للمجاهدين وللقاعدين الذين حسنت نواياهم وهو رحيم بهم جميعاً .

●★●

وبعد بين أن الله كيفية صلاة الخوف فى حالة الحرب قال :

(فإذا قَضَيْتُمُ الصلاةَ فاذكُرُوا اللهَ قِيَاماً وقُعُوداً وعَلَى جُنُوبِكم ، فإذا اطْمَأْنَنتُم فأَقِيمُوا الصلاةَ إنّ الصلاةَ كانَتْ عَلَى المُؤْمنينَ كِتاباً مَوْقوتاً) [١] .

والمعنى : إذا صليتم فى حال الخوف والقتال فاذكروا الله ، أى فصلوها قياما (مسايفين) أى وأنتم تستعملون السيوف أو مقارعين لأعدائكم اقعدوا (جالسين على الركب وعلى جنوبكم إذا كنتم مثخنين بالجراح فإذا اطمأننتم) حين تضع الحرب أوزارها وامنتم (فأقيموا الصلاة) أى فاقضوا ما صليتم فى تلك الأحوال.

---

(١) النساء .

(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) محدودا بأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها ، وهذا مذهب الشافعى فى إيجاب الصلاة على المحاربين فى حال المقاتلة والمشى والاضطراب فى المعركة إذا حضر وقتها فاذا اطمأن فعليه القضاء

وأما عند أبى حنيفة فهو معذور فى تركها إلى أن يطمئن فيصليها

أى المراد إذا قضيتم صلاة الخوف فأديموا ذكر الله مهللين مكبرين مسبحين داعين .

●★●

وقابل الله بين الذين يكفرون بالله ورسله وقالوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض وأعلن أنهم كافرون حقاً وتوعدهم بالعقاب والعذاب المهين .

قابل بين هؤلاء وبين الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم وقدم ما وعدهم به وهو إيتاء الأجور جزاء هذا الإيمان فقال :

(إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا) الخ ثم قال :

(والذينَ آمنوا باللهِ وَرُسُلِهِ ولم يُفَرِّقوا بينَ أَحَدٍ منهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتيهِمْ أُجُورَهُمْ وكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً) (١).

لقد وعد الله من آمن بالله ورسله بأنه يؤتيهم أجورهم على ذلك الإيمان وبعد الوعد بالثواب أخبر بأنه الغفور للذنوب العفو المكفر عن السيئات (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) .

●★●

ونادى الله الناس ليدعوهم إلى الاعتراف برسالة محمد صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) النساء .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِن رَبِّكُم وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نوراً مُبِيناً فَأَمَّا الذينَ آمنوا باللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)(١).

والبرهان فى الآية هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل سماه برهانا لأن مهمته إقامة البرهان على تحقيق الحق وإبطال الباطل

والنور المبين هو القرآن وسماه نورا لأنه سبب لوقوع نور الإيمان فى فى القلب وقد أمرهم الله بالاستمساك بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ووعدهم بالثواب فى قوله : فأما الذين آمنوا بالله والمراد إيمانهم الكامل بالله وبصفاته وأفعاله وأسمائه واعتصموا به وثبتوا على إيمانهم أولئك يصونهم الله فى رحمته وفضله ويهديهم الصراط المستقيم وهكذا وعدهم بثلاثة أشياء : الرحمة والفضل والهداية قال ابن عباس : الرحمة : الجنة ، والفضل : ما يتفضل به عليهم ويهديهم الصراط المستقيم أى الدين القويم

● ★ ●

قال الله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، وكما أتم النعمة فيما يتعلق بالدين أتم النعمة فيما يتعلق بالدنيا ومنها إحلال الطيبات فقال :

(اليَوْمَ أُحِلَّ لَكُم الطَّيِّبَاتُ وطعامُ الذينَ اوتوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطعامُكم حِلٌّ لَهُمْ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ المؤمناتِ والمحصنَاتُ مِنَ الذينَ اُوتُوا الكتَابَ من قَبْلِكم إذا آتَيْتُمُوهُنَّ اُجورَهُنَّ)(٢) .

بهذا أحل الله الطيبات من الرزق وأحل طعام الكتابيين أى ذبائحهم وقيل المراد : الخبز والفاكهة أو جميع المطعومات (طعامكم حل لهم)

---

(١) النساء .　　　　(٢) المائدة .

كذلك والمحصنات من المؤمنات وفسرت المحصنات بالحرائر وفسرت بالعفائف « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » بهذه الآية أحل بعض الفقهاء التزوج بالذمية من اليهود والنصارى، وحرم ذلك ابن عمر متمسكا بقوله تعالى : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) .

وقال عطاء : رخص زواج الكتابية فى وقت كانت المؤمنات قلة أما الآن وقد كثرن فقد زالت الرخصة وقال بعض الفقهاء : إنما يحل نكاح الكتابية التى دانت بالتوراة أو الإنجيل قبل نزول القرآن .

إذا آتيتموهن أجورهن (أى مهورهن)

●★●

إن المنافقين الذين فى قلوبهم مرض يخشون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان ، والمسلمون يرجون أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده يستأصل شأفة اليهود فيندموا على نفاقهم وقد حكى الله قول المؤمنين إزاء موقف اليهود وحلفهم إنهم من المؤمنين ثم حكم الله ببطلان أعمالهم وبخسرانهم فقال :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ)(١) .

وهذا الكلام يصلح لأن يكون جوابا لقول قائل: ماذا يقول المؤمنون عندئذ فكان الجواب : يقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين حلفوا لكم بأغلظ الأيمان أنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار ، وقد قالوا ما حكاه الله فى قوله : ولئن قوتلتم لننصرنكم (حبطت أعمالهم) أي بطلت وفيه معنى

---

(١) المائدة .

التعجب كأنه قيل : ما أحبط أعمالهم، وقد يكون قوله : حبطت أعمالهم من جملة كلام المؤمنين حكاه الله أو من قول الله يخبر بحبوط أعمالهم وسوء حالهم .

●★●

وبين الله من تجب موالاتهم بقوله :

(إنما وَلِيُّكم اللهُ ورَسُولُهُ وَالذِينَ آمنُوا الذينَ يُقيمُونَ الصلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وهُمْ رَاكِعُون * ومَنْ يَتَوَلَّ اللهَ ورَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمنُوا فإنَّ حِزْبَ اللهِ هم الغَالِبُون) (٢) .

قيل سبب نزول هذه الآية أن عبادة بن الصامت لما تبرأ من اليهود وقال : أنا برىء من حلف قريظة والنضير وأتولى الله ورسوله نزلت هذه الآية .

وقيل نزلت فى عبد الله بن سلام حين هجره قومه بعد إسلامه فنزلت هذه الآية ، وكل من كان مؤمنا فهو ولى المؤمنين قال الله (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض (وقد وصف الله المؤمنين فى الآية بأوصاف فقال : (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون قيل المراد بالركوع الخضوع أو المراد إقامة الصلاة وخص الركوع بالذكر تشريفا ، ويؤتون الزكاة : يؤدونها والمراد الزكاة الواجبة .

ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فهو الغالب لكونه من جند الله وحزب الله الذين يدينون بدينه ويطيعونه فينصرهم .

●★●

---

(١) المائدة .

وبين الله مهمة الرسل وموقف الناس من رسالاتهم فقال :

(وما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، فَمَن آمَنَ وأَصلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عليهم ولا هُمْ يَحْزَنون)(١) .

وقد أرسل الله الرسل وأساس رسالتهم دعوة الناس إلى الله الحق والتنديد بالمعبودات التى يعبدونها من دون الله وهم يبشرون المطيع المستجيب لدعوتهم بثواب الله وينذرون العاصى المعاند بعقاب الله فمن آمن بهم وبما جاءوا به وأطاعهم فهو الفائز ومن كذبهم وعصاهم فهو الخاسر ولم يرسلهم الله ليتلهى بهم الناس أو لتقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم فمن آمن وأضاف إلى الإيمان إصلاح مايجب عليه إصلاحه فأولئك لاخوف عليهم يوم القيامة ولاهم يحزنون على أنهم قد فاتهم ما كان يجب عليهم عمله مما تركوه وراء ظهورهم .

●★●

ووجه الله نبيه إلى إكرام الذين يؤمنون بآيات الله وإخبار المؤمنين أنه من عمل سوءا بجهالة ثم تاب وأصلح فغفران الله ورحمته يمحوان ذنبه فقال تعالى :

(وإذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تابَ من بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيم)(٢) .

وقد أمر الله نبيه إذا جاءه المؤمنون بآيات الله أن يبدأهم بالسلام

---

(١) الأنعام (٢) الأنعام

فيسلم عليهم فكان السلام هو القول الأول الذى أمر به والقول الثانى الذى يقوله ليسرهم به ويبشرهم بسعة رحمة الله: (أن الله كتب على نفسه الرحمة) أى أوجبها على نفسه على سبيل الفضل والكرم والنفس: الذات قال تعالى تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك فيما حكاه عن عيسى ومن رحمة الله بالعباد أن من عمل من المؤمنين معصية وهو جاهل بمقدار مافاته من الثواب وما يستحق من العقاب أو جاهل بعاقبة ذلك الفعل، أو لأنه فعل مالا يليق إلا بالجهال فأطلق عليه لفظ الجاهل، ثم أعقب ذلك السوء بالتوبة والعمل الصالح غفر الله له وهو الغفور الرحيم .

● ★ ●

وأشار الله إلى القرآن الذى أنزله فقال :

(وهذا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الذى بينَ يَدَيْهِ ولِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى ومن حَوْلَهَا والذينَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ يُؤمنونَ بهِ وهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُون) [١].

(وهذا) إشارة إلى القرآن وأخبر بقوله : أنزلناه لبيان أنه من عند الله لا من عند الرسول ، والمبارك : الكثير الخير الدائم البركة والمنفعة لأنه يبشر بالثواب والمغفرة ويزجر عن المعصية وقد ساق الله أوصافا لهذا الكتاب :

أنزلناه ومبارك ومصدق لما سبقه من الكتب السماوية وأنه منذر لأم القرى ومن حولها وهى مكة لأنها قبلة أهل القرى .

---

(١) الأنعام .

وقد زعم بعض اليهود أن هذه الآية تدل على أن محمدا بعث إلى أهل مكة وما حولها فحسب ، وليس رسولا للناس عامة والحق أن قوله : من حولها لا يدل على جزيرة العرب وحدها وإنما الحولية تمتد إلى الآفاق شرقا وغربا لأنها مركز الأرض والأرض كلها من حولها .

والذين يؤمنون بالآخرة ويصدقون بالعاقبة ويخافونها يؤمنون بهذا الكتاب وهم على صلاتهم يحافظون وقد خص الصلاة لأنها عماد الدين .

● ★ ●

وكثيرا ما قدم الله فى القرآن دلائل قدرته وعجائب خلقه ليزداد المؤمنون إيمانا . قال تعالى :

(وهُوَ الَّذِي أنزَلَ منَ السماءِ ماءً فأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ، فأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٌ من أَعْنَابٍ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انْظُرُوا إلى ثَمَرِهِ إذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إنَّ فى ذلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون) [1] .

فى هذه الآية بعض الدلائل الدالة على كمال قدرته وحكمته ورحمته وإحسانه فذكر سبحانه أنه هو الذي أنزل من السماء ماء وهو المطر .

(فأخرجنا به نبات كل شىء) وذلك يدل على أن إخراج النبات بواسطة الماء ، وابتدأ بذكر الزرع فقال : فأخرجنا منه خضرا وهو الزرع ويخرج من ذلك الخضر حبا متراكبا بعضه على بعض فى سنبلة واحدة ثم أتبع ذلك

---

(١) الأنعام

بذكر ماينبت من النوى فقال (ومن النخل من طلعها قنوان) والطلع : الكيزان قبل أن تنشق ، والقنوان : العراجين وقيل : صغار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض (دانية) أى قريبة القطوف (وجنـــات من أعناب) على تقدير وثم جنات من أعناب (والزيتون والرمان) أى وشجر الزيتون والرمان (متشابها وغير متشابه) أى أن هذه الفواكه قد تكون متشابهة فى اللون والشكل مع أنها تكون مختلفة فى الطعم واللذة وقد تكون مختلفة فى اللون والشكل ومتشابهة فى الطعم .

ثم وجه الله بالنظر فى حالتيه حينما يثمر وحينما يينع وقد تغيرت الأوصاف فى الحالتين .

وإن فى ذلك كله لآيات لقوم يؤمنون بقدرة الله .

●★●

وحول إيراد حكم شرعى فيما يتعلق بالذبائح يقول الله :

(فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيهِ إِنْ كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤمنِين)(١) .

كان المضلون يحللون الحرام ويحرمون الحلال وكانوا يقولون للمسلمين : إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتله الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم فقال الله : إن كنتم متمسكين بالإيمان فكلوا مما ذكر اسم الله عليه وهو المذكى بيسم الله .

فلعل القوم كانوا يحرمون أكل المذكاة ويبيحون أكل الميتة فرد

---

(١) الأنعام .

الله عليهم ذلك وأمر بحل المذكاة بقوله : فكلوا مما ذكر اسم الله عليه وبتحريم الميتة بقوله : ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه .

●★●

وبين الله أنه أنزل القرآن ونهاه عن أن يكون فى صدره حرج منه وضيق لينذر به وهو ذكرى للمؤمنين قال الله :

(ألمص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)[1] .

فى تفسير ألمص : أقوال كثيرة وكذلك كل سورة بدئت بحروف المعجم قيل : هى اسم للسورة وقيل من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله .

وأصح الأقوال فى ذلك أن هذه هى الحروف التى تألف منها القرآن الذى عجز العرب وهم الفصحاء عن الإتيان بمثله .

(كتاب أنزل إليك) من عند الله فلا يكن فى صدرك حرج وضيق وشك وسمى الشك حرجا لأن الشاك ضيق الصدر بسبب شكه .

(لتنذر به) تقدير الكلام فلا يكن فى صدرك حرج وشك كى تنذر به ، فاشتغل بالإنذار والتذكير والتبليغ ولا تبال بأحد من أهل الزيغ والضلال وهو إلى جانب أنه كتاب إنذار فهو كتاب حق وذكر للمؤمنين

●★●

وأمر الله نبيه أن يسأل الناس : من ذا الذى حرم زينة الله التى أخرجها لعباده وأن يقول لهم : إنها للذين آمنوا فى الحياة الدنيا وهى خالصة لهم يوم القيامة فقال تعالى :

---

(١) الأعراف

(قُلْ من حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التى أخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ من الرِّزْقِ قل هىَ للذِينَ آمنُوا فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ) (١) .

المراد بالزينة فى الآية : اللباس الساتر أو يشمل جميع أنواع الزينة ولولا النص الوارد فى تحريم الذهب والفضة والحرير لدخل كل ذلك فى الزينة .

والاستفهام للإنكار فى قوله (من حرم زينة الله) ، (والطيبات من الرزق) : كل ما يستلذ ويشتهى ويدخل تحته التمتع بالنساء وبالطيب .

والزينة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا غير خالصة لهم لأن المشركين يشركونهم فيها وهى خالصة للذين آمنوا يوم القيامة فلا يشركهم فيها أحد .

●✱●

وبعد أن شرح الله أحوال أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف قال :

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (٢) .

والكتاب : هو القرآن (فصّلناه) أى ميزنا بعضه عن بعض يهدى إلى الحق ويؤمن الخبط وذلك التفسير حصل مع العلم التام بما فى كل فصل فصله وقد فصله الله هادياً وذا رحمة لقوم يؤمنون وقد جعله الله القرآن هدى، لأولئك الذين اهتدوا به دون غيرهم فهو الهدى الذى أخذ بأيدى المؤمنين إلى الحق وهو الرحمة التى الله خص الله بها من آمن به من خلقه .

●✱●

---

(١) الأعراف (٢) الأعراف

وبعد أن دعا موسى ربه أن يكتب له فى الدنيا حسنة وفى الآخرة لأنه ومن معه قد هاد ورجع إلى الله قال الله : عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة .

ثم قال : (وَالذينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) (١) .

(الذينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النبىَّ الْأُمِّىَّ الذى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ والْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأغلالَ التى كانَتْ عَلَيْهِمْ فالذينَ آمنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

بين الله أن من صفة من تكتب له الرحمة فى الدنيا والآخرة : التقوى وإيتاء الزكاة والإيمان، وقد ضم إلى ذلك أن يكون من صفته إتباع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل .

وقد وصف الله محمداً فى الآية بصفات :

أنه رسول . مكلف بالتبليغ ونبى رفيع القدر . أنه أمى وأن نعته وصحة نبوته مكتوب فى التوراة والإنجيل . وأنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . ويحل لهم الطيبات التى حكم الله بحلها . ويحرم عليهم الخبائث أى الميتة والدم . ويضع عنهم إصرهم (ثقلهم) والأغلال التى كانت عليهم .

فالذين آمنوا من اليهود وعزروه (وقروه) ونصروه على عدوه ،

---

(١) الأعراف

واتبعوا النور الذى أنزل معه وهو القرآن وقيل : الهدى والبيان والرسالة وقيل الحق .

أولئك هم (المفلحون) الفائزون بما طلبوا في الدنيا والآخرة .

وكأن الحكم بالفلاح لا يكون لليهود أو النصارى إلا لمن آمن منهم بمحمد ولمن وقره منهم ونصره على أعدائه واتبع النور الذى أنزل معه فإن لم يؤمن برسول الله ولم يعزره ولم ينصره ولم يتبع النور الذى أنزل معه فليس بفائز فى الدارين .

●✱●

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رسولُ اللهِ إليكُمْ جميعاً الذى لَهُ مُلْكُ السَّموات والأَرْضِ لاَ إِلَهَ [1] إلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فآمنُوا باللهِ ورَسُولِهِ النَّبِى الأُمِّى الَّذِى يُؤْمِنُ باللهِ وكَلِمَاتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعلَّكُمْ تَهْتَدُون) .

لقد أمر الله رسوله أن ينادى في الناس ليعلمهم أنه رسول إليهم والناس جميعاً ، وفى هذا دليل على أن رسالته عامة .

والكثير من العلماء على أن أحداً غيره لم يبعث إلى الخلق ويؤيد قولهم قوله عليه الصلاة والسلام : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : أرسلت إلى الأسود والأحمر الخ .

وقوله : الذى له ملك السموات والأرض وهما يدلان على الصانع الحى

---

(١) الأعراف

العالم القادر وبعثة الرسل تتجه إلى إثبات كل هذا وغيره مما يدل على قدرة الله ، وإثبات أن إله العالم واحد أشار بقوله : لا إله إلا هو .

وإثبات أنه قادر على البعث والقيامة أشار إليه بقوله : (يحيى ويميت) فالذى يحيى أولا قادر على أن يعيد الحياة ثانيا .

وبعد أن قدم كل هذا أمر الناس بالإيمان بالله وبرسول الله الموصوف بأنه آمن بالله، وبكلمات الله ثم أمرهم بعد الإيمان بالله ورسوله باتباع الرسول فى كل ما دعا إليه وجاء به رجاء أن تهتدوا إلى الخير والحق وإلى سبيل النجاة .

عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار .

●★●

وأمر الله رسوله أن يعلن للناس أنه بشر وأنه عبد الله وأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا :

وقصر مهمته على البشارة والإنذار لقوم يؤمنون فقال تعالى :

(قُلْ لا أملِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً ولا ضَرًّا إلاَّ ما شَاءَ اللهُ ، ولو كُنْتُ أعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ من الخَيْرِ وما مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إنْ أنَا إلاَّ نَذِيرٌ وبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمنون)[1] .

روى أن أهل مكة قالوا : يا محمد ألا يخبرك ربك بالرخص والغلاء

(١) الأعراف

حتى نشترى فنربح وبالأرض التى تجدب لنرحل إلى الأرض الخصبة فأنزل الله الآية .

ولما طالبوه بالإخبار عن الغيوب أمره الله أن يذكر لهم أنه عبد الله وأن قدرته قاصرة وأن صاحب العلم المحيط بكل شىء هو الله أما رسول الله فهو لايملك لنفسه من الضر والنفع إلاقدر ماشاء الله أن يقدره عليه وبرهن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عدم علمه بالغيب بأنه لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير فى أمور الدنيا والدين واحترز عن الشر حتى صار بحيث لا يمسه سوء ، ثم قال : إن أنا إلا نذير وبشير ، والنذير مبالغة فى الإنذار بالعقاب والبشير مبالغة فى البشارة بالثواب ،وخص بشارته وإنذاره للمؤمنين لأنهم هم المنتفعون بتلك البشارة وبما وراءها من الخير وبالإنذار وما وراءه من عقاب .

●★●

وأسرف الكفار فى طلب الآيات من رسول الله وكان جوابه إنى لا أصنع الآيات وإنما هى من عند الله ـ سبحانه ـ فقالوا لولا اجتبيتها أنت واخترتها ، فأمره الله أن يقول لهم : إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى يقول الله :

(وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلىّ من ربى ، هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (١) .

---

(١) الأعراف

كم طلبوا من آيات معينة ومعجزات مخصوصة من نحو قولهم : (أن تسقط السماء علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا (فلما قال لهم إن صانع الآيات هو الله قالوا هلا اختلقت لنا الآيات وارتجلتها وجئت بها من عند نفسك فأمره الله أن يقول لهم : إنما أتبع ما يوحى إلىّ من ربى .

ثم أشار إلى القرآن بألفاظ ثلاثة : أنه سبب لبصائر العقول وأنه هدى ورحمة للمؤمنين .

●★●

وحول قسمة الأنفال قال تعالى :

(يَسْأَلُونَكَ عنِ الأنْفَالِ قُلِ الأنْفَالُ للهِ والرَّسُولِ فاتَّقُوا اللهَ وأصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وأطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ إنْ كُنْتُمْ مؤمنين)(١)

لقد تبع فريق من المسلمين جيش الكفار المنهزم فى بدر ، وجمع فريق آخر الغنائم ، وأحدق فريق بالرسول لحمايته مخافة أن يصيب العدو غرة منه فيعتدى عليه .

فلما جمعت الغنائم اختلفوا حول قسمتها ولكل رأيه ودليل أحقيته فنزلت الآية لتجعل الغنائم لله ، وللرسول الحق فى التصرف فيها كما يرى ، وأمرهم الله بالتقوى وإصلاح ماوقع بينهم وإطاعة الله والرسول إن كانوا مؤمنين حقا .

والمراد بقوله : لله والرسول : أن حكمها يختص بالله والرسول فالله يأمره بقسمتها حسب ما تقتضيه الحكمة ومعنى اتقوا الله : اتقوا عقاب الله

---

(١) الأنفال .

على معصية الله واتركوا المنازعة والمخاصمة . والمراد بالإيمان فى قوله إن كنتم مؤمنين) هو الإيمان الذى دعا إليه الرسول ورغبهم فيه حيث لا يتم الإيمان إلا بالتزام طاعة الرسول والحذر من الخروج عليه .

وبين الله صفات المؤمنين الذين وعدهم بالدرجات والمغفرة والرزق الكريم فقال :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)[1] .

بين الله أن الإيمان لا يتحقق كما له إلا بتحقق ما نص الله عليه فى هذه الآية :

خوف المؤمنين من الله وأن يزداد إيمانهم إذا تليت عليهم آيات الله وأنهم يتوكلون على ربهم ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزق الله .

وقد قال الله تعالى عن المتصفين بهذه الأشياء أن أولئك هم المؤمنون حق الإيمان ولهم عند الله درجات ومغفرة ورزق كريم فى الجنة .

●★●

وبين الله إخراجه لنبيه على كره المؤمنين فى الخروج وجدالهم فى ذلك فقال :

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) الأنفال

لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِى الْحَقِّ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ) (٢) .

لما قال الله تعالى بعد بدر : قل الأنفال لله والرسول كان التقدير : أنهم رضوا بهذا الحكم فى الأنفال وإن كانوا كارهين كما أخرجك ربك من بيتك بالحق إلى القتال وإن كانوا كارهين .

قوله : من بيتك أى بيته فى المدينة أو المدينة نفسها وكان إخراجه متلبساً بالحق وكان ذلك فى حال كراهية فريق من المؤمنين .

وقد وعد الله الرسول عند الخروج إلى بدر الظفر بأحد اثنين : العير أو النفير فاستشار الرسول من معه : العير أحب إليكم أم النفير قالوا بل العير فتغير وجه الرسول وقال : إن العير قد مضت على ساحل البحر وعندما ظهر غضب الرسول قام سعد بن عبادة ، فقال يا رسول الله امض إلى ما أمرك الله به ثم قام المقداد فقال : يا رسول الله امض إلى ما أمرك الله فضحك الرسول وقال : سيروا على بركة الله والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم فكانت كراهية القتال حاصلة لبعضهم ، والحق الذى جادلوا فيه تلقى النفير مع أنهم آثروا العير وقوله (من بعد ماتبين) المراد منه : إعلام رسول الله لهم بأن الله سينصرهم (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) .

والكارهون للخروج هزتهم المخاوف كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون .

---

(١) الأنفال

وتحقيقا للنصر الذى يريده الله للمؤمنين أوحى الله إلى الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا فقال :

(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ[1] الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) .

إذ يوحى ربك) أى واذكر إذ يوحى ربك إلى الملائكة، أو إذ فى موضع النصب والتقدير : وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام حال ما يوحى إلى الملائكة بكذا .

والمراد أنه تعالى أوحى إلى الملائكة بأنه معهم أو أنه مع المؤمنين فانصروهم وثبتوهم واختلفوا فى التثبيت إلى وجوه :

١ — فقيل إنهم عرفوا الرسول أن الله ناصر المؤمنين والرسول عرف ذلك للمؤمنين .

٢ — أن الملائكة كانوا يتشبهون بصور رجال يعرفونهم فيمدونهم بالنصر .

وقد أمر الله الملائكة بتثبيت المؤمنين على النحو الذى بينا وتولى الله إلقاء الرعب فى قلوب الكفار .

● ★ ●

وبين الله أنه هو الذى قتل أعداء المسلمين فى المعارك وهو الذى رماهم وكان فى ذلك بلاء للمؤمنين فقال :

---

(١) الأنفال

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (١).

نزلت فى بدر حيث أخذ الرسول قبضة من الحصباء ورمى بها وجوه القوم وقال : شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا دخل عينيه ومنخريه منها شيء وكانت تلك الرمية سببا للهزيمة فنزلت الآية .

والمعنى أن قتل الكفار كان بتيسير الله ومعونته وتأييده وأن المؤمنين وإن كانوا جرحوا الكفار ولكن الله تولى إخراج أرواحهم من أبدانهم والتقدير : إنكم لم تميتوهم ولكن الله أماتهم وما رميتموهم ولكن الله هو الذى رماهم .

وقوله : (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) أى ينعم على المؤمنين بالنعم العظيمة والغنيمة والأجر والثواب فالمراد بالبلاء : الإنعام وقد يراد بالبلاء المحن وهى تكاليف الجهاد فنصر بدر كان سببا فى حصول تكاليف أخرى شاقة قام بها المسلمون فى غزواتهم لأعداء الله .

● ★ ●

روى أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم انصر أفضل الدينين وأحقه بالنصر .

فأنزل الله قوله :

(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

---

(١) الأنفال

وإنْ تَعُودُوا نَعُدْ ولَنْ تُغْنِيَ عنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وأنَّ اللهَ مَعَ المُؤْمِنِينْ) (١) .

والمعنى : إن تستنصروا لإحدى الفئتين فقد جاءكم النصر .

وقيل : الخطاب للمؤمنين وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام لما رأى المشركين وكثرة عددهم استغاث بالله واستغاث الصحابة ، وطلب ما وعد الله به من إحدى الطائفتين فأنزل الله (إن تستفتحوا) وتستنصروا فقد جاءكم ماطلبتم .

●★●

وبعد أن بين الله لرسوله أن الكفار إذا جنحوا ومالوا إلى السلم فاجنح لها ذكر مايتصل بالصلح وهو أنهم إذا صالحوا على سبيل المخادعة فاقبل الصلح لأن الحكم يبنى حينئذ على الظاهر أى أنهم إذا أرادوا بالمصالحة خداعك فإن حسبك الله أى فالله يكفيك وهو حسبك (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) نوعان من التأييد : الأول التأييد المباشر دون واسطة وهذا هو تأييد الله والثانى تأييد بواسطة وهو ما يحصل بالمؤمنين وشرح الله تأييده بالمؤمنين من حيث اجتماعهم على نصرته على الرغم مما كان بينهم من إحن وعداوات فى الجاهلية وأنه لو أنفق فى سبيل جمع قلوبهم كل مافى الأرض وما على الأرض فإنه ما كان يستطيع تأليف قلوبهم لشدة ما كان بينهم من الخصومات ذلك كله ماجاء فى قوله تعالى :

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ

---

(١) الأنفال

بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)[١] .

ونصر الله نبيه بالمؤمنين الذين ألف الله بين قلوبهم وجمعهم تحت راية: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فكانوا وحدة عملت عملها فى نصر الحق وإعلاء كلمة الحق .

ونادى الله نبيه ليخبره أن الله حسبه وكافيه وأن من اتبعه من المؤمنين يكفونه كذلك بإيمانهم وحبهم للجهاد فى سبيل الله كل شر ثم ناداه ليحرض المؤمنين على القتال فقال الله :

(يا أَيُّها النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يا أَيُّها النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)[٢] .

والمعنى : يكفيك الله فى القتال فهو ناصرك بلا واسطة ويكفيك كذلك من اتبعك من المؤمنين فهم ناصروك بأمر الله والله ناصرك بهم .

ثم ناداه مرة أخرى ليأمره بتحريض المؤمنين وحثهم على القتال حتى لاتفتر همتهم أو يتوانى عزمهم فعليك بين الحين والحين أن ترسل فيهم كلمات مثيرة ترغبهم فى مواصلة الجهاد فى سبيل الله .

● ✱ ●

وقسم الله المؤمنين فى زمن الرسول إلى أربعة أقسام وذكر حكم كل واحد منهم وذلك فى قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ

---

(١) الأنفال

الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير).

ثم قال بعد آية أخرى:

(والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم).

(والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم...)(١).

القسم الأول: المهاجرون الأولون:

هم الذين قدمهم الله بقوله: إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقد وصفهم بصفات:

أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقبلوا كل ما كلفهم به رسول الله وبلغه لهم.

وأنهم هاجروا وفارقوا أوطانهم وأقاربهم فى مرضاة الله.

وأنهم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله.

وأنهم كانوا أول الناس إقداما فسبقوا فى الإيمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال فهم السابقون الأولون.

القسم الثانى: هم الأنصار.

وأولئك هم الذين آووا رسول الله وصحبه ونصروه وبذلوا النفس والمال فى سبيل الله.

---

(١) الأنفال.

وحكم القسم الأول والثانى أن بعضهم أولياء بعض .

وقد قال ابن عباس : أن المراد هو الولاية فى الميراث .

وقد نسخ أمر الوراثة في آخر الآية بقوله وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله .

القسم الثالث : المؤمنون الذين لم يوافقوا الرسول فى الهجرة وبقوا فى مكة وهم الذين قال الله فيهم : والذين آمنوا ولم يهاجروا وبين الله حكمهم فيما يأتى :

١ — مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا؛ فقد نفى الله الولاية عليهم إلى أن يهاجروا فلو هاجروا عادت الولاية .

٢ — أنهم إن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر ، فليس المراد المقاطعة العامة وبهذا أمر الله بنصرهم وعدم خذلانهم .

٣ — أنهم لا ينصرون على قوم بينهم وبين المؤمنين ميثاق وعهد .

وبعد أن ذكر الله القسم الثالث عاد إلى ذكر الأول والثانى فقال :

(والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم) .

والإعادة تدل على مزيد الاهتمام بحالهم وبأنهم هم المؤمنون حق الإيمان وحكم الله لهم بالمغفرة التى نكرها للتعظيم وبالرزق الكريم والمراد به : الثواب العظيم .

القسم الرابع من أقسام المؤمنين : الذين لم يوافقوا الرسول فى الهجرة ولكنهم هاجروا بعد ، وهم الذين قال الله فيهم والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم .

واختلف فى تفسير قوله (من بعد) .

قال ابن عباس : بعد الحديبية وهى الهجرة الثانية وقيل بعد نزول الآية وقيل بعد بدر والأصح أنهم الذين هاجروا بعد الهجرة الأولى وهؤلاء هم التابعون بإحسان .

وقد انقطعت الهجرة بعد فتح مكة لأنها أصبحت بعد الفتح بلد الإسلام .

وقوله : (فأولئك منكم) يدل على أن مرتبتهم دون مرتبة المهاجرين السابقين فهم من المؤمنين وإن كانوا لم يبلغوا فى المرتبة القسمين الأول والثانى .

● * ●

قال الله تعالى : قاتلوا أئمة الكفر ثم أردف ذلك بذكر سبب قتالهم والباعث عليه فقال :

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)[1] .

قال ابن عباس والسدى والكلبى نزلت فى كفار مكة نكثوا أيمانهم بعد عهد الحديبية وأعانوا بنى بكر على خزاعة وهذه الآية تدل على أن قتال الناكثين أولى من قتال غيرهم من الكفار ومن موجبات القتال :

---

(١) التوبة

أنهم هموا بإخراج الرسول من مكة أو إخراجه إلى القتال حين نقضوا العهد وأنهم هم الذين بدأوه بالقتال فى بدر لأنه حين سلمت العير قالوا لا ننصرف حتى نستأصل محمدا وأصحابه .

(أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه) أى إن كنت تخشى أحدا فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) ومعناه إن كنتم مؤمنين بالإيمان وجب عليكم أن تقدموا على قتالهم ، والمفهوم أنكم إذا لم تقدموا على قتالهم فلستم مؤمنين .

ثم ذكر بعد ذلك أشياء موجبة بقتالهم منها .

أن الله يعذبهم بأيدى المؤمنين ويخزى الكفار وينزل بهم الذل والهوان حين يقهرون على أيدى المؤمنين وينصركم عليهم ويشفى بذلك صدور المؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم .

● ✱ ●

وزيادة فى الترغيب فى الجهاد فى سبيل الله قال الله تعالى :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً)(١) .

والمعنى : إنكم لا تتركون على ما أنتم عليه حتى يتبين الخلص منكم وهم الذين جاهدوا فى سبيل الله ولم يتخذوا وليجة أى بطانة من الذين يضادون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين (ولما) معناها التوقع .

والمقصود أن المجاهد قد يجاهد ولا يكون مخلصا بل يكون منافقا باطنه خلاف ظاهره .

---

(١) التوبة

وقال ابن عباس : إن الله لايرضى أن يكون الباطن خلاف الظاهر وإنما يريد من خلقه الاستقامة .

●★●

وحول عمارة المساجد قال الله تعالى :

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)(١) .

والعمارة : تتناول ترميم مابلى منها وتنظيفها وتنويرها وتعظيمها واعتيادها للعبادة والذكر والدرس وصيانتها من أحاديث الناس .

وقد روى حول ذلك الكثير من الأحاديث :

عن النبى صلى الله عليه وسلم : يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقا ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لاتجالسوهم فليس لله بهم حاجة .

وقال عليه الصلاة والسلام قال الله تعالى : إن بيوتى فى أرضى المساجد وإن زوارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى فحق على المزور أن يكرم زائره .

●★●

وبين الله أنه لايسوى عنده من يسقى الحاج ويعمر المسجد الحرام ولم يكن مؤمنا بمن يؤمن بالله واليوم الآخر ويجاهد فى سبيل الله فقال الله تعالى

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ)(٢) .

---

(١) التوبة (٢) التوبة

قالوا : تجار العباس وعلى نقال العباس : إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد فلقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج فنزلت .

وعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج وإن كان لهما شأنهما إلا أن الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد فى سبيله أفضل بكثير منهما ولا يستوي عند الله فريق عمار المساجد ومن يسقون الحاج مع المؤمنين بالله واليوم الآخر المجاهدين فى سبيل الله .

●★●

ولما بين الله ترجيح الإيمان والجهاد على السقاية وعمارة المسجد الحرام أتبع ذلك بذكر الترجيح تصريحا فقال :

(الذينَ آمنوا وَهاَجرُوا وجاَهدُوا فى سبيلِ اللهِ بأَموَالِهم وأنفسهم أعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وأولئِكَ همُ الفائِزُونَ * يُبَشِّرُهم رَبُّهُمْ برَحمَةٍ منهُ ورِضْوَانٍ وجَنَّاتٍ لَهُمْ فيهاَ نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فيها أبدًا إنَّ اللهَ عِنْدَهُ أجرٌ عظيم) (١) .

إن من اتصف بالصفات التى قدمتها الآية أعظم درجة عند الله من عمار المسجد وسقاة الحاج وتلك الصفات هى :

الإيمان ، الهجرة ، الجهاد فى سبيل الله بالمال ، والجهاد بالنفس .

أي أولئك أعظم درجة من كل من لم يوصف بهذه الصفات ثم بين أنهم هم الفائزون وأن الله يبشرهم ببشارات : بالرحمة ونكرها للتعظيم وبالرضوان ورضوان الله أكبر من كل شىء وبجنات لهم فيها نعيم مقيم ،

---

(١) التوبة

وأكد الإقامة بالخلود الأبدى فيها ، وأن الله عنده أجر عظيم لأولئك المؤمنين المهاجرين المجاهدين بالنفس والمال .

●✶●

وبين الله اغترار المسلمين وإعجابهم بكثرتهم يوم حنين فقال :

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً[1] وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) .

لما أتم الله على المسلمين فتح مكة توجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حنين لقتال هوازن وثقيف .

قال البراء بن عازب : كانت هوازن رماة فلما حملنا عليهم انكشفوا وأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانكشف المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يبق معه إلا العباس وأبو سفيان بن الحارث ثم قال للعباس : ناد المهاجرين والأنصار ، وكان العباس جهير الصوت فجعل ينادى: ياعباد الله ياأصحاب الشجرة ، ياأصحاب سورة البقرة فعاد المسلمون وأخذ الرسول بقبضة من الحصى فرمى بها وقال : شاهت الوجوه ثم أنزل الله سكينته على رسول الله وعلى المؤمنين فثبتوا وسكنوا وأنزل الله ملائكة قاتلوا مع المؤمنين وعذب الذين كفروا بقتلهم وأسرهم وأخذ أموالهم وسبى ذراريهم .

---

(١) التوبة

وذلك جزاء الكافرين فى الدنيا أما جزاء من كفر فى الآخرة فهو جهنم وبئس المصير .

★●★

ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتجهز لغزو الروم فى تبوك قال المنافقون : لاتنفروا فى الحر ، ولما أذن للبعض بالتخلف قال الله (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين الصادق من الكاذب ، ثم بين الله أنه لا يستأذن من آمن بالله واليوم الآخر فقال :

(لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالمُتَّقِينْ)[1] .

هذه الآية وما قبلها كانت فى غزوة تبوك والمعنى : لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر فى أن يجاهدوا ، وليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك فى أن يجاهدوا ، وكان كبار المهاجرين والأنصار يقولون :

لا نستأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى الجهاد فإن ربنا ندبنا إليه مرة بعد أخرى فما الفائدة فى الاستئذان .

وبهذا دلت الآية على أن المؤمنين بالله واليوم الآخر لم يستأذنوا فى الجهـــاد لأنهم يخافون حساب الله إذا تخلفوا عن رسول الله والله عليم بالمتقين منهم .

●★●

بعد أن بين الله خبث بواطن المنافقين فى قوله : إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا قال الله :

---

(١) التوبة

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَولاَنَا وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ)(١) .

والمعنى : إنه لن يصيبنا خير ولا شر إلا ماهو مقدور علينا مكتوب عند الله وكونه مكتوبا عند الله يدل على كونه معلوما عنده مقضيا به فلن يصيبنا فى عاقبة أمرنا من الظفر بالعدو إلا ما كتب الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

معناه : أن الواجب ألا يتوكل المؤمن إلا عليه وأن يقطع طمعه إلا من فضله ورحمته .

●★●

وذم المنافقون رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه أذن يسمع ويتأثروأنه من أهل سلامة القلوب والعزة فقال الله تعالى يحكى ذلك ويبين طبيعة الرسول فقال :

(ومِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النبيَّ ويَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ باللهِ ويُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ورَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ والَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(٢) .

(الأُذُن) الرجل الذى يصدق كل مايسمع ، ويقبل قول كل أحد وسمى بالجارحة لأنها آلة السماع ، وإيذاؤهم له قولهم : هو أذن ، ورد الله عليهم فسلم بأنه أذن ولكن (هو أذن خير) أى هو أذن خير ورحمة ثم وضح أنه أذن خير بقوله يؤمن بالله أى يصدق بالله لما قام عنده ، ويقبل من المؤمنين

(١) التوبة (٢) التوبة

المخلص من المهاجرين والأنصار ، وهو رحمة لمن آمن منكم أيها المنافقون فهو خير لكم لأنه يقبل معاذيركم ولا يكافئكم على سوء طويتكم .

والذين يؤذون رسول الله بقولهم أو فعلهم لهم عذاب أليم .

●★●

وذكر الله صفات المؤمنين من الخير والبر وما أعد لهم فقال :

(والمؤمِنُونَ والمؤْمناتُ بَعْضُهُمْ أوْلياءُ بعضٍ يَأمُرُونَ بالمعرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكرِ ويُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤتونَ الزَّكاةَ ويُطِيعُونَ اللهَ ورسُولَهُ أولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إنَّ اللهَ عزيزٌ حَكِيم .

وَعَدَ اللهُ المؤمنِينَ والمؤْمناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فيهَا ومَسَاكِنَ طَيِّبَةً فى جَنَّاتِ عَدْنٍ ورِضْوانٌ مِنَ اللهِ أكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمْ) (١) .

وصف الله المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض وكذلك المؤمنات ثم فسر وشرح ذلك بأمور خمسة أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويطيعون الله ورسوله ثم وعدهم بالثواب على ذلك بقوله : أولئك الذين اتصفوا بتلك الصفات سيرحمهم الله وهو العزيز الذى لايمنع مانع من إرادته فى الرحمة أو العقاب وهو الحكيم الذى يدبر أمر عباده كما يقتضيه عدله .

ولما ذكر الله الوعد إجمالا في قوله : (سيرحمهم الله) عاد ففصل الوعد بأنها جنات تجرى من تحتها الأنهار وأنهم خالدون فيها لايخرجون منها وبمساكن

---

(١) التوبة

طيبة فى جنات عدن وعدن اسم لموضع فى الجنة ، أو هى صفة للجنة وأضاف إلى ذلك وعداً آخر وهو رضوان الله ، ورضوان الله أكبر من كل شىء ، وبعد أن وصل بهم إلى تلك السعادات قال : ذلك هو الفوز العظيم الذى فاز به المؤمنون والمؤمنات وأى فوز بعد كل ذلك وبخاصة الفوز برضوان الله

●★●

وعاب المنافقون المتطوعين بالصدقات من المؤمنين فحكى الله ذلك فى قوله :

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[٢] .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وحث على الصدقات فجاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ـ وجاء عاصم بن عدى الأنصارى بسبعين وسقا من تمر وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال المنافقون على وجه الطعن : ما جاءوا بصدقاتهم إلا رياء وسمعة وأما أبو عقيل فجاء بصاعه ليذكر مع سائر الأكابر والله غنى عن صاعه فأنزل الله الآية (واللمز) العيب وقد عاب المنافقون المتصدقين : الغني والفقير وسخروا منهم جميعا لهذا وقد سخر الله من المنافقين بما قالوا ولهم عذاب أليم فى الاخرة .

●★●

ولما بين الله حال المنافقين فى الفرار عن الجهاد بين حال الرسول والذين آمنوا فقال :

---

(١) التوبة

(لَـٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[1] .

بين الله حال الرسول والمؤمنين ليقابل بينها وبين حال المنافقين المتخلفين الفارين فحال الرسول والمؤمنين أنهم بذلوا المال والنفس فى مرضاة الله وإعلاء كلمته فإذا كان المنافقون قد تخلفوا عن الغزو فقد قام به وتوجه إليه من هم خير منهم وأخلص نية واعتقادا ، وقد حكم الله للرسول والمؤمنين بأن لهم الخيرات وبأنهم المفلحون الذين تخلصوا بما عملوا من عقاب الله وعذابه ، وهذا فلاح عظيم ولم يكتف الله بوعدهم بالخيرات والفلاح بل أضاف إلى ذلك أنه أعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار وذلك فوز عظيم إلى جانب ما فازوا به .

●★●

وبعد أن بين الله أن من الأعراب من يتخذ إنفاقه في سبيل الله مغرما بين أن منهم من يتخذ ما ينفق فى سبيل الله قربى إلى الله فقال فى حق هؤلاء :

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[2] .

لقد وصف الله هذا الفريق من الأعراب بوصفين :

---

(١) التوبة (٢) التوبة

الأول : كونه مؤمنا بالله واليوم الآخر .

الثانى : كونه يتخذ ماينفقه قربات عند الله وصلوات الرسول .

والقربات : ما يتقرب بها إلى الله وصلوات الرسول : دعاء لهم بالخير والبركة .

وقد شهد الله لهم بصحة ما اعتقدوا من أنها قربات فقال : ألا إنها قربة لهم .

وأضيف إلى هذه الشهادة وعده المؤكد بأنه سيدخلهم فى رحمته والله غفور لسيئاتهم رحيم بهم .

وهذا هو القسم الممدوح من الأعراب .

● ★ ●

وأمر الله نبيه أن يأمر المؤمنين بالعمل لأن الله سيرى عملهم وسيرى الرسول والمؤمنون كذلك وسيرجعون إلى الله يوم القيامة فينبئهم بما كانوا يعملون فقال :

(وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(٢) .

وقد جمعت هذه الآية بين الترغيب والترهيب فقوله : (اعملوا فسيرى الله عملكم) ترغيب للمطيعين حين يعلمون أن الله ينظر إلى أعمالهم ورسول الله كذلك والمؤمنون .

---

(١) التوبة

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لو أن رجلا عمل عملا فى صخرة لا باب لها ولا كوة لخرج عمله إلى الناس كائنا ما كان .

وفى الآية كذلك ترهيب المؤمنين العصاة حين يعلمون أن مردهم إلى الله الذى لا يخفى عليه شىء مما يختص فى النفوس من خواطر فهو لا يغيب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

● ★ ●

وحول مسجد ضرار الذى بنى لتفريق المؤمنين وقد أعد ليجتمع فيه أولئك الذين يحاربون الله ورسوله من المنافقين يقول الله تعالى :

(والَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وكُفْراً وتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى واللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ)[1] .

روى أن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء صلى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فحسدتهم إخوتهم بنو غنم بن عوف وقالوا نبنى مسجدا ونطلب الرسول للصلاة فيه، ويصلى فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام وهو الذى سماه الرسول : الفاسق .

ولما بنى بنو غنم المسجد إلى جانب قباء قالوا للرسول : بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة، ونحن نحب أن تصلى فيه فقال : إنى على جناح السفر وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فلما رجع من تبوك سألوه أن يأتى المسجد فنزلت الآية وأمر الرسول بإحراق المسجد فأحرق .

---

(١) التوبة

وسمى (ضرارا) لأنه مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء وتقوية للنفاق (وتفريقا للمؤمنين) .

وقد نهى الله رسوله عن القيام فيه بقوله : (لا تقم فيه أبداً) فالمسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم هو أحق المساجد بالقيام فيه وهو قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين) .

●✱●

وقد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة وقطع بذلك عهدا على نفسه فى كتبه السماوية جزاءاً لمن قاتل وقتل فى سبيل الله ومن أوفى بعهده من الله فقال :

(إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمِ)

لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة وكانوا سبعين نفسا قال عبد الله بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ماشئت فقال الرسول : أشترط لربى أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا ، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا ؟ قال : الجنة ، قالوا ربح البيع لانقيل ولانستقيل فنزلت الآية : (إن الله اشترى الخ) .

ثم قدم أوصافا للمؤمنين ختمها بتقديم البشارة لهم فقال :

---

(١) التوبة

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ[1] بِالْمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينْ) .

هذه أوصاف تسعة للمؤمنين الذين اشترى الله منهم أموالهم وأنفسهم بالجنة .

التائبون : من الشرك أو من الشرك والنفاق ، العابدون : الذين يرون عبادة الله واجبة ، الحامدون : وهم الذين يقومون بشكر الله على نعمه .

والسائحون وهم الصائمون والراكعون والساجدون أى من يقيمون الصلاة ، والآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله فى العبادات والمعاملات .

وعقب ذلك كله قال وبشر المؤمنين وقد تناولت البشارة المؤمنين الذين اتصفوا بتلك الصفات وهى بشارة بذلك البيع المقبول والربح الممنوح .

●★●

ونهى الله نبيه والمؤمنين عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا من أقربائهم من بعد ما ظهر لهم أنهم من أصحاب الجحيم فقال :

(ما كَانَ لِلنبِيِّ وَالَّذِينَ آمنوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمْ)[1] .

قيل عن سعيد بن المسيب عن أبيه : لما حضرت أبا طالب الوفاة قال له الرسول : عليه الصلاة والسلام : ياعم قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : أترغب عن ملة عبدالمطلب فقال :

---

(١) التوبة

أنا على ملة عبد المطلب أبداً فقال عليه الصلاة والسلام لأستغفرن لك مالم أنـه عنك فنزلت .

وقوله تعالى : ما كان للنبى الخ يحتمل : ما ينبغى للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا ، ويحتمل النهى والمعنى : لاتستغفروا للمشركين ولو كان من الأقرباء بعد أن ظهر لهم أنهم أصحاب الجحيم بسبب شركهم .

●★●

وحول تنظيم المسلمين فى الخروج إلى الحرب والبقاء مع الرسول قال الله تعالى :

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ (١) لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) .

والمعنى إنه لايجوز أن ينفر المؤمنون جميعا إلى الجهاد بل يجب أن يصيروا طائفتين فتبقى طائفة فى خدمة الرسول وللتفقه وتخرج أخرى للجهاد .

(ولولا) بمعنى هلا وظاهر الآية يدل على أن التفقه صفة للطائفة النافرة فكأنها هى التى تتفقه فى الدين لأنهم يشاهدون ظهور المسلمين على المشركين وأن العدد القليل منهم يغلب الكثير من المشركين لأن الله تعالى خصهم بالنصر والتأييد .

وقيل إن الآية لاتتعلق بالجهاد وإنما المراد الخروج والسفر إلى حضرة رسول الله ليتفقهوا في الدين ويعرفوا الحلال والحرام ثم يعودوا إلى أوطانهم

---

(١) التوبة

لينذروهم ويحذروهم ويفقهوهم وعلى هذا يكون طلب العلم ليس واجبا على الجميع الخروج لطلبه .

●★●

وكثيرا ما حاول المنافقون الاستهزاء بالمسلمين والسخرية منهم وقد حكى الله بعض مواقفهم فى قوله تعالى :

وإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)(١) .

إذا ما أنزلت سورة من القرآن راح المنافقون يسخرون من المؤمنين فيقول بعضهم لبعض أو يقول بعضهم لبعض المؤمنين : أيكم زادته هذه السورة إيمانا » وكأنهم ينكرون عليهم التأثر بما ينزل من السور وكأنها لاتعمل عملها فى إيمانهم فتزيده فهم ينكرون زيادة الإيمان بزيادة السور وقد أجاب الله بما حصل للمؤمنين بسبب نزول كل سورة فقال : فأما الذين آمنوا فقد حصل لهم أمران :

الأول : أنها تزيدهم إيمانا لأنها أزيد لليقين والثبات أو فزادتهم عملا فإن زيادة العمل زيادة فى الإيمان فهم عند نزول السورة يقرون بها ويعترفون أنها حق من عند الله

الثانى : مايحصل لهم من الاستبشار بثواب الآخرة أو بالنصر والظفر فى الدنيا أو الفرح والسرور بما تحمل السورة من وعد الله للمؤمنين .

●★●

---

(١) التوبة

وقدم الله صفات للرسول فى قوله :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (١) .

بين الله أنه لم يرسل رسوله ملكاً مثلا بل هو (من أنفسكم) أى بشر مثلكم (فمن أنفسكم الصفة الأولى . والثانية : عزيز عليه ماعنتم) والعنت الشدة والمشقة أى يشق عليه مكروهكم .

والصفة الثالثة : حريص عليكم) أى حريص على إيصال الخيرات إليكم في الدنيا والآخرة .

والصفة الرابعة والخامسة : رءوف رحيم وقد وصفه الله باسمين من أسمائه وقوله بالمؤمنين رءوف رحيم يفيد الحصر بمعنى أنه لارأفة ولا رحمة له إلا بالمؤمنين .

●★●

وقد أنكر الله على كفار قريش تعجبهم أن يجيئهم منذر منهم ومبشر للمؤمنين فقال :

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) (٢) .

لقد تعجبوا من أن يجعل الله بشرا رسولا ، وتعجبوا من تخصيص محمد عليه الصلاة والسلام بالوحى والنبوة وهو اليتيم والفقير .

ثم بين الله بالتفصيل المهمة التى أوصى بها إلى رسوله وهى الإنذار والتبشير :

---

(١) يونس (٢) يونس

أما الإنذار فللكفار والعصاة ليرتدعوا عن فعل مالاينبغى ، وأما التبشير فلأهل الطاعة لتقوى رغباتهم فيها والقدم : السابقة) أى أن لهم سابقة صدق عند الله وهى الثواب أو الشفاعة .

●★●

ونادى الله الناس ليوجههم إلى مافى القرآن من عظات وأن الله جعله شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين فقال :

(يا أيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) (١) .

وقد وصف الله القرآن فى هذه الآية بصفات :

كونه موعظة من عند الله للناس ، وكونه شفاء لما فى الصدور مما يلم بها من العقائد الفاسدة وكونه هدى وكونه رحمة للمؤمنين فالقرآن زاجر وشاف لما فى الصدور وهدى ورحمة لمن آمن .

●★●

ثم بين الله أن المؤمنين المتقين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة فقال :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) (٢) .

وقد بين الله في الآية السابقة أن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ثم وصفهم بأنهم المؤمنون بالله واليوم الآخر وكتب الله ورسله وبأنهم كانوا

---

(١) يونس (٢) يونس

يتقونه فى أعمالهم ويخافون سؤاله وحسابه ، وعن عمر رضى الله عنه : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : إن من عباد الله عبادا ماهم بأنبياء ولاشهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله ، قالوا يارسول الله أخبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال : هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور لايخافون إذا خاف الناس ولايحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ الآية .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : البشرى : هى الرؤيا الصالحة .

وعن عطاء : لهم البشرى عندالموت تأتيهم الملائكة بالرحمة وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة .

●✱●

وبعد أن توعد الله الكفار أمر رسوله أن يقول لهم : انتظروا بأس الله وعذابه وأخبره بأنه قضى بنجاة رسله والمؤمنين من العذاب فقال :

(قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ)(١) .

أمر الله رسوله أن يوافق الكفار فى انتظار العذاب الذى سيحيق بهم أما الرسول وأتباعه فهم أهل النجاة وحق على الله نجاة المؤمنين من العذاب

●★●

ثم أمر الله رسوله أن ينادى فى الناس : إذا كنتم تشكون فى دينى فلا

---

(١) يونس

أعبد ماتعبدون ولـكنى أعبد الله الذى يتوفاكم وقد أمرنى أن أكون من المؤمنين فقال تعالى :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)(١) .

لقد أمر الله نبيه أن ينادى فى الناس فى أهل مـكة وغيرهم (إن كنتم فى شك من دينى) وصحته وسداده فهذا دينى فاسمعوا وصفه واعرضوه على عقولـكم لتعلموا أنه دين لايداخله شك ، وأنى لا أعبد الآلهة التى تنحتونها من الحجارة (ولـكن أعبد الله الذى يتوفاكم) وقد وصف بالتوفى ليريهم أن وفاتهم بيده وأنه الخليق بأن يخشى ويخاف منه والخليق بأن يعبد وقد أمرنى الله أن أكون من المؤمنين به وإنى لاأعبد ماتعبدون من دون الله.

●★●

وحول الإيمان بالقرآن يقول الله تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْـلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَـكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)(٢) .

تقدير الاية : أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم فى الاخرة إلا النار

---

(١) يونس (٢) هود

ومن كان على بينة من ربه قيل : محمد صلى الله عليه وسلم أو من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام أو هم المؤمنون من أصحاب الرسول .

والبينة : هو القرآن ويتلوه يقرأه والشاهد : جبريل أو محمد أو القرآن

ثم وصف كتاب موسى وهو التوراة بأنه إمام ورحمة فهو إمام يقتدى به قبل التحريف ويرجع إليه فى معرفة الدين والشرائع قبل نزول القرآن وأما كونه رحمة فلأنه يهدى إلى الحـــق فى الدنيا والدين وذلك سبب لحصول الرحمة .

(أولئك يؤمنون به) أى الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم فى صحة هذا الدين الجديد يؤمنون به ومن يـكفر به (من الأحزاب) والطوائف فالنار موعده ثم نهى الله نبيه عن الشك فيه بقوله : فلا تك فى مرية منه) أى لاتشك فيه فى صحة الدين ولا فى القرآن ، وأنه نازل من عندالله (ولـكن أكثر الناس لا يؤمنون) بما تقدم ذكره من وصف القرآن.

وإن فى القصص القرآنى مواعظ وذكرى للمؤمنين يقول الله تعالى لنبيه :

(وكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِن أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)[1] .

فى الآية مايدل على فائدتين من ذكر القصص فى هذه السورة وغيرها

الأولى : تثبيت فؤاد الرسول على أداء الرسالة فى صبر واحتمال لما قد يعانيه .

---

(١) هود

الثانية : أنه جاءه فيها الحق والموعظة والذكرى للمؤمنين .

●★●

وقد جعل الله فى القصص القرآنى عبرة وليس قصص القرآن أحاديث مفتراة ولكنه يصدق الذى سبق من الكتب ويفصل كل شىء وفيه الهدى والرحمة للمؤمنين قال الله :

(لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[٢] .

لقد كان فيما قصه الله فى القرآن من مواقف أقوام النبيين منهم وإنجاء من آمن بهم وإهلاك من كفر عبرة لأصحاب العقول البصيرة ،وما كان هذا القرآن حديثا يفترى ويختلق على اللهولكنه يصدق مابين يديه من الكتب وينقيها مما وقع فيها من التحريف بحيث لاتضم من التحريف والتبديل مايسىء إلى شريعة الله ودعوة الحق (وتفصيل كل شىء) من تحليل أو تحريم وأمر بالطاعات ونهى عن المحرمات والذي يفصل كل شىء هو القرآن كله، وهو هدى فى الدنيا وسبب لحصول الرحمة فى الآخرة لقوم يؤمنون ، وخصهم الله بهذا لأنهم هم المنتفعون بالقرآن .

● ★ ●

وقد طلب الكفار من الرسول آية تنزل عليه من ربه وطالما طلبوا ذلك وأسرفوا .

---

(١) يوسف

فأمر الله نبيه أن يقول لهم : إن الله يضل من يشاء وقابل إضلاله لمن يشاء بقوله :

(وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ الَّذِين آمنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب)[1] .

إن الله يهدى إليه وإلى سبيله من أناب ورجع إليه فالمنيبون الراجعون اليه هم المؤمنون الذين تطمئن قلوبهم وتسكن بذكر الله إذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة فبذكر الله تطمئن قلوبهم بعد القلق أو تطمئن بذكر الدلائل على وحدانيته .

● ★ ●

واشتط الكفار كذلك فى طلب الآيات فقال الله :

(ولَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أو كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ[2] الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِين آمنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً) .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل يوما على الكفار يدعوهم إلى الإسلام ، فقال له عبد الله بن أمية المخزومى : سَيِّرلنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا ، واجعل لنا فيها أنهارا نزرع فيها ، فنزل قوله تعالى : ولو أن قرآنا وجواب لو محذوف قدره البعض لكان هو هذا القرآن : أى لو أن قرآنا عملت آياته فى تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإنطاق الموتى لكان هو هذا القرآن .

---

(١) الرعد (٢) الرعد

أو المحذوف : لما آمنوا ، والتقدير: لو أن قرآنا تسير به الجبال أو تقطع به الأرض كان لما آمن هؤلاء الكفار بهذا القرآن الذى يفعل ذلك (بل لله الأمر جميعا) إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل وليس لأحد أن يتحكم فيه فى أفعاله وأحكامه (أفلم ييأس الذين آمنوا) اليأس : العلم والتقدير :

أفلم يعلم الذين آمنوا أنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولكن حكمته اقتضت عدم هداية الناس جميعا .

وقد يكون اليأس على معناه ضد الرجاء والمعنى : أو ييئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء لأن الله لو شاء لهدى الناس جميعا .

●✱●

وأخبر الله أنه هو الذى يثبت الذين آمنوا فى الحياة الدنيا وفي الآخرة فقال :

(يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفى الآخِرَةِ)[1] .

والمراد بالقول الثابت الذى يثبت الله به المؤمنين القول الذى ثبت بالحجة والبرهان فى قلب المؤمن وتمكن فيه فاطمأنت إليه نفسه وتثبيتهم به فى الدنيا أنهم إذا فتنوا فى دينهم لم يسقطوا كثبات أصحاب الأخدود ، والذين نشروا بالمناشير وقطعت لحومهم فلم يفتنهم ذلك، وتثبيتهم فى الآخرة أنهم إذا سئلوا عن معتقدهم لم يتلثموا وقيل معناه : الثابت عند سؤال القبر .

●★●

وأمر الله نبيه أن يقول لعباده المؤمنين : أقيموا الصلاة وأنفقوا مما رزقكم الله من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال فقال تعالى :

---

(١) إبراهيم

(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)[١] .

أمر الله نبيه أن يقول لعباد الله : يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقهم الله وقوله : يقيموا وينفقوا على تقدير أن كلا منهما جواب لأمر محذوف تقديره أقيموا الصلاة يقيموها أو أن كلا منهما مجزوم بلام أمر محذوفة والتقدير ليقيموا الصلاة ، (سرا وعلانية) على الحالية أى مسرين ومعلنين والمراد إخفاء الإنفاق المتطوع وإظهار الإنفاق الواجب .

من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلال ، والخلال : المخالة والمصادقة إنما هو يوم لابيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة .

●✱●

ونهى الله نبيه عن التطلع إلى متاع الدنيا الذى متع به الكفار لأنه متاع زائل وأمره أن يخفض جناحه للمؤمنين فقال تعالى :

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)[٢] .

يقول الله لنبيه لا تطمح ببصرك طموح راغب أو متمن إلى ما متعنا به أزواجا منهم : أصنافا من الكفار فإنه متاع إلى زوال وليس من الدين أن يفتن الإنسان بذلك المتاع حتى لا تشغله الفتنة به عن ربه ولقد آتاك الله نعمة القرآن العظيم فكل نعمة إلى جانب نعمة القرآن حقيرة .

وقد روى أنه جاءت قوافل سبع ليهود بنى قريظة والنضير فيها الحرير

---

(١) إبراهيم (٢) الحجر

والطيب والجوهر فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها ولأنفقناها فى سبيل الله فقال الله : (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) فأى نعمة أعظم من السبع المثانى ، ثم نهى الله نبيه عن الحزن على ما أعطى الكفار أو عن تمنى أموالهم .

ثم أمره الله أن يخفض جناحه للمؤمنين فيتواضع لمن معه من الفقراء وأن يطيب نفسا بإيمان الأغنياء وأن يلين جانبه للمؤمنين بعامة .

● ★ ●

وبين الله مهمة الكتاب الذى أنزله على رسوله فقال تعالى :

(وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[1] .

أى أن الله لم ينزل القرآن على نبيه إلا ليبين الرسول بواسطته للناس ما اختلفوا فيه ، والمختلفون : هم أهل الملل والنحل ، وما اختلفوا فيه هو هو الدين كالتوحيد والشرك وإثبات المعاد ونفيه وتحريم وتحليل أشياء أخرى

وقد وصف القرآن بأنه هدى إلى النور وأنه رحمة يرحم به الله من استمسك بالعروة الوثقى فهو هدى ورحمة لقوم يؤمنون لأنهم ينتفعون بما جاء فيه .

● ★ ●

وكم قدم الله فى القرآن من آيات تدل على كمال قدرته وحكمته وتدبيره قال تعالى :

---

(١) النحل

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [1].

فقد خلق الله الطير خلقة تمكنه من الطيران ، وخلق الجو خلقة يمكن الطيران فيه فأعطى الطير جناحا يبسطه ويثنيه كما يعمل السابح فى الماء وخلق الهواء رقيقا يسهل النفاذ فيه وجسد الطير ثقيل والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه فى الجو معلقا ومن ذا الذى يمسكه فى هذا الجو إلا الله إن صنعه سبحانه آيات للمؤمنين الذين يتبصرون وينتفعون ببصرهم وبصيرتهم فى إدراك قدرة الله والإيمان بها .

●★●

وأمر الله بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن لأن الشيطان ليس له سلطان على المؤمنين الذين يتوكلون على ربهم فقال الله :

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ [2] عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

الأكثر من علماء الصحابة على أن الاستعاذة مقدمة على القراءة أى : إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله .

والشيطان لاقدرة له إلا على الوسوسة ولا يمكن التحفظ منها إلا بعصمة الله ، والشيطان لاسلطان له على المؤمنين المتوكلين على الله الذين يستعيذون بالله منه كلما نزغه نوغ من الشيطان ، واستعاذة المؤمن ملجأ له من الشيطان

●★●

---

(١) النحل (٢) النحل

وطالما رمى الكفار رسول الله باختلاق القرآن وأنه يفترى بذلك على الله ، ولذلك أمر الله رسوله أن يقول :

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) .

أمر الله نبيه أن يقول للكفار الذين يتهمونه باختلاق القرآن إنه : نزله روح القدس وهو جبريل عليه السلام والقدس : الطهر أى الروح المقدس المطهر أنزله (من ربك) (ليثبت الذين آمنوا) أى ليبلوهم بالنسخ فإذا قالوا : هو الحق من ربنا حكم لهم بثبات القدم فى الدين وصحة اليقين وإن الله الحكيم لا يفعل إلا ما هو حكمة وهدى وبشرى للمسلمين .

●★●

وقابل الله بين من يريد العاجلة وبين من يريد الآخرة فقال فيمن يريد الآخرة :

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً)(١) .

شرط الله فيمن شكر الله سعيه شروطا : أن يريد ثواب الآخرة ويدأب فى السعى للعمل لها مع إيمانه .

أولئك الذين يؤدون هذه الشروط يكون سعيهم إلى الفوز بالثواب مشكورا

●★●

(١) النحل (٢) الإسراء

وأخبر الله أن القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين فقال :

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)(١) .

والمعنى : وننزل من هذا الجنس الذى هو قرآن ماهو شفاء فجميع القرآن شفاء للمؤمنين : شفاء من الأمراض الروحانية كالإعتقادات الباطلة وشفاء من الأمراض الجسمانية لأن التبرك به يدفع الكثير من الأمراض .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : من لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له .

وهو كذلك رحمة للمؤمنين لأن من عمل بما جاء فيه استحق رحمة الله .

●★●

وبين الله أنه يفصل ويقضى يوم القيامة بين أصحاب الأديان والملل فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى(٢) وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) .

الفصل: يحتمل الفصل بينهم فى الأحوال والأماكن فلا يجازيهم جزاء واحداً بغير تفاوت ، ولا يجمعهم فى موطن واحد ، وقيل يفصل بينهم بمعنى يقضى بينهم .

« إن الله على كل شهيد » إنه يفصل بينهم وهو عالم بما يستحقه كل منهم فلا يحدث فى ذلك الفصل ظلم لأن الله شهيد على كل شىء .

●★●

(١) الإسراء (٢) الحج

ولقد صد الكفار المسلمين عن بيت الله الحرام فأخبر الله أنه يدافع عن الذين آمنوا فقال :

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)(١) .

ذكر الله أنه يدافع عن الذين آمنوا ولم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وإن كان المراد أنه يدفع بأس المشركين .

وقال مقاتل : إن الله يدافع كفار مكة عن الذين آمنوا .

وهذه الآية فيها بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار . ثم أخبر الله أنه لا يحب الخوان في أمانة الله الكفور بنعمته .

●★●

وأخبر الله أنه مامن رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمته فينسخ الله مايلقيه الشيطان ثم يحكم الله آياته وذلك ليجعل مايلقيه الشيطان فتنة للمرضى ثم قال :

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ)(٢) .

وإن محمدا صلى الله عليه وسلم كان حريصا على تلبية قومه للدعوة التى نادى بها ، ولكن الشيطان ألقى فى سبيل أمنيته العثرات والأشواك ، فوسوس فى صدور الناس حتى أنكروا دعوته وجادلوه ونالوا منه ومن أصحابه حتى ظن ضعاف العقول والقلوب أن محمدا سيخذل وسينتهى أمر

---

(١) الحج (٢) الحج

دعوته إلى الزوال والفناء، ولكن سرعان ما يمحق الله ما ألقاه الشيطان من الشبهات والعثرات بعد أن فتن من فى قلوبهم مرض بما ألقاه الشيطان أما الذى أوتوا العلم فيعلمون أنه الحق من ربهم، ومن ثم فهم يؤمنون وتخبت له قلوبهم والخبت : الخشوع والتواضع .

●★●

وبين الله فوز المؤمنين ودخولهم فى الفلاح وبعد أن وصفهم بأوصاف قضى لهم بالفردوس والخلود فى الجنة فقال :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[1] .

الفلاح : الفوز أو البقاء فى الخير، وقد وصف الله من أدخلهم فى الفلاح بأوصاف :

أنهم فى صلاتهم خاشعون ، والخشوع خشية القلب .

أنهم عن اللغو معرضون : واللغو مالا يعنيك من قول أو فعل .

أنهم يؤدون الزكاة ويحفظون الفروج ويرعون الأمانات ويحافظون على الصلاة فى أوقاتها .

---

(١) المؤمنون

ثم قضى للمؤمنين الذين اتصفوا بكل ذلك بأنهم يرثون الفردوس وهم فيها خالدون .

●★●

وأخبر الله عن الذين يشفقون على أنفسهم من خشية الله ويؤمنون بآيات الله ، ولا يشركون به والذين يفعلون ما يفعلون وقلوبهم خائفة لأنهم سيرجعون إلى الله أخبر عنهم بأنهم يسارعون فى الخيرات ويسابقون الناس إليها ليسبقوهم فقال الله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُشْفِقُون وَالَّذِين هُم بآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُون وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُون وَالَّذِين يُؤْتُونَ ما آتَوا وقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُون أُولَـئِكَ يُسَارِعُونَ فى الخَيْرَاتِ وَهُمْ لهَا سَابِقُون)(١) .

إن الذين اجتمعت فيهم صفات : الإشفاق على أنفسهم من خشية الله والإيمان به وعدم الإشراك ويصلون ويصومون وهم يخافون ألا يقبل منهم ذلك .

أصحاب هذه الصفات يسارعون فى الخيرات ويرغبون فى الطاعات وهم يسابقون لنيلها قبل الآخرة .

●★●

وحول مافرض الله على المسلمين من الأحكام الشرعية حكم جلد الزانى والزانية إذا لم يكونا محصنين وشرط الإحصان عند أبى حنيفة : الإسلام

---

(١) المؤمنون

والحرية والعقل والبلوغ والتزوج بنكاح صحيح والدخول ـ أما المحصن فحكم الله فيه : الرجم .

وقد بين الله حكم الزانى والزانية غير المحصنين فى قوله تعالى :

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا[١] رَأْفَةٌ فى دِينِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) .

والزانى والزانية يدلان على الجنسين المنافيين لجنسى العفيف والعفيفة .

وقد نهى الله عن أن تأخذكم رأفة بهما فالواجب على المؤمنين التصلب والتشدد فى دين الله ولا يأخذهم اللين والهوادة فى استيفاء الحدود وقد قال رسول الله فى السرقة وهى أخف من الزنى : لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) يريد الله بذلك إلهاب الغضب لدينه وعدم الترحم حتى لا تعطل الحدود .

ثم قال : وليشهد عذابهما : (طائفة من المؤمنين) أى فرقة وأقلها ثلاثة أو أربعة ، وجريمة الزنى كبيرة من أمهات الكبائر كالشرك وقتل النفس.

والسبب فى شهود طائفة من المؤمنين : التشهير ، وذلك أبلغ للزجر .

●★●

وبين الله أن الزانى لا يرغب فى نكاح الصالحة ، والفاسقة لا ترغب فى أن ينكحها الصالح وأن ذلك محرم على المؤمنين فقال :

(الزَّانِى لا يَنْكِحُ إلَّا زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إلَّا زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ وحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)[٢].

---

(١) النور (٢) النور

لقد بين الله فى هذه الآية أن من شأن الزانى أنه لا يحب نكاح الصوالح من النساء وإنما يحب فاسقة خبيثة أو مشركة ، والفاسقة الخبيثة لا ترغب فى نكاح صلحاء الرجال ، وإنما ترغب فى فاسق أو مشرك .

ونكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك فى سلك الفسقة بالزنا محرم عليه .

والمعنى أن الله حرم على المؤمنين تعاطى الزنا والتزوج بالبغايا كما حرم على العفائف من النساء التزوج بالفجار .

●✱●

وفى حادث الإفك يقول الله : ولولا إذ سمعتموه ، قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم .

ثم يقول الله :

(يَعِظُكُمُ اللهُ أن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أبداً إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين)(٢) .

لقد تضمن حادث الإفك إيذاء الرسول فى أحب نسائه إليه وإيذاء الصديقة عائشة وإيذاء أبويها ولهذا يزجر الله من تقولوا وخاضوا فى هذا الحادث ولهذا يعظ الله المؤمنين الذين يعرفون عظم هذا الذنب وأن فيه حد القذف والنكال فى الدنيا والعذاب فى الآخرة حتى لا يعودوا إلى مثل هذا الفعل إن كانوا مؤمنين حقا متمسكين بدينهم .

●★●

وبين الله الحكم فى قذف المحصنات الغافلات المؤمنات فقال :

---

(١) النور

(إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)(١) .

قيل المراد قذفة عائشة قالت : رميت وأنا غافلة وإنما بلغنى بعد ذلك

وقيل المراد : زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم جميعهن لشرفهن .

وبين الله جزاء من يرمى المحصنات الغافلات المؤمنات : وحالهم فى الآخرة بأنهم ملعونون وتشهد عليهم فى الآخرة ألسنتهم وأيديهم وأن الله يوفيهم جزاء عملهم ويحاسبهم على فعلهم يوم القيامة .

●★●

وحول حكم النظر يقول الله تعالى :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٢) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

---

(١) النور (٢) النور

لقد أمر الله المؤمنين بأمرين : الأول غض البصر والثانى حفظ الفرج .
أما غض البصر فعما يحرم والاقتصار به على ما يحل .
وقد أمر الله بغض البصر عما لايحل ، بحفظ الفرج كذلك عما لايحل
وقدم فى الآية غض البصر على حفظ الفروج لأن النظر كما قيل بريد الزنا ورائد الفجور وأمر الله المؤمنات بأوامر ونهاهن عن نواه .
أمرهن : بغض البصر وحفظ الفروج وأن يضربن بخمرهن على جيوبهن أى يغطين بالخمار فتحة الثوب من الصدر فلا يظهرن صدورهن .
ونهاهن عن إبداء الزينة وهو ما تزينت به المرأة من حلى أو كحل أو خضاب فما كان ظاهراً منها كالخاتم والكحل والخضاب فلا بأس بإبدائه وما خفى منها كالسوار والخلخال والقلادة والوشاح والقرط فلا تبديه إلا لمن ذكرهم بعد من المعيولة وما بعدهم والمراد : التصون .
وقد نهيت المرأة عن إبداء الزينة إلا لأزواجهن أو آبائهن أو آباء أزواجهن أو أبنائهن أو أبناء أزواجهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن المؤمنات أو ماملكت أيمانهن أى من فى صحبتهن وخدمتهن من الحرائر والإماء وقيل ما ملكت أيمانهن : هم الذكور والإناث وقيل عبد المرأة بمنزلة الأجنبى منها أو التابعين غير ذوى الحاجة قيل هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ولا حاجة لهم إلى النساء (الذين لم يظهروا على عورات النساء أى لا يعرفون ما العورة ولا يميزون بينها وبين غيرها .
كما نهيت النساء عن ضرب الأرض بأرجلهن حتى يتقعقع خلخالها ليعلم أنها ذات خلخال ومن صاحبات الزينة وهكذا نهين عن إظهار صوت الحلى بعد ما نهين عن إظهار الحلى .

ثم أمر الله من وقع فى ذنب بالتوبة إلى الله فقال توبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون وتفوزون بغفران الله عما اقترفتم من الخطايا .

●✶✶●

وبعد أن حكى الله قول المنافقين بقوله : ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم » ونفى عنهم حقيقة الإيمان أتبع ذلك بقوله :

(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[1] .

والمعنى : يجب أن يكون قول المؤمنين وطريقتهم حينما يدعون إلى حكم كتاب الله ورسوله أن يقولوا سمعنا وأطعنا فيكون إتيانهم إليه وانقيادهم له سمعا وطاعة ، ومعنى : سمعنا » أجبنا ، وأولئك الذين يجيبون بالسمع والطاعة لقول الله ورسوله هم المفلحون الفائزون .

● ★ ●

قال الكلبى : كان صلى الله عليه وسلم يعرض فى خطبته بالمنافقين ، ويعيبهم ، فينظر المنافقون يمينا وشمالا فإذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا وإن أبصرهم أحد ثبتوا وصلوا خوفا فنزل قوله تعالى :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا[2] حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

---

(١) النور (٢) النور

الامر الجامع : هو الأمر الموجب للاجتماع نحو مقاتلة العدو أو تشاور في خطب عظيم .

وقد بين الله حال المؤمنين الذين يؤمنون بالله ورسوله إذا كانوا فى اجتماع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستعين بآرائهم وتجاربهم فى موقف يحتاج المشورة وأخذ الرأى فإنهم لن ينصرفوا من ذلك الاجتماع حتى يستأذنوا الرسول فى الانصراف ثم أخبر الله رسوله : إن الذين يستأذنونك فى الانصراف تعظيما لك ورعاية لأدب المجلس (أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) أى يعملون بما يقتضيه الإيمان (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لهم) ولاتحبسهم فتضيق نفوسهم حيث قد يكون انصرافهم لأمر هام (واستغفر لهم الله) حيث خافوك وتركوك إن الله غفور رحيم .

●★●

وأمر الله نبيه أن يخفض جناحه ويلين جانبه للمؤمنين فقال تعالى :

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)(١) .

إن خفض الجناح ولين الجانب دليل التواضع وقد أمر الله نبيه أن يكون لينا مع أتباعه المؤمنين حتى يملك قلوبهم وقال الله له فى آية أخرى فلو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) .

وهذا توجيه عظيم من الله لرسوله ولكل من جعل الله له رياسة أو قيادة أو زعامة فخفض الجناح يملأ قلوب الأتباع حبا وتقديرا .

●★●

وأشار الله إلى آيات القرآن والكتاب المبين ثم بين أنها هدى وبشرى للمؤمنين وذلك فى قوله فى أول سورة النمل :

---

(١) الشعراء

(تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) [٢].

تلك: إشارة إلى آيات السورة – والكتاب المبين: هو اللوح المحفوظ، وإبانته أنه قد خط فيه كل ماهو كائن.

والمراد بالهدى: أنه يهديهم إلى الجنة وبشرى لهم بأن الله سيدخلهم فى رحمته ووجه اختصاص الهدى والبشرى بالمؤمنين أنهم تمسكوا بالكتاب وعملوا بما فيه.

— ١٩٢ —

وبين الله أن القرآن ذكر الكثير من القصص التى اختلف فيها بنو إسرائيل فهو مشتمل على القصص وهو هدى ورحمة للمؤمنين فقال الله تعالى:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) [١].

إن الأقاصيص المذكورة فى القرآن موافقة لما ذكر من القصص فى التوراة والإنجيل وكان عليه الصلاة والسلام أميا لم يخالط أحداً ولم يتعلم من أحد ولم يشتغل فى حياته بجمع شىء من أخبار الأمم السابقة.

ومن عجب أن يرى القصص القرآنى بأنه من وضع محمد عليه الصلاة والسلام وبأنه ليس من القرآن، وأعجب من العجب أن ينساق بعض المسلمين وراء أعداء الإسلام فى هذا الإفك.

وإن القرآن لهدى يهدى به أصحاب العقول المتجردة من العناد إلى الدلائل الدالة على التوحيد والحشر وإلى صفات الله تعالى ونعوت جلاله.

---

(١) النمل (٢) النمل

وهو رحمة للمؤمنين يرحم الله به من اتبع إرشاده وتوجيهه .

●★●

وكثيرا ما وجه الله الناس إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض يقول الله تعالى :

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(١) .

فى هذه الآية دليل على التوحيد لأن التقليب من النور إلى الظلمة ومن الظلمة إلى النور يدل على أن ذلك فعل قدرة عالية فى ذلك التقليب ، وفى التقليب من الحياة إلى الموت ومن الموت إلى الحياة ، وهذا دليل الحشر فمتى فكر العقل فى ذلك أدرك أن هنالك إلها قادرا على كل ذلك وقد جعل الليل سكنا ، وجعل النهار مبصرا ليكون وسيلة إلى جلب المنافع وابتغاء فضل الله وفى ذلك آيات لقوم يؤمنون لأنهم هم المنتفعون .

●★●

وأخبر الله فى صدر سورة القصص أنه يتلو على نبيه نبأ موسى وفرعون ليتعظ بما يذكر من الأنباء والقصص المؤمنون فقال تعالى :

(نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(٢) .

نتلو عليك على لسان جبريل لأنه كان يتلو على محمد صلى الله عليه وسلم وهو يحفظ ما يتلى عليه ونتلو عليك خبرها بالحق محققين لقوم يؤمنون بما يتلى وخص التلاوة بأنها للمؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون بما فى القصص من عظات وعبر وتذكير .

●★●

(١) النمل (٢) القصص

وأخبر الله أنه يمتحن المؤمنين فى إيمانهم بما يصيبهم به من فتن ليعلم مدى صدقهم فى ذلك الإيمان قال الله تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ)[1]

والفتنة : الامتحان بشدائد التكاليف ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات والملاذ .

والمعنى : أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين بل يصيبهم الله بضروب المحن حتى يبلو صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم ليتميز المخلص من غير المخلص والراسخ فى الدين من المضطرب .

●★●

ونهى الله عن مجادلة الكتابيين إلا بالحسنى إلا من ظلم منهم وأسرف فى النيل من المسلمين والإسلام .

يقول الله تعالى :

(وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا[2] بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلٰهُنَا وَإِلٰهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هٰؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ) .

ينهى الله عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى أى بالخصلة التى هى أحسن وهى مقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم إلا الذين ظلموا

---

(١) العنكبوت (٢) العنكبوت

وأفرطوا فى العناد ولم يقبلوا النصح وحادوا عن الحق وعموا فالجلاد لا الجدل خليق بأن يردعهم عن ظلمهم .

وقيل : إلا الذين آذوا رسول الله .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال الرسول للمسلمين : لاتصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون .

فالذين آتيناهم الكتاب كعبد الله بن سلام ومن آمن معه آمنوا بالقرآن ومن هؤلاء أهل مكة من يؤمنون به وقيل : أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله من أهل الكتاب ومن هؤلاء ممن فى عهده منهم من يؤمنون به وهم عبد الله بن سلام وأصحابه .

وقد أخبر الله عن تعنت الكفار فى قولهم: لولا أنزل عليه آية من ربه فبين لهم أنه إذا كان إنزال الآية شرطا لإيمانهم فقد أنزل الله القرآن آية ومعجزة فقال تعالى :

(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[1].

أى إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين في طلب الآيات فهذا هو القرآن الذى تدوم عليهم تلاوته فى كل زمان ومكان ولا يزال معهم آية ثابتة لاتزول وهذه الآية الموجودة الثابتة رحمة ونعمة عظيمة لقوم يؤمنون .

---

(١) العنكبوت

وأخبر الله أن الروم قد غلبت وأنهم بعد هذا سيغلبون الفرس ويوم يحدث ذلك سيفرح المؤمنون من أصحاب الرسول بنصر الله حيث نصر أهل الكتاب على المجوس الذين لا كتاب لهم والله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ـ ذلك ماجاء فى قوله تعالى :

فى بِضعِ سِنِين لِلهِ الأَمْرُ مِنْ قَبلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَومئِذٍ يَفْرَحُ المؤْمنون بِنَصْرِ الله يَنصرُ من يشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)[١] .

لقد غلب الفرس الروم فى أدنى الأرض (المراد به أدنى أرض العرب وهى أطراف الشام) أو أدنى أرض الروم وهى الجزيرة وهى أدنى أرض إلى بلاد فارس » .

وقد فرح المشركون بانتصار الفرس وهم قوم لا كتاب لهم على الروم وهم أهل كتاب .

وقد انتصرت الروم على الفرس يوم الحديبية وبعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين والبضع ما بين الثلاثة إلى العشرة .

و (لله الأمر) من قبل الغلب ومن بعدالغلب ويوم تغلب الروم فارس ويحل ما وعد الله من غلبتهم (يفرح المؤمنون بنصر الله وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له .

وقيل إن اليوم الذى غلبت الروم فيه الفرس ففرح الروم بذلك الغلب هو اليوم الذى انتصر فيه المسلمون على المشركين فى بدر ففرح المسلمون بنصرهم وهذا معنى قوله (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) أى يوم فرح الروم بالنصر فرح المسلمون كذلك بنصرهم .

---

(١) الروم

وقد وصف الله حال المشركين فى أنه إذا أذاقهم رحمة فرحوا بها وإن أصابتهم سيئة بما قدمت أيديهم قنطوا واستفهم لينكر عليهم ذلك فقال :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(١) .

والمعنى : ألم يعلم المشركون أن الكل من الله وأنه يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقسم الرزق فى الناس حسب حكمته فيعطى من يشاء ويضيق على من يشاء ليمتحن الناس وليعلم الشاكر من الجاحد والصابر من الجزع ولم يعط الله الدنيا لمن يحب ويحرم من لا يحب ، وإن مرتبة المؤمن الموحد هى التى تدرك أن الله يبسط الرزق لمن أراد ويقدره لمن يشاء وفى ذلك البسط والتضييق دلائل للمؤمنين يستدلون بها على كمال حكمته وأنه الفعال وحده لما يريد .

● ✱ ●

وكثيرا ما سلى الله رسوله حين كانت تضيق نفسه بعدم إيمان قومه فيذكر الله من سبقه من الرسل ومواقف أقوامهم منهم ليكون فى ذلك العزاء له قال :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)(٢) .

بين الله فى هذه الآية أنه أرسل الكثير من الرسل قبل محمد عليه الصلاة والسلام إلى أقوامهم وأرسل الله مع كل رسول المعجزة التى يؤيده بها

---

(١) الروم (٢) الروم

ومع وجود المعجزات البينات فإن أقوامهم لم يؤمنوا جميعا بهم بل آمن البعض برسالاتهم وكفر البعض وانتقم الله ممن كفر .

وفى هذا بشارة للمؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وأن الله سينصرهم على أعدائهم وتسلية للنبى صلى الله عليه وسلم حتى تطمئن نفسه ليعلم أنه ليس وحده الرسول الذى كذبه قومه .

●★●

وقد توعد الله الكفار وهددهم فلم يزدهم ذلك الوعد إلا الفرار .

قال الله تعالى :

(فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الموتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)[1] .

أراد الله أن يخفف عن رسوله صلى الله عليه وسلم آلام نفسه ومايعانيه من انصراف قومه فقال له : « فإنك لاتسمع الموتى » وقد شبه أولئك الكفار بالموتى فى أنهم لم يستجيبوا للدعوة فمشاعرهم قد انسدت عن سماع الحق كانسداد مشاعر الموتى وذلك لبيان كمال سوء حالهم والإشارة إلى أنهم جمعوا بين بُعد أسماعهم عن الحق وبين إعراضهم عن الإصغاء إليه .

« وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم » وقد سموا عمياً لفقدهم المقصود الحقيقى من الإبصار أو لعمى قلوبهم أى أولئك الذين يؤمنون بالآيات

(١) الروم

منقادون لما تأمرهم به من الحق أما الموتى وأما الصم وأما العمى فهم أبعد الناس عن الاستجابة إلى الحق لأنهم موتى ولأنهم صم وعمى .

●✱●

ويوم القيامة إذا حشر المجرم علم أن مصيره إلى النار فيستقل مدة اللبث أما المؤمن فإنه إذا حشر علم أن مصيره إلى الجنة فلا يريد التأخير .

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ) .

القائلون الذين أوتوا العلم والإيمان : هم الملائكة أو الأنبياء أو المؤمنون وكتاب الله فى اللوح المحفوظ أو المراد بكتاب الله: علمه أو قضاؤه أو ما أوجبه بحكمته بالمكث إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون أنه الحق لتفريطكم فى طلب الحق واتباعه ولن تنفعكم المعاذير اليوم .

✱●✱

وأخبر الله أن المؤمنين بآيات الله يخرون سجداً إذا ذكروا بها ويسبحون بحمد ربهم ولا يستكبرون عن عبادته فقال تعالى :

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ (١) وَهُمْ لايَسْتَكْبِرُون تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون) .

يشير الله بهذه الآية إلى أن الإيمان حاصل وإنما ينسى بعضهم الإيمان بها فإذا ذكروا بآيات الله انقادت لذلك التذكير جوارحهم ومشاعرهم

---

(١) الروم (٢) السجدة

فخروا سجداً لله سجود إكبار وإعظام ولهجت ألسنتهم بالتسبيح والتحميد حين لا يستكبرون عن عبادته ولا عن الخضوع له فتنحنى هاماتهم وتخشع معها أحاسيسهم وهم قليلا من الليل ما يهجعون تجافت جنوبهم عن مضاجعها ووصلوا أرواحهم بخالقها يدعونه خوفاً من حسابه وطمعا فى رضوانه . وينفقون أموالهم فى مرضاته .

● ★ ●

وإن الله ليعلم شفقة النبى على أمته ولذلك فقد بين أنه أولى بهم من أنفسهم فى قوله تعالى :

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُهَاجِرِينَ)(١) .

بين الله فى هذه الآية أن النبى أولى بالمؤمنين فى كل شىء من أمور الدين والدنيا من أنفسهم فيجب أن يكون أحب إليهم من أنفسهم وحكمه أنفذ من حكمها وحقه مقدم على حقها وأن يبذلوا تلك النفوس فداء لنفسه إذا دارت رحى الحرب ، وأن يتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله لأنه الرؤوف الرحيم بهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ما من مؤمن إلا أنا أولى به فى الدنيا والآخرة ، إقرأوا إن شئتم : (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم (وأزواجه أمهاتهم) تشبيه لهن بالأمهات من حيث وجوب تعظيمهن واحترامهن وتحريم نكاحهن فهن أمهات الرجال ولذلك قالت السيدة عائشة

---

(١) الاحزاب

رضى الله عنها « لسنا أمهات النساء » تعنى أنهن إنما كن أمهات الرجال لكونهن محرمات عليهم كتحريم أمهاتهم .

وكان المسلمون فى صدر الإسلام يتوارثون بالولاية فى الدين والهجرة لا بالقرابة ثم نسخ ذلك الحكم حينما عز الإسلام بأهله فجعل التوارث بالقرابة (فى كتاب الله) حيث قال الله (وأولو الأرحام بعضهم أولى من ببعض فى كتاب الله) ، أى فى اللوح المحفوظ أو فيما أوحى الله به إلى نبيه (من المؤمنين والمهاجرين) أى الأقرباء بعضهم أولى ببعض فى المواريث .

●★●

وبعد أن نادي الله المؤمنين ليذكرهم بنعمته عليهم فى غزوة الخندق حين جاءهم الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم وحين زاغت أبصار المؤمنين وظنوا بالله وبنصر الله الظنون قال :

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)[1] .

أى عند ذلك كان امتحان الله للمؤمنين وكان امتحانا رهيبا حينما أحاط الأحزاب بالمدينة فى عدة وعتاد وجموع لم تشهدها المدينة من قبل : جموع أعماها الحقد والضغن فاجتمعت على إبادة المؤمنين وإفنائهم ، وكان الامتحان من الله ليس لاستبانة أمر المؤمنين فالله أعلم بهم ، ولكن لحكمة أخرى لإظهار الأمر إلى الملائكة ليتبينوا مدى صدق المؤمنين فى الجهاد ، وقد زلزل بعضهم وثبت منهم المؤمن الذى اطمأن قلبه على الرغم مما يراه إلى وعد الله بالنصر (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا) ـ (وإن جندنا لهم الغالبون) .

---

(١) الأحزاب

وقد كشف الله عن حال المؤمنين حينما رأوا الأحزاب وكشف عن مدى ثقتهم فى الله وإيمانهم فقال :

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا)(١) .

فى هذه الآية أخبر الله عن حالة المؤمنين حينما أحاط الأحزاب بالمدينة وقد قالوا : هذا ما وعدنا الله به من الابتلاء والامتحان ثم قالوا : وصدق الله ورسوله وكان قولهم ذلك فى مقابلة قول المنافقين : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً .

وفى قولهم إشارة إلى البشارة التى يرتقبونها بعد أن صدق الله فى جميع ما وعد به وصدق رسوله فيما بشر به من قبل وسيصدق فيما أخبر به من الفتوحات وما زادهم ما وقع إلا إيمانا وتسليما عند وجوده وانقيادا لأمر الله وطاعة رسوله .

●✱●

وقد نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيثبتون ويقاتلون حتى يستشهدوا وذلك ما حكاه الله فى قوله :

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ)(٢) .

لقد صدق هؤلاء فيما عاهدوا الله عليه فقضى نحبه منهم من قضى من حيث الشهادة أو الوفاء بالنذر من الثبات أو الشهادة .

---

(١) الأحزاب (٢) الأحزاب

وشاء الله أن يرد الذين كفروا والغيظ يقتلهم وكفى الله المؤمنين القتال وقد حكى الله ذلك فى قوله تعالى :

(وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً) .

لقد أرسل الله على الأحزاب ريحاً أطارت الخيام وكفأت القدور وأرسل جنوداً من الملائكة تطارد تلك الجموع ورد الله الكافرين عن المدينة يقتلهم الغيظ لاعتقادهم أنهم فشلوا فى القضاء على الإسلام وأهله وأنهم لن يستطيعون فى معركة بعد هذه أن يجمعوا تلك الجموع وأنهم لن ينالوا من محمد وأصحابه خيراً يسر قلوبهم .

وقد عادت قريش من الخندق لم يشفوا صدورهم ولم يحققوا أمراً وكفى الله المؤمنين القتال فلم يحوجهم إلى قتالهم بل قامت الريح والملائكة بأمر ذلك الموقف (وكان الله قويا) غير محتاج إلى قتال أعدائه (عزيزاً) قادراً على استئصال شأفة الكفار وإذلالهم .

●★●

وقضى الله بالمغفرة والأجر لأصناف من عباده أحصاهم فى قوله تعالى :

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ

---

(١) الأحزاب

والْحَافِظَاتِ والذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً والذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وأَجْراً عَظِيماً)[1] .

وروى أنه لما نزل فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم ما نزل من الآيات من نحو قوله : ومن يقنت منكن لله ورسوله الخ قال نساء المسلمين : فما نزل فينا شىء فنزلت الآية : إن المسلمين والمسلمات إلخ .

وقد أعد الله لكل أولئك مغفرة وأجراً عظيما .

●★●

وفى زواج زينب بنت جحش بنت عمة رسول الله من مولاه زيد بن حارثة

قال الله تعالى :

(وما كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ ورَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ ورَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِيناً) .

لقد تبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة بعد أن أعتقه وكان مولاه ثم خطب له زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب فأبت وأبى أخوها عبد الله فنزلت الآية ، والمعنى أنه ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يعترضا على قضاء قضاه الله ورسوله أو رأى رآه الله ورسوله وليس لهم أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا بل يجب عليهم أن يكون رأيهم تبعا لرأيه واختيارهم وراء اختياره ومن يعص الله ورسوله فى قضاء أو حكم أو رأى فقد ضل طريق الحق وقد نزلت زينب بعد نزول الآية على رأى رسول الله فتزوجت زيد بن حارثة .

●★●

---

(١) الأحزاب

وكانت تقاليد العرب فى الجاهلية تقضى بأن الإبن المتبنى يرث أباه الذى تبناه ولا يحل للأب أن يتزوج زوجة ابنه إذا فارقها .

وشاء الله أن يقضى على تلك التقاليد ، ولا يجعل للابن المدعى الحق في الميراث وأن يجعل لأبيه الذى تبناه الحق فى زواج زوجة ابنه المدعى .

وشاء الله أن يكون تنفيذ حكم الشرع واقعا على نبيه وزيد بن حارثة وزينب بنت جحش فأخبره الله عن طريق جبريل أن زيداً سيطلق زينب وأن رسوله سيتزوجها ليبطل حكم عدم تزوج الأب من زوجة من تبناه إذا طلقها .

وألقى الله فى نفس زيد كراهة زينب فذهب إلى رسول الله يخبره برغبته فى طلاقها فقال له الرسول أمسك عليك زوجك واتق الله فلا تفارقها وقد حكى القرآن ذلك فى قوله تعالى :

(وإذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً) (١) .

يذكر الله رسوله بقوله لمن أنعم الله عليه بالعتق وأنعم عليه رسول الله بتزويجه من ابنة عمه وقد كان مولى له : أمسك عليك زوجك ، فلا تطلقها واتق الله فى أمرها ، على حين أنك تخفى فى نفسك ما أخبرك الله به من أنه

---

(١) الأحزاب

سيطلقها ثم تتزوجها وذلك الذى تخفيه ستبديه ويظهره الله وتخشى الناس وتخاف مقالاتهم والله وحده هو الأحق بأن تخشاه .

فلما قضى زيد منها وطره قضى الله أن يزوجك بها والعلة فى ذلك أنه لا يكون بعد ذلك الزواج حرج على المؤمنين فى أن يتزوجوا أزواج أبنائهم الأدعياء ، وأمر الله نافذ، وقضى الله أن تنفذ شريعته وأن يكون تنفيذها على يد رسوله ومن أحق من رسول الله بالاستجابة إلى شريعة الله .

وبهذا الزواج أحل الله زواج الرجل من زوجة ابنه المتبنى وبطل حكم الجاهلية .

● ★ ●

وأخبر الله أن من يؤذى المؤمنين بغير ذنب فقد احتمل الزور والإثم فقال تعالى :

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً) (١) .

بهذه الآية بين الله حكم من يؤذى المؤمنين بغير جناية أو إثم ارتكبوه يستحق إيذاءهم وقد احتمل هؤلاء البهتان والزور والإثم العظيم .

● ★ ●

وبعد أن أخبر الله أنه عرض الأمانة (وهى التكاليف) على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها قال بعد ذلك :

---

(١) الاحزاب

(لِيُعَذِّبَ اللهُ المُنافقينَ والمُنافقاتِ والمُشْرِكينَ والمُشْرِكاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى المؤْمنينَ والمؤْمناتِ وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً)(١) .

والمعنى : لقد حمل الانسان الأمانة ليقم تعذيب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات

وقد ذكر الله وصفين للانسان وهما : ظلوم وجهول وذكر لنفسه وصفين: الغفران والرحمة أى كان غفورا للظلوم رحيما على الجهول

وقد أعلم الله عبده أنه غفور رحيم وبصره بنفسه فرآه ظلوما جهولا ثم عرض عليه الأمانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعلمه فيما يجبرها من الغفران والرحمة

● ★ ●

وأخبر الله أنه هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويضيق على من يشاء وفى ذلك آيات وعظة للمؤمنين فقال :

(أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمنُونَ)(١) .

أو ما يدرى هؤلاء الكفار أن الله يبسط الرزق لمن يشاء تارة ويقبضه تارة أخرى ويوسع على من يشاء ويقتر ويضيق على من يشاء لحكمة أرادها ويعلمها هو فهو القابض وهو الباسط والناس مختلفون أمام بسطه وقبضه

وفى صنع الله وتقسيم الوزق على الناس من العبر والأدلة آيات ودلائل لمن آمن بالله على أنه المدبر المتصرف فهو يعطى لمن أحب ومن لا يحب

● ★ ●

---

(١) الاحزاب (٢) الزمر

وبين الله مهمة الملائكة الذين يحملون العرش فقال تعالى :

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا)(١) .

إن عرش الله من الأمور الغيبية التى يجب أن نؤمن بها ونؤمن بما ورد من أحاديث رسول الله الصحيحة حولها وفى هذه الآية يبين الله مايفعله حملة العرش ومن حوله من الملائكة فهم :

يسبحون بحمد ربهم فيقرنون بين التسبيح والتحميد

ويؤمنون به بأنه رب الملك والملكوت

ويستغفرون للمؤمنين ممن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله

● ★ ●

وأخبر الله أنه ناصر رسله والمؤمنين فى الحياة الدنيا وفى الآخرة فقال سبحانه :

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)(٢) .

بين الله أنه ينصر رسله ومن آمن بهم وبربهم وبرسالاتهم وأن الظفر لهم فى الدارين على مخالفيهم ، وإن غلبوا فى بعض الأحايين امتحانا لهم من الله ، ولكن العاقبة لهم وأن الله يتيح للمؤمنين من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين

والأشهاد جمع شاهد وهم الحفظة والملائكة والمؤمنون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله : لتكونوا شهداء على الناس

●★●

---

(١) غافر (٢) غافر

قال تعالى :

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ)(١) .

لقد كان الكفار لعنادهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم فقيل : لو كان كما يقترحون فإنهم لم يتركوا التعنت وقالوا : لولا فصلت آياته)

أى بينت بلسان نفقهه (أأعجمى وعربى) أى : أقرآن أعجمى ورسول عربى أو مرسل إليه عربى

والمعنى : أن آيات الله على أية طريقة جاءتهم أرسلوا فيها ألسنتهم وخاضوا لأنهم لا يطلبون حقا وإنما هم تحكمهم الأهواء

ثم أمر الله نبيه أن يقول لهم : «هو للذين آمنوا هدى وشفاء» أى أن القرآن للمؤمنين هو الهدى لأنه دليل على الخيرات ، ومرشد إلى السعادات وهو شفاء لما فى الصدور من الظن والشك والكفر والجهل

●☆●

وقال تعالى :

(فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)(٢) .

---

(١) فصلت (٢) الشورى

أمر الله نبيه أن يدعو إلى الاتفاق على الملة و لدين الحنيف ، وأن يستقيم على الملة وعلى الدعوة كما أمر الله ، ولا يتبع الباطل من الأهواء، وأن يقول آمنت بما أنزل الله من كتاب صح إنزاله ، ويقول إنى أمرت بالعدل فى الحكم إذا تخاصمتم وتحاكمتم إلى ، والله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ولا حجة ولا خصومة بيننا وبينكم ، لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوجين فلا حاجة إلى المحاجة ، والجدل، الله يجمع بيننا يوم الفصل يوم القيامة وإليه مصير الجميع

●★●

وقد نفر الله من الدنيا فقال :

(فَمَا أُوتِيتُم مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وأبقَى لِلَّذِينَ آمنُوا وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)[١] .

لقد سمى الله ما أعطى الناس فى الدنيا من المال والجاه والسلطان بالمتاع تنبيها على قلته وحقارته ولأنه مشاهد أن كل ما يتعلق بالدنيا سريع الانقراض وأما ما عند الله فى الآخرة فهو خير وهو أبقى للمؤمنين الذين يتوكلون على ربهم فى أمورهم ، فالخيرية الأخروية حاصلة لمن جمع بين الإيمان والتوكل على الله

●★●

وبعد أن وصف الله حال الكفار يوم القيامة حكى قول المؤمنين فيهم فقال :

(وَقَالَ الذِينَ آمنُوا إنَّ الْخَاسِرِينَ الذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُمْ

---

(١) الشورى

وأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِى عَذَابٍ مُقِيمٍ) [١] .

بين الله ماقالة المؤمنون فى الكافرين يوم القيامة وانهم قالوا إن اولئك الخاسرين الذين خسروا انفسهم واهليهم قد ظلموا أنفسهم والكافرون هم الظالمون وهم فى عذاب أبدى سرمدى

●★●

وبعد أن بين الله أقسام الوحى إلى الرسل فى قوله : وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء قال :

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) [٢] .

المراد بالروح : القرآن وقد أجمع العلماء على أنه لايجوز أن يقال : إن الرسل كانوا قبل الوحى على الكفر وقد اختلفوا فى تفسير قوله تعالى : «ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان» ما كان يدرى قبل البعثة (الكتاب) أى شىء هو أما الإيمان فقال بعضهم : الإيمان المراد هنا : هو الصلاة لقوله تعالى : (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم .

— ٥٠١ —

وحكى الله نداءه للمتقين المتحابين فى الله يوم القيامة بقوله تعالى :

(يَا عِبَادِى لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ

---

(١) الشورى (٢) الشورى

آمنُوا بآيَاتِنَا وكانُوا مُسْلِمِينْ ادْخُلُوا الْجَنَّــةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُـكُمْ تُحْـبَرُون) [١] .

ينادى الله عباده الذين صدقوا بآياته وقد آمنت قلوبهم وبواطنهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم يناديهم يوم القيامة : لاخوف عليـكم بعد الإيمان ولا أنتم تحزنون على مافاتـكم لأنـكم آمنتم وأسلمتم ، واليوم يوم الجزاء على العمل فادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم (نظراؤكم) ومن كان على مثل إيمانـكم وعملـكم .

● ★ ●

وأخبر الله أن فى السموات والأرض آيات للمؤمنين وذلك فى قوله تعالى أول سورة الْجَاثية :

(إنَّ فِي السموَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمؤْمنين) [٢] .

أى فى ذوات السموات والأرض أحوال دالة على وجود الله تعالى مثل كيفياتها وحركاتها والشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار وكلها آيات دالة على وجود خالق لها .

وكل هذه الدلالات آيات للمؤمنين .

● ★ ●

وأمر الله نبيه أن يطلب من المؤمنين الغفران والصفح عن الـكفار الذين لايرجون أيام الله ووقائعه لعل ذلك يؤلف القلوب النافرة فقال :

(قلْ لِلَّذِينَ آمنُوا يَغفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُون أيَّامَ اللهَ لِيَجْزِىَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَـكْسِبُون) [٣] .

---

(١) الزخرف (٢) الجاثية (٣) الجاثية

أيام الله) وقائعه بأعدائه وسميت وقائع العرب : أيام العرب ، لايرجون (لايأملون) الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين .

قيل نزل المسلمون في غزوة بني المصطلق على بئر فأرسل عبد الله بن أبيّ غلامه ليستقي فأبطأ فلما أتاه سأله : ماحبسك قال : غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحداً حتى ملأ قرب النبي وأبي بكر وعمر فقال : مامثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل سمن كلبك يأكلك ، فبلغ عمر قوله فاشتمل سيفه فأنزل الله الآية فالمراد بالذين آمنوا : عمر والمراد بالذين لايرجون أيام الله عبد الله بن أبيّ .

●★●

وفي موقف الكفار من القرآن يقول الله :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين) (١) .

قيل إن الشاهد الذي شهد من بني إسرائيل هو عبد الله بن سلام ، وأنه سأل رسول الله عن أول أشراط الساعة وأول طعام يأكله أهل الجنة ، وما بال الولد ينزع إلى أحد أبويه ، وأجابه الرسول فقال : مايعلم هذا إلا نبي وأسلم .

وقيل : إنه ليس المراد من قوله : وشهد شاهد شخص بعينه بل المراد أن محمدا ذكر في التوراة والبشارة بمقدمه حاصلة فيها فالتقدير لو أن رجلا

---

(١) الأحقاف

منصفا عارفا بالتوراة أقر بذلك واعترف ثم آمن بمحمد واستكبرتم ألستم ظالمين لأنفسكم ؟ .

●★●

وأخبر الله أنه مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم فقال تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ) (١) .

(مولى الذين آمنوا) وليهم وناصرهم ، والله مولى الناس جميعا على معنى أنه ربهم ومالكهم ، ولكن على معنى أنه الناصر ، هو ناصر للمؤمنين وحدهم .

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى الشعب يوم أحد وقد فشت الجراحات فيهم فنادى المشركون : اعل هبل ، فنادى المسلمون : الله أعلى وأجل ، فنادى المشركون يوم بيوم بدر والحرب سجال ، إن لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا،الله مولانا ولا مولى لكم ، إن القتلى مختلفة أما قتلانا فأحياء يرزقون وأما قتلاكم ففى النار يعذبون وفى شعب أحد نزلت الآية : ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا .

●★●

وبعد أن ذكر الله حال الكافرين وذكر بعد ذلك حال المنافقين فى سورة القتال فى قوله ومنهم من يستمع إليك قال تعالى مخاطبا رسوله :

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا

---

(١) القتال محمد

فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم)[1].

إن الكافرين والمنافقين لم يؤمنوا ولا يتوقع منهم الإيمان إلا عند قيام الساعة فإن تأتهم لم تنفعهم ذكراهم ، وقد جاء أشراطها وعلاماتها .

ومع وجود الدلائل التى ظهرت فهم لم يؤمنوا (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) يعنى لاتنفعهم الذكرى إذ لاتقبل التوبة ولا يحسب الإيمان فكيف لهم الحال إذا جاءتهم ذكراهم (فاعلم أنه لا إله إلا الله) يأتى بالساعة فاشتغل بما عليك فى الاستغفار وكن مستعدا للقائها واستغفر لذنبك) أى لذنب أهل بيتك واطلب الغفران للمؤمنين والمؤمنات (والله يعلم متقبلكم ومثواكم) يعنى حالكم فى الدنيا وفى الآخرة وفى الليل والنهار .

●✱●

وبين الله حال المنافق وحال المؤمن أمام التكاليف فقال :

(ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم)[2].

لقد كان المؤمنون يتمنون سورة فيها تكليف فإذا أنزلت سورة محكمة مبينة غير متشابهة أمروا فيها بما تمنوا ، وذكر فيها القتال تبين نفاق المنافقين ممن كانوا يعبدون الله على حرف واتضحت حالتهم فى تشخص أبصارهم جبنا وخوفا فهم ينظرون نظر المغشى عليه من الموت (فأولى لهم) وهذا وعيد بمعنى : فويل لهم .

---

(١) القتال محمد (٢) القتال محمد

وبين الله أن الحياة الدنيا لهو ولعب فمن آمن واتقى فله أجره وذلك في قوله :

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ) (١) :

أخبر الله أن الحياة الدنيا حقيرة وأنها لعب ولهو ثم شرط الله نيل الأجر والثواب بالإيمان والتقوى وهذا وعد من الله قطعه على نفسه للمؤمنين المتقين .

وأخبر الله أنه لا يسألكم أموالكم كلها وإنما يسألكم اليسير منها فلا معنى للبخل بها وهى أموال الله .

●✱●

وأخبر الله أنه أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا فقال :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ) (٢) .

إن الله ينصر رسله على أعدائهم بصيحة مهلكة أو رجفة أو بتثبيت قلوب المؤمنين في المعارك وتحقيقا لنصر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » والسكينة : السكون والوقار واليقين (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) فقد أمرهم بتكاليف فآمنوا بها بمعنى أنهم أمروا بالتوحيد فآمنوا وأطاعوا ثم أمروا بالقتال والحج فآمنوا وأطاعوا فازدادوا إيمانا مع إيمانهم .

---

(١) القتال محمد (٢) الفتح

ولما نزل قوله تعالى : إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك) قال الصحابة : هنيئا لك يارسول الله فما لنا ؟ فأنزل الله قوله :

(لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً) (١).

وعد الله المؤمنين والمؤمنات بجنات تجرى من تحتها الأنهار وبالخلود فى هذه الجنات وبتكفير سيئاتهم وذلك هو الفوز العظيم جزاء الإيمان .

وقد ذكر هنا تكفير السيئات بعد الإدخال مع أن التكفير قبل الإدخال فقدم الإدخال فى الذكر بمعنى أنه من أهل الجنة .

●✱●

وأخبر الله أنه أرسل الرسول لمهام ثلاث أن يكون شاهدا ومبشراً ونذيرا ، ويترتب على ذلك ان يؤمن الناس بالله ورسوله ويعزروه ويوقره ويسبحوه فقال :

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) (٢) .

فقد ارسل الرسول شاهدا على امته لقوله تعالى : ويكون الرسول عليكم شهيدا ومبشراً على الطاعة ونذيرا على المعصية لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه (تقووه بتقوية دينه وتوقروه (تعظموه) وتسبحوه (تنزهوه) او تصلوا له من السبحة بكرة وأصيلا (غدوة وعشيا) وعن ابن عباس : صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر .

---

(١) الفتح (٢) الفتح

لقد تخلف المتخلفون من الأعراب عن الخروج مع الرسول للقتال فكشف الله أمرهم فى قوله :

(بَلْ ظَنَنْتُمْ أن لَنْ يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالمُؤمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُورًا)(١).

وقد فضحت الآية امر اولئك الأعراب حين اخبرت انه لم يكن تخلفهم لما ذكروه من ان اموالهم واهليهم شغلوهم عن الخروج بل لأنهم ظنوا ان الرسول والمؤمنين لن يرجعوا إلى اهليهم من هذه الغزوة وأنهم سيهلكون فيها وزين الشيطان في قلوبهم ذلك الظن حتى قطعوا به ، وكان الظن أولا وتزيين الشيطان ثانيا وكان الظن الذى ظنوه ظنا فاسداً سيئا وصاروا بذلك الظن بائرين هالكين او هم فى الأصل بائرون بسبب الظن الفاسد الذى ظنوه .

●✱●

وفى بيعة الرضوان يقول الله تعالى :

(لَقَدْ رَضِىَ اللهُ عَنِ المؤمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً)(٢) .

لقد خرج النبى صلى الله عليه وسلم فى جمع من الصحابة للاعتمار ولما شارفوا مكة أرسل النبى إلى قريش عثمان بن عفان ليخبرهم أنه جاء معتمرا وشاع في المسلمين أن قريشاً قتلت عثمان فطلب الرسول من أصحابه أن يبايعوه على دخول مكة فبايعوه تحت الشجرة تلك البيعة التى سميت بيعة الرضوان لأن الله أنزل فيها : « لقد رضى الله عن المؤمنين » .

---

(١) الفتح (٢) الفتح

وقد اعلم الله ما فى قلوبهم من الصدق فأنزل السكينة عليهم حتى بايعوه على الموت وقد أثابهم وجازاهم بالفتح القريب وهو فتح خيبر كما وعدهم بمغانم كثيرة وأخبر الله أنه وعد المسلمين بمغانم كثيرة وذلك فى قوله تعالى :

(وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا)(١)

وأشار بذلك إلى أن ما أتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب بل الجزاء أمامهم ولإتمام النعم كف أيدى الناس عنهم فرزقهم مغانم باردة لم يمسها حر القتال وأراد بأيدى الناس : أهل خيبر وحلفاءهم من أسد وغطفان حين جاءوا لنصرتهم فقذف الله فى قلوبهم الرعب فرجعوا وقيل أيدى أهل مكة (ولتكون) هذه الكفة (آية للمؤمنين) وعبرة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم وقيل ويهديكم صراطاً مستقيماً، أى ويزيدكم بصيرة ويقينا وثقة بفضل الله وهكذا حقق الله وعده بالمغانم الكثيرة وبكف أيدى الناس وبهداية المؤمنين وتبصيرهم .

●★●

وبعد أن بين الله كف أيدى المؤمنين عن الكفار وكف أيدى الكفار عن المسلمين فى غزوة الحديبية قال الله تعالى :

(وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ(٢) بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ

---

(١) الفتح (٢) الفتح

لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) .

بين الله أنه لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات بين أظهر المشركين فى مكة ممن يكتمون إيمانهم خيفة على أنفسهم لسلطانكم عليهم فأبدتموهم وأنتم تعلموهم فتصيبكم منهم معرة وإثم — وقد أقر عقوبتهم ليتخلص المؤمنين من بين أظهرهم ولو تزيلوا وتميز المؤمنون من الكافرين لعذبنا الذين كفروا حين جعلوا فى قلوبهم حمية الجاهلية وأنفتها وقد أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وهى لا إله إلا الله وذلك فى عهد الحديبية أو كلمة الشهادة أو الوفاء بالعهد .

●★●

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة مصدقاً إلى بنى المصطلق وكان بينه وبينهم إحن فى الجاهلية فلما سمعوا به استقبلوه فحسب أنهم مقاتلوه فرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال الله : يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا إلخ ثم قال :

(وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ)[1] .

إن المراد بقوله : واعلموا أن فيكم رسول الله هو الرجوع إليه والاعتماد عليه يعنى أن فيكم رسول الله ولا يخفى عليكم وجوب مراجعته فإن كان خفى عليكم كونه فيكم فاعلموا أنه فيكم .

---

(١) الحجرات

(ولـكن الله حبب إليكم الإيمان) أى قربه إليكم وأدخله فى قلوبكم ثم زينه فيها بحيث لا تفارقونه ولا يخرج من قلوبكم .

●★●

وبين الله الواجب على المسلمين إذا قتتل منهم طائفتان فقال تعالى :

(وإنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المؤْمنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فإنْ بَغَتْ إحْدَاهُما عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِى حَتَّى تَفِيءَ إلَى أمْرِ اللهِ فإنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ إنَّمَا المؤْمِنُونَ إخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)[1].

بين الله الواجب على المسلمين فى حالة ما إذا اقتتل طائفتان منهم فأمر بالإصلاح بالنصح والدعاء إلى حكم الله فإن بغت وتعدت طائفة على أخرى ولم تذعن إلى النصيحة فواجب المسلمين أن يقاتلوا الفئة الباغية ، حتى ترجع إلى أمر الله : وحكمه فإن أقلعت عن القتال فأصلحوا بين الطائفتين بالعدل فإن الله يحب المقسط العادل فيجازيه أحسن الجزاء .

●✱●

وحول إيمان الأعراب يحكى الله ما قالوه وما قيل لهم فيقول :

(قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فى قُلُوبِكُمْ)[2]

إن الآية تشير إلى أن عمل القلب غير معلوم واجتناب الظن واجب

---

(١) الحجرات (٢) الحجرات

وإنما يحكم بالظاهر ولكن الله خبير بما فى الصدور ، وقد كشف الله حقيقة ما فى قلوبهم بقوله : لم تؤمنوا وقوله تعالى : ولكن قولوا يقتضى قولا سابقاً مخالفا لما بعده كقوله : لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا فإذا قالوا إذا أسلمنا فقد آمنا قيل لا فإن الإيمان من عمل القلب لا غير والإسلام قد يكون عمل اللسان وإذا كان ذلك عمل القلب ولم يدخل الإيمـــان فى قلوبكم لم تؤمنوا .

●✱●

ثم أرشد الله أولئك الأعراب إلى حقيقة الإيمان فقال :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)[1]

والمعنى إن كنتم تريدون الإيمان فالمؤمنون هم الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ولم يشكوا فيما قاله النبى صلى الله عليه وسلم من أمر الغيب كالحشر والبعث وأضافوا إلى الإيمان بالله والرسول الجهاد بالنفس والمال وهم يطلبون العقبى وأولئك الذين تصفوا بتلك الصفات هم الصادقون فى إيمانهم لا الأعراب الذين قالوا قولا ولم يخلصوا عملا .

● ✱ ●

وكشف الله بواطن الأعراب حين راحوا يمنون على الرسول بأنهم أسلموا فقال :

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ

---

(١) الحجرات

يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[1]

لقد كشف الله قبيح أفعالهم فى قوله : يمنون عليك فهم لا يطلبون بإسلامهم جانب الله ولا شرف أنفسهم بل منوا ولو علموا أن فى الإسلام شرفهم لما منوا .

وبين الله أن الذى عندهم هو الإسلام حين قال . لا تمنوا على إسلامكم أى استسلامكم بل المنة لله عليكم حيث بين لكم الطريق المستقيم وهدا كم للايمان إن كنتم صادقين فى ادعاء الإيمان وجواب إن محذوف يدل عليه ما قبله أى إن كنتم صادقين فلله المنة عليكم .

●✱●

وكثيراً ما سلى الله وعزى نبيه صلى الله عليه وسلم عن عدم إسلام قومه لأنه كان ينسب نفسه إلى التقصير ولذلك يقول الله له :

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)[2] .

فليس توليهم عنك بضيرك أو يرجع باللائمة عليك ولا التذكير ينفع إلا إذا كان من المؤمنين فإنك إذا ذكرت المؤمن زاده التذكير هدى وقوة يقين .

●★●

وقد طيب الله قلوب عباده المؤمنين بأن ألحق بهم ذريتهم المؤمنين فقال :

---

(١) الحجرات (٢) الذاريات

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ)(١) .

لقد بين الله حال الأبناء الذين شاركوا آباءهم فى الإيمان وإن كان إيمان الأبناء يقصر عن رتبة إيمان الآباء ولكنه سبحانه ألحقهم بآبائهم فى الدرجة كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال إنه تعالى : يرفع ذرية المؤمن فى درجة وإن كانوا دونه لتقر بهم عينه (وما ألتناهم) أى : ما أنقصنا الآباء بهذا الإلحاق من عملهم أى من ثواب عملهم من شىء وإنما رفعنا الأبناء إلى منزلة الآباء بمحض التفضل والإحسان .

● ★ ●

وذكر الله فى أول سورة الحديد الآيات الدالة على التوحيد ثم أمر بالإيمان والإنفاق فقال :

(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)(٢) .

أمر الله بالآية بأمرين : الأيمان بالله ورسوله والإنفاق .

فالإيمان بالله يتطلب الإيمان بذاته وصفاته وبالرسول يتطلب التصديق بما جاء به .

والإنفاق : يشمل الإنفاق الواجب كالزكاة والمندوب كالصدقة وقد طلب الإنفاق من ذلك المال الذى جعلهم خلفاء عنه فى التصرف فيه وقد عبر عما بأيديهم من الأموال والأرزاق بذلك التعبير تحقيقاً للحق وترغيباً لهم فى

---

(١) الطور (٢) الحديد

الإنفاق فإن من علم أنه لله وأنها بمنزلة الوكيل يصرفها إلى من عينه الله تعالى من المصارف هان عليه الإنفاق لأنه ينفذ فقط أمر صاحب المال .

فالذين جمعوا بين الإيمان والإنفاق مما يملكون لهم أجر كبير عند الله وهذا وعد منه .

●★●

وبين الله أن الأجر الكبير أو مضاعفة الأجر يكون لهم يوم القيامة فقال :

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (١) .

قدم صورة للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة وهم يسعى بين أيديهم هداهم وبأيمانهم كتبهم وعملهم الصالح وقيل هو القرآن .

وينادى فيهم : بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) وماذكر من النور والبشرى بالجنات والخلود فيها هو الفوز الذى لاغاية بعده .

● ★ ●

وقد نعى الله على المؤمنين تثاقلهم فى أمور الدين ورخاوة قلوبهم فى تحمل تكاليفه واستبطاء أعمالهم ولم يمض على بدء التكاليف غير أعوام فقال تعالى :

---

(١) الحديد

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)[١] .

أى ألم يجيء الوقت للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ؟ .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين .

وعن ابن عباس رضى الله عنه : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال : ألم يأن) أى ألم يحن الوقت أن تخشع قلوب المؤمنين لذكر الله .

●★★●

وأخبر الله أن الصديقين هم الذين آمنوا بالله ورسله فقال تعالى :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ)[٢] .

والصديق هو وصف لمن كثر صدقه وجمع صدقا إلى صدق فى الإيمان بالله ورسله وقيل إن الآية عامة فى كل من آمن بالله ورسله فقيل كل من آمن بالله ورسله فهو صديق .

وقال ابن عباس الصديقون أى الموحدون .

وقيل إن الآية خاصة ويراد بهم كل من آمن بالله ورسله من أصحاب الرسل حين أتوهم فلم يكذبوهم مثل آل ياسين ومؤمن آل فرعون وغيرهم.

●✱●

وأمر الله المؤمنين أن تكون مفاخراتهم التي يحرصون عليها فى دنياهم

---

(١) الحديد (٢) الحديد

مسابقات فى طلب الآخرة وفى هذه الآية يطلب المسابقة إلى المغفرة والجنة فيقول :

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاءِ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ)[١] .

قيل المراد : سابقوا إلى التوبة ، وقيل سابقوا إلى ما كلفتم به من تكاليف .

وتصوير عرض الجنة بالسماء والأرض تمثيل بما يعقلونه ويقع فى نفوسهم وأكثر مايقع فى النفوس مقدار السموات والأرض .

وهذه الجنة أعدت للذين يؤمنون بالله ورسله وفى ذلك أعظم رجاء وأمل إذ ذكر أن الجنة أعدت لمن آمن بالله ورسله .

●★●

وبعد أن بين كفارة الظهار قال :

(ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ)[٢] .

أي : فعلنا ذلك البيان والتعليم للأحكام لتصدقوا بالله ورسوله فى العمل بشرائعه ولا تستمروا على أحكام الجاهلية من جعل الظهار أقوى أنواع الطلاق .

فآمنوا بالإقرار بهذه الأحكام التى أنزلها الله شريعة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ولابد من الطاعة فى ذلك والتزام حدود الله فيها ، ومن كفر بالحدود فله عذاب مهين .

---

(٢) الحديد (٢) المجادلة

وكان المنافقون أو اليهود يتناجون فى المجالس التى تضم المسلمين ليغيظوا المؤمنين بتناجيهم فقال الله :

(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (١) .

من النجوى ما يكون من الله ولله والمراد بالنجوى فى هذه الآية المعهود السابق فى قوله : لاتتناجوا بالإثم والعدوان ، والمعنى أن الشيطان يحملهم على أن يقدموا على تلك النجوى التى هى سبب لحزن المؤمنين وذلك لأن المؤمنين إذا رأوهم متناجين قالوا ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا إلى الغزوات أنهم قتلوا أو هزموا ويقع ذلك فى قلوبهم ويحزنون له .

وليس يضر المتناجى بالمؤمنين شيئاً وليس الشيطان بضارهم إلا بإذن الله وعلمه وعلى الله فليتوكل المؤمنون » فان من توكل على الله لايخيب له أمل ولا يبطل له سعى .

●✱●

وأخبر الله أن لايجتمع الإيمان بالله واليوم الآخر مع موادة الذين يحادون الله ورسوله ولو كانوا من الآباء أو الإخوان فقال تعالى :

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

(١) المجادلة

تحتها الأنهارُ خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه) [1] .

إذا حل وداد أعداء الله فى قلب لم يحل فيه إيمان ويكون صاحبه منافقا وقيل يجتمعان ولكن اجتماعهما معصية وكبيرة .

فالمؤمنون بالله واليوم الآخر لايجتمع فى قلوبهم حب الله وحب أعدائه ولو كان هؤلاء الأعداء آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .

قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى أبى عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد .

(أولئك كتب الله فى قلوبهم الإيمان) بمعنى فى قلوبهم علامة تعرف بها الملائكة إخلاصهم أو كتب بمعنى : شرح الله صدورهم للايمان .

وقد عدد الله نعمه عليهم بقوله :

كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه (أى بالنصر على عدوهم ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها .

●✶●

وقص الله فى إجلاء بنى النضير عن المدينة أنهم خربوا بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فقال :

(هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ) [2] .

---

(١) المجادلة (٢) الحشر

وقصت السيرة أن بنى النضير صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا عليه ، ولا له فلما ظهر على أعدائه فى بدر قالوا هو النبى المبعوث ، ولما هزم فى أحد ارتابوا ونكثوا وخرج زعيمهم كعب بن الأشرف إلى مكة وحالف أباسفيان فأمر رسول الله محمد بن مسلمة الأنصارى وكان أخا كعب فى الرضاع فقتله ، ثم صبحهم رسول الله وأمرهم بالخروج من المدينة وحاصرهم الرسول إحدى وعشرين ليلة وقذف الله الرعب فى قلوبهم فطلبوا الصلح فأبى الرسول إلا أن يخرجوا إلى الشام وراحوا قبل الخروج يخربون بيوتهم من الداخل حتى لا يتركوها للمسلمين وراح المسلمون يخربونها من الخارج وكان هذا أول حشر لهم وإخراج لهم من جزيرة العرب والحشر الثانى هو حشر القيامة أو الحشر الثانى إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام وذلك قوله تعالى (ما ظننتم أن يخرجوا)

● ★ ●

أثنى على الأنصار حين طابت نفوسهم عن الفىء إذ جعل للمهاجرين دون الأنصار تعويضا لهم عما تركوه فى مكة فقال :

(وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)(١) .

المراد من الدار : المدينة لأنها دار الهجرة تبوأها الأنصار وسكنوها قبل المهاجرين أما تبوؤ الإيمان فعلى تقدير أخلصوا الإيمان أى والذين تبوأوا المدينة من قبلهم أى من قبل المهاجرين وأخلصوا الإيمان يحبون من هاجر

---

(١) الحشر

إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة (أى حسدا وغيظا مما أوتى المهاجرون وأعطوا من الفىء ويؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وهى الفقر

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنصار: إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم وإن شئتم كانت لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم فقالوا لا بل نقسم من ديارنا وأموالنا ولا نشاركهم فى الغنيمة فأنزل الله : ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

●★●

وأتبع الله ذلك بقوله :

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا) (١).

هذا عطف على المهاجرين وهم الذين هاجروا بعد المهاجرين الأوائل وقيل هم التابعون بإحسان وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة وقد ذكر الله أنهم يدعون لأنفسهم ولمن سبقهم بالإيمان وذلك فيما حكاه الله يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غشا وحسدا وبغضا للذين آمنوا .

●★●

وبعد نزول الآية ببيان الحكم فى امتحان المهاجرات وما يترتب على الامتحان أدى المؤمنون ما أمروا به فى الآية من دفع مهور المهاجرات إلى أزواجهن المشركين وأبى المشركون أن يؤدوا شيئا من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين فنزل قوله تعالى :

---

(١) الحشر

(وإنْ فَاتَكُمْ شَىْءٌ منْ أزْوَاجِكُمْ إلى الكُفَّارِ فعاقَبْتُمْ فآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أزْوَاجُهُمْ مِثْلَ ما أنْفَقُوا واتَّقُوا الله الذِى أنْتُمْ بِهِ مؤْمِنُون) (١) .

قوله : وإن فاتكم) أى سبقكم وانفلت منكم شيء من أزواجكم أى شيء من مهور أزواجكم فعاقبتم) أى جاءت نوبتكم من أداء المهر شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب فى الركوب وغيره .

فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) من مهر المهاجرة التى تزوجتموها ولا تؤتوه زوجها الكافر .

قيل معناه إن فاتكم شيء من مهور أزواجكم فأصبتم من الكفار عقبى وهى الغنيمة فآتوا بدل الفائت من الغنيمة واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون فإن الإيمان بالله يقتضى التقوى منه .

●★●

وبعد أن نادى الله المؤمنين ليدلهم على تجارة تنجيهم من عذاب أليم .

قال تعالى :

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نصْرٌ منَ الله وفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرْ المؤْمنِين) (٢) .

وأخرى تحبونها) أى وتجارة أخرى أو وخصلة أخرى تحبونها (نصر من الله) تفسير للأخرى وفتح قريب) قيل هو فتح مكة وقيل فتح فارس والروم .

---

(١) الممتحنة (٢) الصف

(وبشر المؤمنين) عطف على تؤمنون لأنه فى معنى الآمر أى آمنوا وبشر المؤمنين يارسول الله بذلك النصر أو الفتح والفتح رسول البشارة .

●★●

وروى أنه اقتتل أجير لعمر وحليف لابن أبى فشكى حليف بن أبى له مافعل به أجير عمر فقال ابن أبى ما حكاه القرآن فى قوله تعالى : لاتنفقوا على من عند رسول الله) يعنى الفقراء (حتى ينفضوا عنه) ورد الله بقوله : (ولله خزائن السموات والأرض ولـكن المنافقين لايفقهون) .

وقال ابن أبى للأنصار ماحكاه القرآن فى قوله تعالى :

(يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ (ورد الله) ولِلّٰهِ العِزَّةُ ولرسُولِهِ ولِلْمُؤْمنين)[1] .

لقد عنى ابن أبى نفسه بقوله (الأعز) وعنى بالأذل (رسول الله) وكان رد الله على هذا القول إن العزة والغلبة والقوة لله ولمن أعزه الله من رسوله والمؤمنين لالغيرهم ولـكن المنافقين لايعلمون) لفرط جهلهم وغرورهم

وقد روى أن عبد الله بن أبى لما أراد أن يدخل المدينة اعترضه ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبىّ وقال له : لئن لم تقر لرسول الله بالعزة لأضربن عنقك فلما رأى منه الجد قال : أشهد أن العـــزة لله ولرسوله وللمؤمنين فقال النبى صلى الله عليه وسلم لابنه : جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا

●★●

وأخـــبر الله أن ما أصاب الإنسان من مصيبة فبإذن الله وذلك فى قوله تعالى :

---

(١) المنافقون

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)(١) .

المراد بإذن الله : أمره أو تقديره أو قضاؤه أو إرادته ومشيئته أو علمه (يهد قلبه) عند المصيبة أو الموت أو المرض أو الفقر أو القحط حيث يعلم أنه من الله فيسلم لقضائه ويسترجع .

وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فيما جاء به من عند الله واتبعوا الأوامر الصادرة من الله ورسوله فيما دعاكم إليه من الصبر وغيره فإن توليتم عن إجابة الرسول فما على الرسول إلا البلاغ والله هو المعبود بحق المقصود بحق وعليه فليتوكل المؤمنون فالمؤمن لا يعتمد إلا عليه ولا يسلم إلا إليه .

●★●

وحول بيان حكم شرعى فى الطلاق يذكر الله المؤمنين ليتعظوا فيقول :

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)(٢) .

أى إذا قاربن انقضاء أجل العدة فالرجعة والإمساك بالمعروف وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة (دون إبقاء الضرار) وهو أن يراجعها فى آخر العدة ثم يطلقها تطويلا للعدة وتعذيبا لها .

---

(١) التغابن (٢) الطلاق

(وأشهدوا ذوى عدل منكم) أى أشهدوا عند الطلاق وعند الرجعة ذوى عدل وهذا الإشهاد مندوب عند أبى حنيفة وواجب عند الشافعى .

ثم خاطب الشهود بقوله : وأقيموا الشهادة لله) أى أدوها لله دون تغيير أو تحريف (ذلكم) إشارة إلى الحث على الإشهاد أو على جميع ما فى الآية (يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) .

●✱●

وبعد أن ذكر الله القرية التى عتت وأعرضت عن أمر ربها وأنه حاسبها وعذبها فذاقت وبال أمرها وعاقبته قال الله .

(فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الأَلْبَابِ الذِينَ آمنوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِليكُمْ ذِكْراً رسولاً يَتْلو عليكُمْ آياتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ) (١) .

(قد أنزل الله إليكم ذكرا) قيل هو جبريل لكثرة ذكره أو لنزوله بالذكر (ورسولا) بدل منه أى أريد بالذكر الشرف أو هو النبى عليه الصلاة والسلام وعبر عنه بالذكر لمواظبته على قراءة القرآن ويتلو عليكم آيات الله مبينات (نعت لقوله رسولا) وآيات الله القرآن (مبينات) ما تحتاجون إليه من الأحكام أو بمعنى بينها الله تعالى .

●★●

وحول موقف عائشة وحفصة فى قصة التحريم يقول الله وقد ذكر المؤمنين والمؤمنات :

(إِنْ تَتُوبَا إلى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلوبُكُمَا وإِنْ تَظَاهَرا عَليْهِ فإِنَّ

---

(١) الطلاق

اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً)[1] .

روى أنه عليه الصلاة والسلام خلا بمارية فى يوم عائشة . فعلمت بذلك حفصة وأخبرته بعلمها فقال لها ا كتمى وقد حرمت مارية على نفسى واستكتمها فلم تكتم فطلقها واعتزل نسائه تسعاً وعشرين ليلة فى بيت مارية وقوله تعالى : إن تتوبا « خطاب لعائشة وحفصة وصغت قلوبكما » عدلت ومالت عن حق الرسول (وإن تظاهرا عليه) تتعاونا على إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم فإن الله هو مولاه وناصره ولم يضره ذلك التظاهر منكما (ومولاه) وليه وناصره وجبريل كذلك ناصره (وصالح المؤمنين) قال ابن عباس يريد أبا بكر وعمر .

ثم خوف نساء النبى بقوله عسى ربه وعسى من جانب الله واجب ثم وصف الزوجات اللواتى يزوجه الله بهن بقوله : (مسلمات) - (مؤمنات) مصدقات بتوحيد الله مخلصات (قانتات) طائعات (سائحات) صائمات بالنهار أو مهاجرات (ثيبات وأبكارا) لأن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى الدنيا بعضهن ثيبات وبعضهن أبكارا وهن فى الآخرة كذلك .

●★●

وقد كان الكفار يدعون على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى من معه بالهلاك فأمره الله أن يقول لهم (أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم).

---

(١) التحريم

ثم أمره أن يجيبهم بقوله :

(قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا) (١) .

والمعنى أن الله هو الرحمن الرحيم الذى يرحمنا فى الدنيا والآخرة وقد آمنا به وعليه توكلنا فهو لا يقبل دعاءكم علينا لأنكم أهل الكفر والعناد .

●★●

وأوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وقد أمره الله أن يعلن ذلك فى الناس وأمره أن يقول .

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ) (٢) .

فلقد أوحى الله إلى نبيه أن نفراً من الجن قدسمعوا القرآن فقالوا لقومهم حين رجعوا إليهم إنا سمعنا قرآناً أى كلاماً مقروءاً وأنه أبلغ من العجب يهدى إلى الرشد والصواب وقيل يهدى إلى التوحيد فآمنا به أى بالقرآن أو آمنا بالرشد الذى فى القرآن وهو التوحيد .

●★●

وفى إيمان الجن كذلك يقص القرآن قصة النفر الذين صرفهم الله إلى الرسول فسمعوا القرآن وقد حكى الله ذلك فى قوله :

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ (٣) وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي

---

(١) الملك　　(٢) الجن　　(٣) الجن

إلى الْحَقِّ وَإلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يا قَوْمَنا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهَ وآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) .

إن فى الجن من آمن ومنهم من كفر ومؤمنهم يثاب وكافرهم يعاقب .

قال سعيد بن جبير : كانت الجن تستمع فلما رجموا ذهبوا يطلبون السبب، واتفق أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد خرج إلى الطائف يدعو أهلها إلى الإسلام فلما انصرف إلى مكة وكان ببطن نخلة مكان بين الطائف ومكة قام يقرأ القرآن فى صلاة الفجر فسمعوا القرآن وعرفوا سبب رجمهم.

وحين صرف الله الجن إلى رسوله (وحضروه) والضمير للقرآن أوالرسول قال بعضهم لبعض (أنصتوا) أى اسكتوا مستمعين فلما فرغ من القراءة ولوا إلى قومهم منذرين وهذا إنما يكون بعد إيمانهم قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ووصفوه بوصفين : الأول كونه مصدقاً لما بين يديه .

والثانى : أنه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

وهذه الآية تدل على أن محمداً صلى الله عليه وسلم بعث إلى الإنس والجن معاً .

وأن الجن محاسبون على ذنوبهم وأن العصاة منهم يعذبون يوم القيامة .

● ★ ●

وتمضى سورة الجن فى حكاية ما قالوه إلى قوله تعالى يحكى قولهم :

وأَنَّا لَمَّا سَمِعْنا الْهُدَى آمنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فلاَ يَخَافُ بَخْساً ولاَ رَهَقاً) (1) .

---

(1) الجن

والهدى القرآن وسموه هدى لأنه يهدى من آمن به إلى الحق فهم قد آمنوا بالقرآن حين سمعوه فمن يؤمن بربه هذا شرط جوابه جملة مقدرة من المبتدأ والخبر أدخل الفاء عليها أى فهو غير خائف لا يخاف البخس ولا الرهق والبخس : النقص والرهق : الظلم أى لا يخاف جزاء بخس ولا رهق لأنه لم يبخس أحداً حقاً ولا ظلم أحداً .

وقد أجمع المفسرون على أن المـــراد بقوله تعالى ذرنى ومن خلقت وحيداً وانه سيصليه سقر هو الوليد بن المغيرة ثم وصف الله سقر وأن عليها تسعة عشر ملكا ثم قال :

(وما جَعلنا أصحابَ النَّارِ إلاَّ ملائكةً وما جَعلنا عِدَّتهُم إلاَّ فِتنةً لِلَّذينَ كَفروا لِيستيْقِنَ الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ وَيزْدادَ الَّذينَ آمنُوا إيماناً وَلاَ يرْتابَ الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ والمُؤْمنُونَ ولِيَقولَ الَّذينَ فى قُلوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ماذَا أَرادَ الله بِهَذا مَثلاً)[1] .

روى أنه لما نزل قوله : عليها تسعة عشر قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم قال ابن أبي كبشة (كناية عن الرسول) إن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الجمع العظيم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم قال

(١) المدثر

أبو الأشد الجمحى أنا أكفيكم سبعة عشر واكفونى أنتم اثنين، واختار الله خزنة النار من الملائكة ليكونوا بخلاف جنس المعذبين .

وهذا العدد صار فتنة للكفار من حيث إنهم كانوا يستهزئون فيقولون لم لم يكونوا عشرين .

والمراد بالفتنة ما وقعوا فيه بسبب تكذيبهم بعدد الخزنة .

وقد بين الله المقصود من هذا بقوله ليستقين الذين أوتوا الكتاب إلخ الآية .

وقد جعل الله أصحاب النار ملائكة شديدى الخلق لا يقاومون ولا يغلبون وجعل عدتهم امتحاناً للناس ليعلم أهل الكتاب أن هذا الرسول حق فإنه نطق بما يطابق ما بأيديهم من الكتب السماوية ويزداد المؤمنون إيمانا بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم ولا يشك أهل الكتاب فى أخباره أما المنافقون والكافرون فيتساءلون ماذا أراد الله بهذا مثلاأى مثل ذلك وأشباهه مما يؤكد الإيمان فى قلوب أناس ويزلزل بالشك قلوب الآخرين ولله الحكمة فى ذلك وحده .

●★●

وبين الله أنه هدى الإنسان النجدين وهما سبيل الخير وسبيل الشر ثم قال :

(ثُمَّ كَانَ مِنَ الذِينَ آمنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)[1] .

---

(١) البلد

أى : ثم كان مقتحم العقبة من الذين آمنوا فإنه إن لم يكن منهم لم ينتفع بشىء من هذه الطاعات ولا مقتحما للعقبة أو ثم كان فى عاقبة أمره من الذين آمنوا وهو أن يموت على الإيمان وإلى جانب هذا يكون من الذين تواصو بالصبر عن المعاصى وعلى الطاعات والمحن التى يبتلى بها المؤمن، ثم ضم إلى ذلك التواصى بالمرحمة وهو أن يحث بعضهم على أن يرحم المظلوم أو الفقير أو المقدم على منكر .

● ✱ ●

الفصل الخامس

الإيمان فى القصص القرآنى

حول الأنبياء وأقوامهم

إن القصص القرآنى قرآن فهو فى القرآن ومن القرآن ، وليس من وضع محمد صلى الله عليه وسلم كما يزعم الكاذبون ، وحسبنا من دليل على كذب المدعين أنه لم يثبت فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة أنه كان كثير التردد على البوادى ليجمع القصص كما يدعى أدعياء الإسلام كما أنه لم يثبت عنه أنه خرج فى حياته من الجزيرة العربية إلى بلاد فارس أو الروم حتى يمكن أن يقال إنه جمع من هنالك القصص ووضعه فى القرآن ، اللهم إلا تلك الرحلة الخاطفة إلى بلاد الشام مع عمه أبى طالب للتجارة تلك الرحلة التى لقيه فيها بحيرى الراهب وأخبر عمه بما سيكون له من شأن بعد أن لاحت له دلائل نبوته وبعض رحلات تجارية قصيرة .

والله يقول : لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ولقد جاءت كلمة الإيمان فى القصص القرآنى حول الأنبياء فى كثير من سور القرآن .

وسنقدم ما جاء من الإيمان فى القصص القرآنى .

١ ــ نوح ومن بعده من الرسل وموقف أقوامهم من الإيمان .

أمر الله نبيه أن يتلو على قومه نبأ نوح حين قال لقومه إن كان كبر

عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت . . . فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا . . .

ثم قال :

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)(١) .

بين الله أنه أرسل بعد نوح رسلا إلى قومهم مثل هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب فجاءوا بالبينات والحجج الواضحة التى تثبت دعواهم فما كانوا ليؤمنوا أو كان إيمانهم محالا لشدتهم فى الكفر وتصميمهم عليه ، وقد كذبوا بالحق ، وببعثه الرسل وكأن لم يبعث إليهم أحداً ومثل ذلك الطبع والختم يطبع الله على قلوب المعتدين أى أنهم عاندوا ولجوا فى عنادهم وقد وصفهم الله بالاعتداء لأنهم لم يقبلوا دعوة الحق وفى هذا الذى بينه الله تسلية لرسوله حين كذبه أولئك الذين ختم الله على قلوبهم فلم يؤمنوا بما جاء به .

●★●

ولقد أرسل الله نوحاً إلى قومه منذراً ودعاهم إلى عبادة الله وخوفهم من عذابه فقالوا ما نراك إلا بشراً مثلنا ولم يتبعك إلا أرزالنا فناداهم ليبين لهم أنه على من بينة من ربه ثم ناداهم :

(وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا

---

(١) يونس

بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُــوا رَبِّهِمْ وَلَـكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)(١) .

بين لهم أنه لا يسألهم على إنذار تخويفهم من الله ولا على ندائه لهم ألا يعبدوا إلا الله أجراً ولا يطالب منهم ما لا على ذلك وإنما أجره عند ربه وبخصوص طرد الأرذال من فقراء قومه بين لهم أنه ليس بطاردهم من حوله وأنهم سيلاقون الله فيجازيهم على ما فى قلوبهم من الإيمان الصحيح .

وإنكم لتتسافهون بهذا القول على المؤمنين وتدعونهم أراذل وهذا جهل وسفه .

●★●

وطال جدلهم ولم ينفعهم نصح ورموه بالافتراء ورد عليهم إن افتريته فعلى جريمة افترائى ثم أخبر الله عما أوحاه إلى نوح فقال .

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)(٢) .

وأوحى الله إلى نوح فأخبره بأنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن وبهذا أقنطه من إيمان من لم يؤمن وأصبح من المحال أن يقبل على الإيمان أحد بعد الذين آمنوا فسلاه الله ونهاه عن الابتئاس والحزن لعنادهم ومافعلوا من تكذيبه وإيذائه ومعاداته، ولم يكن بد بعد مواقفهم هذه إلا أن ينتقم الله منهم .

(وقد انعكست صورة قوم نوح على كفار قريش فى عنادهم ومطالبة

---

(١) هود (٢) هود

رسول الله بإبعاد الفقراء ، ونهاه الله عن ذلك بقوله : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم » وبهذه القصة التى قصها الله على نبيه يسلى الله نبيه ويعزيه فى أن موقف قومه منه كموقف قوم نوح ودعوته وطالما نادي نوح ربه : (إنى مغلوب فانتصر) .

فأوحى الله إليه : ولا تبتئس ولا تحزن واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ثم كان الطوفان وحكى الله الموقف في قوله:

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)(١) .

وصنع نوح الفلك وسخر منه قومه ما سخروا وطالما هددهم بقوله : سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه .

وجاء أمر الله وفار التنور .

« والتنور » قال فيه المفسرون وأكثروا فقال بعضهم . هو التنور الذى يخبز فيه وقيل إن العرب تسمى وجه الأرض تنوراً وأن الماء انفجر من وجه الأرض وهو قوله تعالى : وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر .

وقيل التنور : أشرف وأعلى مكان فى الأرض فأخرج الله الماء منه ليكون معجزة لنوح .

---

(١) هود

وقيل فار التنور : اشتد الأمر وكثر الماء (وفار نبع) .

وأمر الله نوحاً أن يحمل في سفينته من كل زوجين اثنين (أى من كل شيئين يكون أحدهما ذكر والآخر أنثى) لبقاء الأجناس .

وأن يحمل أهله « إلا من سبق عليه القول » .

(ومن آمن وما آمن معه إلا قليل) قيل كان المؤمنون ثمانين .

● ★ ●

وأعاد الله ذكر قصة نوح فى سورة الشعراء ليقدم تكذيب قومه له وليمهد تسلية النبى محمد صلى الله عليه وسلم وتعزيته فى تكذيب قومه له فقدم الله قصة نوح فى إيجاز بين ما ذكر من قصص تكذيب أقوام الرسل لرسل الله فقال .

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ، قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِى وَمَنْ مَعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)[1] .

---

(١) هود

وقوله أخوهم ، يدل على أنه كان منهم فليس بالغريب عنهم حتى ينفروا من دعوته .

وقوله : « ألا تتقون » قدمها للتخويف وقد كررها فى الآيات فالأولى : يراد بها ألا تتقون مخالفتى وأنا رسول الله ، والثانية : ألا تتقون مخالفتى ولست آخذاً منكم أجراً .

وقد وصف نفسه بأمرين : الأول : إنى لكم رسول أمين والثانى : وما أسألكم عليه من أجر ولما قدم ذلك قالوا له : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟ واسترذلوا أتباعه لوضاعة نسبهم وفقرهم وقيل كانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحياكة والحجامة وقيل أرادوا بقولهم : الأرذلون : أنهم لم يؤمنوا عن بصيرة وإنما آمنوا بالهوى والطمع ولذلك كان جوابه (وما علمى بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربى) فلا أعتبر إلا بالظاهر من أمرهم دون ما يخفى (لو تشعرون) بذلك ولما سأله القوم إبعادهم أجابهم (وما أنا بطارد المؤمنين والذى يمنع من طرده لهم أنهم آمنوا برسالته .

ولم يبق قومه أمام هذا إلا تهديده : لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين وبهذا خوفوه بقتله ورجمه بالحجارة وعندئذ استولى اليأس على نوح فنادى ربه : « ربى إن قومى كذبون فافتح بينى وبينهم فتحاً » والفتح : الحكم أى فاحكم بينى وبينهم حكما وأراد بالحكم إنزال العقوبة عليهم لأنه قال : (ونجنى) وذكر النجاة يفيد معنى الحكم الذى يريده وهو العقاب عقاب المخالفين ونجاته مما يمكن أن يحل بهم .

فكان الطوفان وكانت السفينة وفيها نجى الله نوحاً ومن آمن معه وأغرق الله الباقين ممن كانوا يخالفونه وتنكروا لدعوته وكانت النجاة فى

الفلك المشحون (المملوء) وفى ذلك الذى ساق الله من قصص آية وما كان أكثر هؤلاء بمؤمنين بدعوته وفى عدم إيمان أكثرهم تعزية للرسول لأن أكثر قومه كذلك لم يؤمنوا بما جاء به .

●★●

وذكر الله فى سورة الصافات نداء نوح له وإنجاءه له ولأهله من الكرب وجعل ذريته البقية الباقية وقد جزاه الله جزاء المحسنين لأنه من عباده المؤمنين وأنه أغرق الآخرين ممن لم يؤمنوا فقال تعالى :

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِى الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ)[1]

ونداء نوح كان لإنجائه من الغرق أو لإنجائه من القتل الذى هددوا به فى قولهم : لتكونن من المرجومين وكان نداء المخلص سببا للاجابة فأنعم الله عليه بما يأتى :

١ — نجاته من الكرب العظيم وهو الغرق أو الإيذاء والقتل .

٢ — جعل ذريته البقية الباقية من بنى آدم بعد إفناء كل من لم يؤمن وبقى من ذريته الذين حملهم معه فى الفلك أولاده الثلاثة : سام أبو العرب والفرس والروم وحام أبو السودان ويافث أبو الترك ومع الأولاد الثلاثة زوجاتهم .

---

(١) الصافات

وقد ترك الله ذكره فى الآخرين « سلام على نوح فى العالمين ، ومعناها الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم فقد أثبت الله التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والإنس والجن ثم قال « كذلك نجزى المحسنين » أى كذلك الجزاء الذى جازينا به نوحا نجزى كل محسن بأنه كان من عبادنا المؤمنين وذلك لبيان أن أعظم الدرجات للايمان بالله وأن من آمن بالله وانقاد لطاعته كان فى أعظم الدرجات وأشرف المقامات عند الله .

●✻●

ونادى نوح ربه حين كفر قومه برسالته التى دعا بها إلى عبادة الله وحكى الله دعاءه فى قوله :

(رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا)(١)

(دياراً) أى نازل ديار وإن نوحا يدعوا الله ألا يجعل منهم أحداً يسكن دياراً وذلك كناية عن إبادتهم لأنك إن تركتهم أحياء أضلوا عبادك ولا يلدون إلا الفاجر الكثير الكفر .

ثم دعا بالغفران له ولوالديه ، قيل بين آدم ونوح عشرة آباء لم يكن منهم كافر فهو يدعو بالغفران لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين ثم للمؤمنين عامة بالله وبه وبرسالته وما جاء به ثم دعا على الظالمين أن يزيدهم الله تباراً وهلاكا .

---

(١) نوح

قصة هود :

وقص الله قصة هود فى الأعراف وهود والشعراء والحاقة وهى القصص التى ورد فيها ذكر الإيمان موضوع هذا الكتاب .

وقد قال الله فى قصة هود فى سورة الأعراف :

(وَإِلى عَادٍ أخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ قالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّى وَأَنا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ قالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِى فِى أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ) (١) .

---

(١) الأعراف

لم يذكر الله فى قصة هود أنه أرسله إلى قومه كما قال فى نوح ولقد أرسلنا نوحا إلىقومه، وقد اتفقوا على أن هوداً ما كانٍ أخا لمن أرسل إليهم وليس منهم فى الدين على رأي .

فقال الملأ ممن كفروا إنا لنراك فى سفاهة وحمق ونظنك من الكاذبين وأجابهم : ليس بى سفاهة إنى رسول من رب العالمين ومهمتى تبليغ الرسالة وأنا لكم ناصح أمين وهل عجبتم أن جاءتكم الدعوة عن طريق رجل منكم ينذركم واذكروا حين جعلكم الله خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم بسطة فاذكروا نعم الله لعلكم تفلحون قالوا أجئتنا لعبادة الله وترك ما عبد آباؤنا فأتنا بالعذاب الذى تتوعدنا به إن كنت صادقا قال قد وقع عليكم وحل بكم عذاب من ربكم وغضب أتجادلوننى فى تلك الأسماء التى سميتموها آلهة أنتم وآباؤكم فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ثم نزل وعيد الله فأهلكهم ونجى الله هوداً ومن معه برحمة من الله واستأصل الذين كذبوا بآيات الله ولم يكونوا مؤمنين مع إثبات تكذيبهم بآيات الله ، وقد خص الهلاك المكذبين ونجى الله المؤمنين .

●✱●

وفى سورة هود والتى سماها الله باسم بنى قوم عاد بدأ القصة بقوله : وإلى عاد أخاهم هوداً .

وبدأ دعوته بنداء قومه : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ورماهم بالافتراء على الله باتخاذهم الأوثان شركاء له ، وكل رسل الله وأنبيائه واجهوا أقوامهم بالنصح والبعد عن عبادة الأوثان ثم ناداهم : « يا قوم » ليجذب قلوبهم إليه لأنهم أهله الذى يريد لهم الخير وقال لهم بعد ندائه :

لا أسألكم أجراً على نصحى وليس أجرى إلا على الله الذى خلقنى وعاد يطمعهم فى نعم الله بعد أن يستغفروا ربهم ويقلعوا عن عبادة أوثانهم ويتوبوا إلى الله عما فرط منهم ، ثم نهاهم عن التولى والإعراض وحكى الله ردهم على هود فى قوله :

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)(١) .

وكان جوابهم : إنك ما جئت بآية بينة تدل على أنك مرسل إلينا .

فنفت عاد مجىء الآية إليهم ثم نفوا فى تأكيد أن يتركوا آلهتهم ونفوا فى تأكيد كذلك إيمانهم وتصديقهم فيما يدعوهم إليه وقصدوا بهذا التأكيد إقناطه فى الإجابة .

ثم رموه بأنه أصيب بخبل أو سوء أصابه به بعض الآلهة حين غضب عليه لما نادى به ، ثم أشهد الله وأشهدهم أنه برىء من إشراكهم وطلب منهم أن يكيدوا له ما وسعهم الكيد وأعلن أنه متوكل على الله ربه وربهم ورب كل دابة أخذ الله بناصيتها فسيرها كما يشاء ودبر وحده أمرها وصرفه ولا شريك له فى تدبير شئون خلقه .

●★●

فإن تولوا وأعرضوا فإن الله لقادر على أن يهلككم ويستخلف فى هذه الأرض قوماً غيركم ثم قال الله :

(وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)(٢) .

---

(١) هود (٢) هود

وحين جاء أمر الله ونزل بهـم قضاؤه فى تلك الريح العاتية التى سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام أبادتهم فلا ترى العين أثرا لهم ونجى الله هوداً والذين آمنوا معه وشملتهم رحمة الله فلم يصبهم ما أصاب من العذاب الغليظ الذى بعثه الله عليهم سموماً تدخل فى أنوفهم وتخرج من أدبارهم فتقطعهم عضواً عضواً حتى تناثروا أشلاء .

تلك هى قصة عاد الذين جحدوا بآيات الله وعصوا رسوله واتبعوا أمر جباريهم وعنادهم فهم ملعونون يوم القيامة ، ألا بعداً وهلاكا لعاد قوم هود .

وإن الله حين يضع قصة عاد بين يدى كفار قريش وغيرهم ممن تولوا عن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم يريد تخويفهم وإرهابهم لأنهم ليسوا فى قوة وبطش كقوة عاد الذين دمرهم الله وليضع كذلك بين يدى رسله ما يسليه ويعزيه فى تكذيب قومه له فليس أول رسول كذبه قومه فكم قبله من الرسل من كذبهم أقوامهم وحلت بهم لعنة الله .

وبعد أن قدم الله فى سورة الشعراء تكذيب قوم نوح له فى قوله : « كذبت قوم نوح المرسلين » قدم قصة عاد وتكذيبهم لهود فقال :

(كَذَّبَتْ عادٌ المرسَلِينْ إذْ قالَ لَهمْ أخوهُمْ هُودٌ ألاَ تَتَّقُون إنِّى لكُمْ رَسُولٌ أمِين فاتقُوا اللهَ وَأطِيعُونِ وما أسْألكُمْ عليْهِ مِنْ أجْرٍ إنْ أجْرِى إلاَّ عَلَى رَبِّ العالَمِينْ أتبنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تعْبثُون وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإذَا بَطشْتُمْ بَطشْتُمْ جَبَّارِينَ فاتقُوا اللهَ وَأطِيعُونِ وَاتقُوا الَّذِى أمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أمَدَّكُمْ بأَنْعامٍ وَبَنِينْ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونْ إنِّى أخافُ عَليكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أوَعَظْتَ أمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينْ إنْ هَـذَا إلاَّ خُلُقُ

الأَوَّلِين وَما نَحنُ بِمُعَذَّبِينَ فَكَذَّبُوه فأَهلَكْنَاهُمْ إِنَّ فى ذلِكَ لآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمْ) (١) .

لقد افتتح الله القصة بما افتتح به قصة نوح والاختلاف فى إسم المرسل فقط ففاتحة القصتين واحدة إلى قوله إن أجرى إلا على رب العالمين فكلاهما قال لقومه : (ألا تتقون) وتخافون الله (إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ثم قال: أتبنون بكل ريع آية تعبثون) والآية الجبل فهم كانوا لثرائهم يبنون بما تغله عليهم الأرض علما يعبثون فيه بمن يمر فى الطريق إلى هود (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) والمصانع : القصور : الحصون يرجون بذلك الخلد فى الدنيا أو يشبه حالهم حال المخلدين (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) وهم مع ذلك الصرف يتعاملون مع غيرهم معاملة الجبارين الباطشين ، ثم عاد يأمرهم بالتقوى والطاعة زيادة فى دعائهم إلى الآخرة وزجراً لهم عن حب الدنيا والاشتغال بها ، ثم انتقل إلى الأمر بتقوى من أنعم عليهم وأمدهم بالمال والبنين والجنات ثم خوفهم بالعذاب العظيم إذا هم استمروا فى تكذيبه .

وكان جوابهم إنه يستوى عندنا ما تفعله من الوعظ وما لم تفعل ، أو أكنت واعظاً أو لم تكن .

وإن فى ذلك لآية لمن هيأه الله للانتفاع بالآيات وما كان أكثرهم مؤمنين بما جاء به هود وهكذا يشير الله إلى أن أقوام الرسل لم يؤمن أكثرهم برسالاتهم وما دعوا إليه .

●★●

---

(١) الأعراف

قصة صالح :

لقد أرسل الله صالحا عليه السلام إلى قومه ثمود وهو اسم لتلك القبيلة أو الحى أو اسم : أبيهم الأكبر فقال لهم ماقال الرسل من قبله : اعبدوا الله مالكم من إله غيره، وقد روى أن عادا لما هلكت خلفتهم ثمود فى أرضهم وديارهم وكانوا أطول أعمارا فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا فى سعة ورخاء فعثوا وأفسدوا فى الأرض وعبدوا الأوثان فأرسل الله إليهم صالحا من أوسط بيوتهم فدعاهم إلى الله فلم يتبعه إلا القليل منهم فحذر وأنذر فسألوه آية تدل على صدق نبوته فقال : هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) .

وبعد أن تمخضت الصخرة فولدت الناقة العظيمة التى طلبوها .

(قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ : يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)[1]

---

(١) الأعراف

وبدأ الحوار بين المستكبرين من قومه وبين المستضعفين من المؤمنين أو منهم ومن غيرهم .

قال المستكبرون : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه (أهو رسول الله حقا) .

قال المستضعفون ممن آمنوا : إنا بما أرسل به مؤمنون) وبهذا أعلنوا إيمانهم بدعوة صالح مؤكدين إيمانهم بهذا الأسلوب .

قال المستكبرون : إنا بالذى آمنتم به كافرون (وبهذا أعلنوا كفرهم وإصرارهم على الكفر بالذى آمن به المستضعفون المؤمنون)

وبدأت مرحلة تحدى المعجزة على الرغم من تحذير صالح لهم ألا يمسوها بسوء فينزل بهم عذاب الله ، فعقروا الناقة) وأسند العقر إلى الجميع لأنه كان برضاهم فكأنهم اشتركوا جميعا فى عقرها (وعتوا عن أمر ربهم) وتولوا واستكبروا عن امتثال أمر الله عاتين فيما فعلوا .

وكان أمر الله قول صالح لهم : ذروها تأكل فى أرض الله ولاتمسوها بسوء وتحدوا صالحا أن يأتيهم بما توعدهم به إن كان حقا من المرسلين .

(فأخذتهم الرجفة) الصيحة التى زلزلت الأرض فأصبحوا فى دارهم جاثمين) هامدين موتى لا يتحركون) .

●★●

وفى سورة هود قص الله أنه أرسل إلى ثمود أخاهم صالحا يدعوهم إلى عبادة إله مالهم غيره من إله وبين لهم أنه هو الذى أنشأهم وخلقهم من الأرض وأمرهم بالعمارة فيها وطلب منهم أن يستغفروا ربهم فيما جنوا من الآثام وأن يتوبوا إليه وهو القريب منهم المجيب لدعائهم إذا استغفروا وتابوا .

ودار الحوار بينهم وبين صالح .

حتى قال الله :

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ)(١)

وجاء أمر الله فنجى الله صالحا ومن آمن معه وكانت نجاتهم برحمة من الله ونجاهم الله من الخزى والمهانة والفضيحة ولاخزى أعظم من خزى الذى كان هلاكه بغضب الله وانتقامه ، وكان ماحاق بهم نتيجة كفرهم بالله (ألا بُعْداً لثمود) وهلاكا لهم حيث كفروا بربهم :

● ★ ●

وفى سورة الشعراء عرض الله تكذيب ثمود لصالح .

ثم قال :

(أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ

---

(١) الشعراء

يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ عَظِيمٍ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)[1] .

يذكرهم الله بالنعمة وقد خلاهم يتمتعون بما فى هذه الأرض من الجنات والعيون والزروع والنخيل التى طلعها لطيف ضامر والبيوت الفارهة الكيسة الجميلة التى نحتوها من الجبال وبعد التذكير بتلك النعم أمرهم بتقوى الله وإطاعته ونهاهم عن إطاعة المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون

فرموه بأنه مُسَحَّر غُلب على عقله ، وقصروه على البشرية مثلهم وكأنهم ينكرون أن يكون رسل الله من البشر ، ثم طلبوا منه آية تدل على رسالته إن كان صادقا فى دعواه فقال : هذه ناقة الله وزاد فى هذا العرض أنها تشرب يوما ، وتمنعون فيه أنعامكم عن الشراب ، وتمتنع هى يوما وتسقون أنتم أنعامكم ، ونهاهم عن مساسها وإلا أخذهم عذاب عظيم من الله ، فعقروها ثم ندموا على مافعلوا فأخذهم عذاب الله الذى لا مفر منه (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) وبهذا أعلن الله أن أكثر ثمود لم يؤمن برسالة صالح وبدعوته .

● ★ ●

وبين الله فى سورة النمل أنه أرسل إلى ثمود أخاهم صالحا فدعاهم إلى عبادة الله فانقسموا إلى فريقين يختصمون حول الإيمان وعدم الإيمان برسالة صالح ، وكان فى المدينة تسعة رهط (تسعة أنفس) من المفسدين تقاسموا

---

(١) الشعراء

وتحالفوا وتظاهروا عليه لنبيتنه ولنباغتنه هو وأهله ، وكان لصالح مكان في الشعب يتعبد فيه ، فلما جاءوا الشعب أرسل الله عليهم صخرة طبقت فم الشعب فلم يدر قومهم أين هم وعذبهم فى مكانهم كما عذب قومهم ودمرهم الله أجمعين وخويت بيوتهم منهم بسبب ظلمهم ثم قال الله :

(وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)[1] .

وحقق الله النجاة لصالح ومن آمن معه واتقوا ربهم بعد أن دمر أعداءه قبل أن يباغتوه ، ويقضوا عليه (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا) .

● ★ ●

وفى سورة فصلت قص الله قصة عاد واستكبارهم فى الأرض ولم نعرضها لأنه لم يذكر فيها كلمة الإيمان .

ثم ذكر الله قصة ثمود فى إيجاز ، وكان ذكر القصتين فى إيجاز بعد أن أنذر الله قريشا صاعقة (مثل صاعقة عاد وثمود وعرض قصة عاد ثم قال تعالى فى قصة ثمود .

(وأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)[1] .

قوله : (فهديناهم) دللناهم على طريق الضلالة والرشد كقوله تعالى وهديناه النجدين (طريق الخيروطريق الشر) (فاستحبوا العمى على الهدى)

---

(١) النمل (٢) فصلت

فاختاروا الدخول فى الضلالة على الدخول فى الرشد (فأخذتهم صاعقة العذاب) داهية العذاب وقارعته (الهون) الهوان والذل وصف للعذاب بما كانوا يكسبون) من شركهم وتكذيبهم صالحا وعقر الناقة (ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقد نجى الله من آمن بصالح ودعوته واتقى الأعمال التى كان يأتى بها قوم عاد وثمود .

قصة شعيب :

ذكر الله قصة شعيب فى سورة الأعراف وهود والقصص والشعراء .

فقال فى سورة الأعراف :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ[1] إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا

ومَا يَكُونُ لَنَا أنْ نَعُودَ فيهَا إلَّا أنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلماً عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا افتَحْ بَيْنَنا وبَيْنَ قَوْمِنَا بالحَقِّ وأنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ وقَال الملأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتم شُعَيْباً إنَّكُم إذًا لخاسِرُونَ فأخَذَتْهمُ الرَّجْفَةُ فأصبَحُوا فى دَارِهِمْ جاثِمِين الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوا فيهَا الذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الخَاسِرِينْ فتَوَلَّى عَنْهُمْ وقالَ يا قَوْمِ لَقدْ أبلغْتكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ونَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلَى قَوْمٍ كافِرِينْ).

التقدير فى قوله وإلى مدين (وأرسلنا إلى مدين) .

ومدين اسم القبيلة أو البلد ، وأخوّة شعيب لهم أخوة فى النسب .

وقد حكى الله عن شعيب أنه أمر قومه بأشياء :

١ — أمرهم بعبادة الله ونهاهم عن عبادة غيره .

٢ — أنه أعلن النبوة وقال لهم : قد جاءتكم بينة من ربكم .

٣ — أنه قال لهم : أوفوا الكيل والميزان ، والمفهوم من ذلك أنهم اعتادوا بخس الكيل وتطفيف الميزان (والكيل بمعنى آلة الكيل وآلة الميزان) .

٤ — قال : لاتبخسوا الناس أشياءهم والبخس : التنقيص بجميع الوجوه كالسرقة والرشوة وانتزاع الأموال وقطع الطريق .

٥ — ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها أى منعهم من كل فساد

---

(١) الأعراف

فى الدنيا والدين (وذلكم) إشارة إلى هذه التكاليف الخمسة (خير لكم إن كنتم مؤمنين) بالآخرة وحساب الآخرة ثم ضم إلى ما تقدم من التكاليف توجيهات أخرى:

١ — نهاهم عن القعود بكل صراط موعدين أو صادين عن سبيل الله أو يبغونها عوجا .

٢ — تذكيرهم بأنهم كانوا قلة فكثرهم الله .

٣ — تذكيرهم بعاقبة المفسدين وما لحقهم من الخزى والنكال لعل ذلك يزجرهم ويمنعهم من الفساد .

وعلى الرغم من كل تلك التكاليف والتوجيهات فقد انقسم القوم إلى طائفتين : طائفة آمنت بما أرسل به ، وطائفة لم تؤمن فسلى المؤمنين وهدد الكافرين بقوله :

(فاصبروا حتى يحكم الله بيننا) فى هذه المواقف (وهو خير الحاكمين)

واجتمع المستكبرون من قوم شعيب وواجهوه بما أجمعوا عليه الأمر : تخيير شعيب بين أمرين : بين خروجه ومن آمن معه من القرية وبين عودتهم إلى ملتهم وما يعبدون ، والجواب :

١ — أتعيدوننا فى ملتكم حال كراهتنا أو مع كوننا كارهين لها .

٢ — قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها (وظاهر هذا يدل على أن شعيبا كان على ملتهم ثم نسخها الله عنه بما أوحاه إليه أو أنه يتحدث عن أتباعه المؤمنين وبلسانهم وقد كانوا على ملة الكفر

٣ — وليس لنا أن نعود إلى تلك الملة إلا أن يشاء الله أن يعيدنا إليها والله متعال أن يشاء ردة المؤمن وأن يعيده إلى الكفر .

ثم دعا شعيب ربه : ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ثم نزل بهم عقاب الله فزلزلت الأرض ، وحلت بهم الرجفة والظلمة وأخذهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم فأصبحوا فى ديارهم جاثمين هامدين (كأن لم يغنوا) ويقيموا (فيها) أو كأن لم يعيشوا فيها مستغنيين من الغنى .

● ✱ ●

وفى سورة هود ذكر الله قصة شعيب وقد أرسله إلى مدين فدعاهم إلى عبادة الله ونهاهم عن إنقاص المكيال والميزان وأنه يراهم بخير وسعة وأنه ليخاف عليهم عذاب الله وناداهم فأمرهم بإيفاء المكيال والميزان ونهاهم عن بخس وإنقاص الناس أشياءهم كما نهاهم عن الإفساد فى الأرض ثم قال:

(بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)(١) .

أى ما يبقى لكم من الحلال بعد التنزه عما هو محرم عليكم خير لكم بشرط أن تؤمنوا .

أو ما يبقى خير لكم ان كنتم مصدقى فيما أقول لكم وأنصح به .

ثم كان بين شعيب وقومه : حوار .

ثم هددهم : سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب وجاء أمر الله وأخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين .

ونجى الله شعيبا والذين آمنوا معه من العذاب الذى حل بقومه (ألا بعدا) وهلاكا لمدين كما هلكت ثمود .

---

(١) هود

وفى سورة الشعراء التى تناولت تكذيب أقوام الرسل لرسلهم وردت قصة شعيب وأصحاب الأيكة .

وأخيرا قال الله :

(إِنَّ فى ذلِكَ لآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِين)(١) .

وهذا يدل على أن أصحاب الأيكة لم يؤمن أكثرهم ، وقد حل عذاب الله بتلك الكثرة التى لم تؤمن .

● ✶ ●

قصة إبراهيم :

لقد ذكر الله فى القرآن قصة إبراهيم فى أكثر من سورة .

قال فى سورة البقرة يذكر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بابتلائه لإبراهيم بكلمات قال تعالى :

(وإِذ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّى جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ ومنْ ذُرِّيتِى قالَ لا يَنالُ عَهْدِى الظَّالِمِينْ وإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا منْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُود وَإِذْ قالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمن مِنهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قالَ وَمنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرْ)(١) .

---

(١) البقرة

والـكلمات التى ابتلاه بها : قيل ما ذكره من الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده ، والإسلام الذى جاء قبل فى قوله « أسلم » وقيل هى مناسك الحج والإمام : من يؤتم به وطلب إبراهيم أن يجعل من ذريته أئمة فأجابه الله : لا ينال عهدى الظالمين، فأخبره الله أن الظالم من بنيه لاينال استخلافه وعهده بالإمامة وإنما ينالها العادل البرىء .

وذكر النبى كذلك بأنه جعل البيت (وهو اسم غالب الـكعبة) مثابة ومرجعاً للحجاج يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه وموضع أمن لهم (حرما آمنا) واتخذوا على إرادة القول أى قلنا لهم : اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه أخذ بيد عمر فقال : هـذا مقام إبراهيم فقال عمر أفلا نتخذه مصلى فقال : لم أومر فلم تغب الشمس حتى نزلت : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)، (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل) أمرناهما أى بأن طهرا بيتى والتطهير من الأوثان والأنجاس (للطائفين والعاكفين) المقيمين والركع السجود (المصلين) .

واذكر يا محمد (إذ قال إبراهيم) دعاء إبراهيم لربه (رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم) يعنى يطلب هذا للمؤمنين بالله (واليوم الآخر) .

فرد الله عليه (ومن كفر) والمعنى وأرزق من كفر على سبيل استدراج المرزوق وإلزامه الحجة (فأمتعه قليلا) من المتاع (ثم أضطره) ألزه فى عذاب النار لزالمضطر الذى لايملك الامتناع مما اضطر إليه (وبئس المصير) الذى صار إليه جزاء كفره .

●✱●

وطلب إبراهيم من ربه دليلا محسوساً على البعث وإحياء الموتى فأجابه الله وذلك ما حكاه الله مذكراً لنبيه فى قوله تعالى :

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا) [1] .

قال إبراهيم لربه (أرنى) بصرنى كيف تحيي الموت (قال أولم تؤمن) والله يعلم أنه أثبت الناس إيماناً ولكن ليجيب بما أجاب لما فى ذلك من الفائدة قال (بلى) آمنت (ولكن ليطمئن قلبى) لأن المشاهد أسكن للقلب وأزيد للبصيرة .

(قال فخذ أربعة من الطير) قيل هى كانت: طاووسا وديكا وغرابا وحمامة (فصرهن إليك) أى أجمعهن وضمهن إليك ثم (اجعل على كل جبل منهن جزءا) أى اذبحها وانتف ريشها وقطعها أجزاء واخلط الأجزاء المقطعة والريش ثم فرقها فاجعل على كل جبل من هذا الخليط جزءا (ثم ادعهن يأتينك سعيا) أى نادهن « تعالين » فجعل كل جزء ينضم إلى الآخر حتى تجمع الجسم وانضمت كل رأس إلى أجزاء جسمها ثم ذهب كل ريش إلى جسم طائره فلما تجمع كل طير على حدته جاءت كلها طائرة إلى إبراهيم لتقدم إليه الدليل المشاهد على البعث .

● ★ ●

---

(١) البقرة

وكان دعاء إبراهيم فى سورة إبراهيم :

(ربِّ اجْعلْ هذا البَلَدَ آمِناً واجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أنْ نَعبُدَ الأَصْنَامَ رَبِّ إنَّهُنَّ أضْلَلْنَ كَثِيراً منَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فإِنَّهُ مِنِّي وَمنْ عصَانِي فإنكَ غفورٌ رَحيمٌ رَبَّنا إنِّي أسْكَنْتُ منْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غيرِ ذِي زَرْعٍ عنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ ربَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فاجْعَلْ أفْئِدَةً منَ النَّاسِ تَهْوِي إليْهِمْ وَارْزُقْهُمْ منَ الثَّمَرَاتِ لعَلَّهُمْ يَشْكُرُون ربَّنا إنَّكَ تَعلَمُ مَا نُخْفِي ومَا نُعْلِنُ ومَا يَخْفَى عَلَى اللهِ منْ شَيْءٍ فِي الأرْضِ ولاَ فِي السَّمَاءِ الحمدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إسْمَاعِيلَ وَإسْحاقَ إنَّ رَبِّي لَسمِيعُ الدُّعَاءِ ربِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ ومِنْ ذُرِّيَّتِي ربَّنا وتَقَبَّلْ دُعَاءِ ربَّنا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ)[1].

دعا إبراهيم ربه لمكة بالأمن وأن يثبت اجتنابه عن عبادة الأصنام التى أضلت الكثير من الناس .

وكان إبراهيم قد ترك إسماعيل وأمه فدعا لهما ولمن يكون من ذريتهما وقد تركهما فى واد غير زرع عند البيت الحرام ليقيموا الصلاة ويعمروه بالعبادة وهم متقاربون إليه بالعكوف عند البيت والطواف حوله والركوع والسجود يستنزلون الرحمات التى آثرت بها سكان حرمك فاجعل أفئدة من من أفئدة الناس تسرع وتطير نحوهم شوقا ، وارزقهم من الثمرات مع سكناهم ذلك الوادى الذى لا ينبت شيئا بأن تسوق إليهم الكثير من ثمرات البلاد الأخرى لعلهم يشكرون النعمة التى سقتها إليهم وهم فى ذلك الوادى .

---

(١) إبراهيم

ثم نادى ربه إنك تعلم ما بين جوانحنا من الأسرار وأنت أرحم بنا ولا حاجة إلى إن ندعوك ونطلب منك وإنما دعاؤنا لإظهار عبوديتنا واحتياجنا إليك .

ثم قدم الحمد لله على ما أعطاه على الكبر من ولديه إسماعيل وإسحاق ثم نادى ربه ودعاه أن يجعله مقيما للصلاة وأن يجعل بعد ذريته كذلك .

ثم نادى ربه يسأله الغفران له ولوالديه والمؤمنين يوم القيامة وأن يتجاوز عن سيئاتهم وكان إبراهيم كريما فى دعاء ربه أن يغفر المؤمنين ولم يقصد مؤمنى زمانه بل أراد بدعائه كل من آمن بالله واليوم الآخر والكتب والرسل . وقد طلب إبراهيم الغفران لوالديه ويؤيده قوله لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء .

●✱●

وفى سورة العنكبوت ذكر الله قصة إرسال نوح موجزة ثم عطف عليها قصة إبراهيم ونداءه لقومه : اعبدوا الله واتقوه وفى ذلك الخير إن كنتم تعلمون .

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إن فى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (١) .

لقد قال بعضهم لبعض أو قاله واحد منهم ورضى الباقون عن قوله : اقتلوه أو احرقوه يعنى أن القائلين أو القائل عرضوا على القوم تنفيذ أحد أمرين : القتل أو الإحراق ثم استقر أمرهم على الإحراق فجمعوا الحطب

---

(١) العنكبوت

وأوقدوا النار وألقوا بين لهيبها إبراهيم ولكن الله نجاه من حرها ولهيبها وقال للنار : كوني برداً وسلاما فكانت برداً وسلاما وفي ذلك الذي صنعه الله آيات بينات لقوم يؤمنون بالله وبقدرته وبنصره رسله ومن آمن برسله .

●★●

وفي سورة النساء قال الله :

(فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إبراهيم الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ وآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ) (١) .

أي منهم من آمن بما ذكر من حديث آل إبراهيم ومنهم من صد عنه وأنكره مع علمه بصحته أو من اليهود من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ومنهم من صد عنه أو من آل إبراهيم من آمن بإبراهيم ومنهم من كفر .

● ★ ●

وفي الصافات دعا ربه : رب هب لي من الصالحين فبشره الله بغلام حليم وهو إسماعيل ، ثم رأى في منامه أنه يذبحه فعرض الأمر على ولده إسماعيل فقال : يا أبت إفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فتله للجبين وناداه الله أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفداه الله بذبح عظيم وترك وراءه في الآخرين قولا وذكراً .

(سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) (٢) .

---

(١) النساء (٢) الصافات

ولقد ترك الله للأجيال بعد إبراهيم (سلام على إبراهيم) وقد كان ذكره فى التشهد فى صلاة المؤمنين منذ أمر محمد بالصلاة وجعل فيها التشهد فكان (اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إلخ) كان ذلك هو السلام والذكر وكذلك يجزى الله المحسنين ثم أخبر الله أنه من عباده المؤمنين الذين آمنوا بالله وضحوا وبذلوا الروح والولد فى سبيل ذلك الإيمان الذى أخبر به الله أنه من عباده المؤمنين.

●★●

وفى سورة الشعراء قص الله قصة إبراهيم من قوله تعالى «واتل عليهم نبأ إبراهيم» فذكر دعوته وحواره مع قومه

ثم حكى الله ما ذكر إبراهيم لقومه حول الآخرة وموقفهم يومئذ وما يتمنونه فقال تعالى:

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِين وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللهِ إِنَّا كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) [1].

---

(١) الشعراء

ذكر إبراهيم فى وصف يوم الآخرة أموراً حكاها القرآن وفى القصة كلها تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم .

١ ـ أزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين ، فالجنة تكون قريبة من مواقف السعداء ينظرون إليها ويفرحون بها والنار بارزة مكشوفة للأشقياء يتحسرون على أنهم المسوقون إليها.

٢ ـ (أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون. فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون) .

٣ ـ (قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا إلا المجرمون) وبدأ التخاصم بين الكفار وآلهتهم ومضليهم فأقسم الكفار إنهم لقد كانوا فى ضلال حين سووا بين هذه الحجارة وبين رب العالمين ثم اعترفوا على المجرمين الضالين المضلين بأنهم هم الذين أضلوهم وقادوهم إلى عبادة الأصنام ثم أقروا بأنه لاشافع لهم عندئذ ولاصديق حميم يدفع عنهم العذاب ثم كان التمنى حيث لاينفع وقد تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليكونوا من المؤمنين بالله وبرسالة إبراهيم ودعوته ، وهيهات أن تتحقق أمانيهم وفى كل ماتقدم آية ولكنهم لم يؤمنوا بها وما كان أكثرهم مؤمنين بالله ولا برسالة إبراهيم وأكثر المفسرين على أنهم قوم إبراهيم

قصة إيمان قوم يونس :

لم تؤمن به من القرى بأجمعها إلا قرية نينوى من أرض الموصل وهى التى بها كان قوم يونس وقد دعاهم إلى الله فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا بعد أن هددهم بأن العذاب سيحل بهم جزاء كفرهم بعد أربعين يوما وتركهم يونس ومضت خمس وثلاثون وغامت السماء غيما أسود ورأوا بينه

دخانا شديدا يغشى مدينتهم فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بنسائهم وصبيانهم ودوابهم وعلت أصواتهم بالعجيج بالتوبة وتضرعوا إلى الله أن يرحمهم فكشف الله عنهم العذاب بعد أن أعلنوا إيمانهم جميعا بالله وبرسالة يونس ودعوته .

وقد قص الله ذلك فى سورة يونس فقال :

(فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)(١) .

والمعنى فهلا كانت قرية واحدة من القرى التى أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان فنفعها إيمانها بأن تقبله الله منها (إلا قوم يونس) أى إلا قرية قوم يونس يعنى ما آمنت قرية بأكلها حين دعاها نبى من أنبياء الله إلا قرية يونس وكان إيمان أهلها بعد أن رأوا نذر العذاب وحينما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعهم إلى حين .

●✱●

وقال تعالى فى سورة الأنبياء :

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينْ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ)(٢) .

لاخلاف فى أن (ذا النون) هو يونس عليه السلام .

---

(١) يونس　　　　(٢) الأنبياء

قيل كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت لقوله تعالى : (فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون).

روى عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : دعوة ذى النون فى بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) مادعا بها عبد مسلم قط وهو مكروب إلا استجاب الله دعاءه .

وفى سورة الصافات ذكر الله قصة يونس وقد أبق إلى الفلك المشحون فالتقمه الحوت ولولا أنه كان من المسبحين الذاكرين الله كثيرا للبث فى بطن الحوت إلى يوم القيامة وقد نبذه الله من بطن الحوت بالعراء وهو سقيم وأنبت عليه شجرة من يقطين وهو شجر ينداح على الأرض كالبطيخ لاساق له ثم أرسله الله إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا بما دعاهم إليه ومتعهم الله بسبب إيمانهم إلى حين .

قصة نبي من بني اسرائيل وطالوت :

لم يذكر الله فى تلك القصة اسم ذلك النبى وكل ما ذكر أنه بعد زمن موسى وقد ذكر الله القصة فى قوله : (ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله) .

● ✱ ●

وأراد النبى أن يخبرهم عن آية تدل على الملك الذى اصطفاه الله لهم وحكى الله ذلك فى قوله :

(وقالَ لهَمْ نَبِيُّهُمْ آيَةَ مُلكِهِ أنْ يَأْتِيكُم التَّابُوتُ فِيهِ

---

(١) البقرة

سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين .

ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله)[1] .

وكانت آية الله التى تدل على ملك طالوت هى : التابوت ، والآية لابد أن تكون خارقة للعادة فإتيان التابوت هو المعجزة أو مافى التابوت هو المعجزة .

وقوله : (فيه سكينة) إما أن يكون شيئا حاصلا فى التابوت هو المراد بالسكينة أو فيه سكينة بمعنى تسكنون عند مجيئه وتقرون له بالملك أو السكينة التى فى التابوت شيء لم يعلم ولم يكشف عنه القرآن .

(وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) قالوا هى الألواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة وقيل إن بسبب هذا التابوت ينتظم أمر مابقى

---

(١) البقرة

من الدين والشريعة (تحمله الملائكة) تحمل القابوت «الصندوق» الملائكة (وفى ذلك آية لكم إن كنتم مؤمنين) وهذه هى الآية المعجزة إن كنتم ممن يؤمن بدلالة المعجزة على صدق نبوة المدعى .

فلما فصل طالوت بالجنود الذين اختارهم من الشباب وخرج من معسكرهم الذى تجمعوا فيه قال لهم إن الله مبتليكم ومختبركم ليعلم مدى تحملكم وصبركم على الشدائد (بنهر) وكان الوقت قيظا شديداً قيل هو نهر بين الأردن وفلسطين وقيل نهر الأردن .

فمن شرب من هذا النهر فليس منى ومن لم يذقه فإنه منى الا من غرف غرفة واحدة منه بيده ووقف طالوت ينظر مدى طاعة الجند فى هذا الحر الشديد وهم أمام مياه ذلك النهر فرآهم وقد شرب منه الكثير ودلوا بذلك على عدم صبرهم واحتمالهم واختلف فى العدد القليل الذى لم يشرب استجابة لأمر طالوت فقيل أربعة آلاف وهو قول الحسن وقيل عدد أهل بدر ثلثمائة وبضعة عشر وهم المؤمنون .

وإن الذين عصوا رجعوا فلم يحاربوا وتوجه إلى الحرب من آمن ولم يشرب وبهذا الابتلاء تبين المطيع من العاصى ، وذكر المتخلفون عن المعركة أنهم لا طاقة لهم بجالوت وجنوده .

وقيل إن من يخشى الموت هم الذين قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت أما من أحبوا الموت فى سبيل الله فهم المؤمنون الذين حاربوا مع طالوت وهم الذين قالوا كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين .

● ★ ●

قصة لوط :

وردت قصة لوط فى كثير من سور القرآن .

ففى سورة الحجر ذكر الله قصة قوم لوط بعد ذكر الرسل الذين جاءوا إلى إبراهيم يبشرونه بالحق وأنه قادر على أن يوجد ولدا من غير أبوين فكيف لا يقدر على أن يجىء بولد من شيخ فان وعجوز عاقر ثم سألهم عن أمر مجيئهم فقالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط .

وجاء المرسلون إلى قوم لوط فقال لهم : (إنكم قوم منكرون) تنكركم نفسى وتنفر منكم وأضاف أن تطرقونى بشر قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ويشكون وآتيناك بالحق .

وأمروه أن يسرى بأهله ليلا وأن يقدمهم أمامه حتى لا يشغل قلبه بمن خلفه وحتى لا يتخلف منهم أحد وأمروه ألا يلتفت أحد خلفه لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة وأوحينا إليه أمراً مقضيا وهو أن دابر هؤلاء وآخرهم سيقطع ويستأصلون عند الصباح .

وجاء أهل المدينة مستبشرين فقال لهم لوط : هؤلاء ضيفى فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون قالوا أولم ننهك عن العالمين ، عن أن تجير أحداً من الناس أو تدفع عنهم أو تحول بيننا وبينهم ، قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين تزوجوهن وخلوا ضيفى قالت الملائكة : (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) يتحيرون فكيف يقبلون النصح والتوجيه فأخذتهم النصيحة عند شروق الشمس وجعل عالى القرية أسفلها وأمطرهم حجارة من سجيل « جهنم » ثم قال تعالى :

(إنَّ في ذٰلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ وَإنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ إنَّ فى ذٰلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ)[1] .

والمعنى إن فى ذلك الذى قدمه الله فى قصة لوط وما عوقب به قومه من تدمير قريتهم وجعل أعاليها أسفلها وإرسال المطر عليها ولكنه ليس المطر المعهود وإنما هو حجارة انهمرت عليهم من السماء حجارة من جهنم أبادتهم فى ذلك آيات ودلائل للمتوسمين المتفرسين المتأملين فيما صنع الله بأعداء الأخلاق وإن هذه الآيات لبسبيل : طريق ثابت واضح يسلكه الناس ولم يندرس وتذهب آثاره بعد وإن الناس ليبصرون تلك الآثار التى تدل على عاقبة الباغين المسرفين فى العصيان وارتكاب الفواحش وفى هذا تنبيه لقريش وعبرة لهم عساهم يرجعون عن ضلالهم بعد أن ترى أبصارهم آثار ديار قوم لوط .

(وإن فى ذلك كذلك لآيات للمؤمنين) تزيد من إيمانهم وثقتهم فى قدرة الله وأنه قادر على تدمير العصاة والقادر على تدمير قوم لوط وإنجاء لوط ومن آمن معه قادر على نصرة المؤمنين من أتباع محمد وإنجائهم من أذى أعدائهم .

●★●

وفى سورة الشعراء التى تناولت تكذيب أقوام الرسل لرسل الله وتكذيبهم فيما جاءوا به وردت قصة لوط قال تعالى :

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسَلينَ إذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُون إنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ

---

(١) الحجر

أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ قَالُوا لَئِن لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزاً فِى الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)(١) .

كانت فاتحة القصة كفاتحة القصص السابقة فى هذه السورة من نحو فاتحة قصة نوح وهود وصالح من قوله ألا تتقون إلى قوله إن أجرى إلا على رب العالمين ثم عرض فى صراحة لجريمتهم البشعة وهى إتيان الذكران من العالمين وهى جريمة اختص بها قوم لوط دون غيرهم من سائر البشر، والاستفهام للانكار فهو ينكر عليهم هذه الفاحشة على حين أنهم يتركون ماخلق الله لهم من الأزواج، وهم فى هذا الفعل (عادون) ويتجاوزون الحد فى الإسراف فى الشهوات وليتهم يشتهون النساء وإنما يشتهون الذكور وهم أحقاء بأن يوصفوا بالعدوان لارتكابهم هذه الجريمة، ولم يستجيبوا لنصحه أو ندائه وإنما هددوا وتوعدوا فقالوا (لئن لم تنته) عن نهينا وتقبيح أمرنا لتكونن من المخرجين، ومن جملة من طردناهم وأخرجناهم من ديارنا فهم يهددونه بالنفى من ديارهم إذا لم يترك نصحهم.

(قال إنى لعملكم من القالين) المبغضين لما ترتكبون ولم يسعه أمام

---

(١) الشعراء

هذا الموقف إلا أن يدعو ربه : (رب نجنى وأهلى مما يعملون) من عقوبة عملهم أو نجنى واعصمنى من هذا العمل واستجاب الله دعاءه فنجاه وأهله (إلا عجوزا فى الغابرين).

إلا امرأته فكانت فى الغابرين غير الناجين من العذاب حين حل بهم عقاب الله فنجى الله لوطا ومن آمن معه ثم دمر الآخرين ممن لم يؤمنوا فأمطر عليهم مطرا لم يحسن لهم وإنما ساء مطر المنذرين لأنه كان حجارة تهدم دورهم وتقوض بنيانهم إن فى ذلك لآية لمن يعتبر وما كان أكثرهم مؤمنين بل كانوا كافرين لم يؤمنوا بالله ولا برسالة لوط ولم ينتفعوا بالنداء.

● ✶ ●

وذكر الله فى سورة العنكبوت لوطا مرتين : مرة فى نطاق قصة إبراهيم عليه السلام حينما ندد بقومه وهم يعبدون الأوثان وذكر أن لوطا آمن به وأعلن هجرته إلى ربه وحكى الله موقفه وقوله فى قوله تعالى :

(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى)[1].

قيل إن لوطا كان ابن أخت إبراهيم وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه.

وفى سورة الذاريات ذكرت قصة لوط.

ثم قال تعالى :

(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)[2].

---

(١) العنكبوت (٢) الذاريات

لقد باشر الملائكة ما أمروا به فأخرجوا من القرية من كان مؤمنا بلوط ولم يجدوا فيها غير أهل بيت من المسلمين قيل هم لوط وابنتاه ، وقيل كان لوط وأهل بيته الذين نجو ثلاثة عشر (وتركنا فيها) أى فى القرية (آية) علامة على ماأصاب قوم لوط من العذاب قيل هى تلك الأحجار أو صخر منضود (للذين يخافون العذاب الأليم) أى الذين من شأنهم الخوف لرقة قلوبهم وقيل إن الآية التى تركت فى القرية هى عبارة عن حجارة ملقاة فى ديار تلك القرية وهى بين الشام والحجاز .

● ★ ●

الإيمان فى قصة يوسف :

تآمر إخوة يوسف على قتله حتى يخلو لهم وجه أبيهم واتفقوا على إلقائه فى الجب وأراد منعه منهم خيفة أن يأكله الذئب فلما أخذوه بعد حوارهم مع أبيهم وألقوه فى الجب جاءوا أباهم يبكون .

(قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)(١) .

لقد افتعلوا التسابق الذى شغلهم عن الحفاظ على أخيهم فقالوا لأبيهم لقد ذهبنا نتسابق (وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) كما توقعت (وما أنت بمؤمن) بمصدق لنا فيما نقول ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا وهكذا ترد كلمة الإيمان بمعنى التصديق .

● ✱ ●

---

(١) يوسف

وأدخل يوسف السجن نتيجة المكيدة التى دبرتها له امرأة العزيز لأنه لم يتجاوب مع أهوائها وشهواتها ودخل السجن معه فتيان ورأى كل منهما فى منامه رؤيا وعرض كل منهما رؤياه على يوسف لعله يجد عنده تأويلا لها: رأى أحدهما أنه يعصر خمرا ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه وقال لهما يوسف فيما حكاه الله سبحانه وتعالى :

(قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ)(٢).

لقد وصف يوسف نفسه بما هو فوق علم العلماء وهو الإخبار بالغيب وأنه يخبرهما بما يحمل إليهما من الطعام فى السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ويقول لهما : اليوم يأتيكما طعام كذا فيجدانه كما أخبرهما وجعل ذلك الإخبار طريقا لأن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما ويقبح الشرك وليس هذا الذى يسلكه من باب التزكية ولكنه سبيل ينتفع به فى الدين فكل طعام يرزقانه فى كل يوم يستطيع أن يخبرهما به ويفسره لهما ويؤوله (ذالكما) إشارة إلى تأويل مارأيا وإخباره بالمغيبات مما علمه الله وأوحى به إليه ولم يكن عن طريق تكهن أو تنجيم لأنى تركت أولئك الذين لايؤمنون من أهل مصر ومن كان على دينهم ممن لايؤمنون بالله ولا بالآخرة بل كفروا بهما وبغيرهما واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق

---

(١) يوسف

ويعقوب وبهذا يعلن أنه من ولد إبراهيم وأنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه وبهذا نفى الإيمان عن أولئك الذين ترك ملتهم على حين أنه اتبع ملة آبائه المؤمنين فهو مؤمن من المؤمنين .

● ★ ●

ورأى الملك رؤياه وطلب من يعبرها ويفسرها له وقال الذى نجا من الفتيين أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون الى يوسف السجين وذهب الى يوسف ففسر له ما رأى الملك من سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وفسرها بالسنين وذكر الحل وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى وجاءه رسول الملك فقال له ارجع الى ربك واسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن وقال الملك لهن ماخطبكن اذا راودتن يوسف عن نفسه فاعترفن له وقالت امرأة العزيز لبراءة يوسف : أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين وجاء يوسف وقال الملك إنك لدينا مكين أمين وقال يوسف اجعلنى على خزائن الأرض فجعله وهكذا أمكن الله ليوسف فى الأرض يتبوأ وينزل منها حيث يشاء ثم قال الله :

(نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)(١) .

وقد أخبر الله أن رحمته وعطاءه من الملك والغنى وغيرها من النعم يصيب به من يشاء من عباده ولا يضيع أجر المحسنين فى الآخرة بل كما أحسن إلى المحسنين فى الدنيا يحسن إليهم فى الآخرة جزاء إحسانهم وإن

---

(١) يوسف

أجر الآخرة خير المؤمنين المتقين فالمؤمن يثاب على حسناته فى الدنيا والآخرة والفاجر يعجل له الخير فى الدنيا وما له فى الآخرة من نصيب .

●✻●

الإيمان فى قصة داود وسليمان :

أخبر الله أنه آتى داوود وسليمان علما وحمدا الله على أن فضلهما بذلك على كثير من المؤمنين فقال تعالى :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ)(١) .

لقد آتى الله داود وسليمان طائفة من العلم أو علما غزيرا عملا به وقالا حينما أحسا بمدى علمهما : الحمد لله الذى فضلنا بهذا العلم الذى أعطاه لنا على كثير من عباده المؤمنين والعلم الذى فضلهما به هو العلم بالله وبصفاته واستغراقهما فى هذا العلم بحيث لم يشغلهما شاغل عنه هو الذى فضلا به على المؤمنين وفى الآية الدليل على شرف العلم وإن نعمة العلم من أجل النعم وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا كثيرا على كثير من عباد الله وما لقب العلماء يورثه الأنبياء إلا لمداناتهم لهم فى الشرف والمنزلة بسبب علمهم .

●✻●

إيمان أهل القرى :

لقد أرسل الله أنبياءه إلى أهل القرى لأن القرى مجتمع الناس ، وقد أخذ الله أهل القرى بالبأساء والضراء لعلهم يذكرون الله ويتضرعون إليه

---

(١) النمل

ثم بدلهم مكان السيئة الحسنة فأعطاهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحن رخاء وسعة حتى كثروا ونموا فى أنفسهم وأموالهم ثم أبطرتهم النعمة فقالوا: هذه عادة الدهر يعاقب فى الناس بين الضراء والسراء، وقد مس آباءنا ذلك فلما تنكروا لعطاء الله أخذهم الله بغتة .

ثم قال تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (٢) .

والمعنى : ولو أن أهل القرى آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر واتقوا ما نهى الله عنه وحرمه لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض فأفضنا عليهم من السماء المطر وأنبتنا لهم من الأرض النبات وأخرجنا لهم الثمار وباركنا لهم فى المواشى والأنعام وجمعنا لهم من السماء والأرض الخير الكثير ولكن كذبوا به بالله وبالكتب وبالرسل فأخذناهم وعاقبناهم بالجدوبة والقحط بما كانوا يكسبون من الكفر والمعاصى .

● ✱ ●

ثم ذكر الله أن تلك القرى المذكورة يقص بعض أنبائها على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليذكر قومه بما يذكرهم لهم لعلهم يتعظون ويرتدعون فقال تعالى :

(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

---

(١) الأعراف

بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ)[1].

والمراد بتلك القرى قرى الأقوام الخمسة الذين وصفهم فيما سبق من سورة الأعراف وهم أقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب قص الله أنباءها فى القرآن وبين كيفية إهلاكهم وأسباب الهلاك الذى وقع بهم ولم يكن هنالك من سبب غير تكذيبهم الرسل وتحديهم لدعوتهم ونداءاتهم التى وجهوها لهم بعبادة الله وحده .

وخص الله هذه القرى بالأنباء لأنهم اغتروا بطول الإمهال مع كثرة النعم فحسبوا أنهم على الحق فذكرها الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لتكون بمثابة إنذار لقومه حتي يقلعوا عن عنادهم وتحديهم لدعوتهم وحتى لايحيق بهم عذاب الله الذى حاق بتلك القرى ، وما كان أولئك الكفار ليؤمنوا عند إرسال الرسول بما كذبوا به يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرها وأقروا باللسان وأضمروا التكذيب أو ما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات التى أيد الله رسله بها .

ومثل ذلك الختم والطبع الذى طبعه الله على قلوب الكافرين من أهل الأمم الماضية من قوم نوح وغيرهم مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الكافرين المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم وختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة منهم فهم لم يؤمنوا أبدا .

●★●

---

(١) الأعراف

قصة صاحب يس :

لقد أرسل الله إلى أصحاب القرية (وهى أنطاكية) المرسلين فأرسل اثنين فكذبوهما وأقسموا لهم أنهم رسل عيسى بعثهم دعاة إلى الحق فكذبوا فعززهما الله بثالث فكذبوهم وأقسموا لهم وتطيروا بهم ثم قال الله يحكى قصة صاحب يس وهو الذى جاء من أقصى المدينة يسعى وينادى القوم اتبعوا المرسلين فقال الله يحكى هذه القصة :

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ)[1] .

قيل هذا الرجل الذى جاء من أقصى أنطاكية يسعى هو حبيب ابن إسرائيل النجار وكان من قبل إيمانه ينحت الأصنام وهو ممن آمنوا برسول الله قبل بعثه وبينهما ستمائة سنة .

وقيل كان فى غار يعبد الله فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وناوأ الكفرة فقتلوه وكان يقول لهم وهم يرجمونه : اللهم اهد قومى ، وقبره فى سوق أنطاكية .

ونادى قومه حينما جاء من أقصى المدينة : يا قوم اتبعوا المرسلين

---

(١) المرسلين

اتبعوا من لا يسألكم أجرا على عمله ودعوته وهو لا يريد لقومه إلا ما يريد لنفسه من الخير فى اتباع الحق .

ولقد وضع قوله: وما لى لا أعبد الذى فطرنى موضع وما لكم لا تعبدون الذى فطركم وخلقكم وإليه مرجعكم لأنه يريد بهذا إعلان عبادته للذى فطره وخلقه ولم يقل وإليه أرجع بل قال وإليه ترجعون على سبيل الالتفات.

ثم استمر فى قوله : فأعلن أنه لا يتخذ من دون الله آلهة لا تنفع ولا تضر فإذا أراده الرحمن بضر فهذه الآلهة إذا عبدها لا تغنيه شفاعتها على فرض أنها تشفع ولا تنقذه من غضب الله إذا غضب الله عليه لكفره وأعلن أنه إن فعل ذلك وعبد تلك الآلهة فهو فى ضلال مبين .

وأخيرا أعلن إيمانه وأسمعهم ذلك ليشهدوا له فقال : إنى آمنت بربكم فاسمعون) فإنى لم أومن به سرا خوفا من بطش أوفتك ولكنه الإيمان الذى لا تخيف صاحبه أهوال الظلم والقتل .

● ★ ●

الإيمان فى قصة إلياس :

قال الله تعالى :

(وإنَّ إلْياسَ لَمنَ الْمُرْسَلينَ إذْ قالَ لِقَوْمِهِ ألا تَتَّقُونَ أتَدْعُونَ بَعْلاً وتَذَرُونَ أحْسَنَ الخالِقِين اللهَ ربَّكُمْ وربَّ آبائِكُمُ الأَوَّلين فَكَذَّبوهُ فإنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إلَّا عِبادَ اللهِ المُخلَصِينَ وتَرَكْنا عَلَيْهِ فى الآخِرِين سَلامٌ عَلى إلْيَاسِين إنّا كَذلِكَ نَجْزِى المُحسِنِينَ إنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُؤْمِنِينَ)[1].

(١) الصافات

قيل إلياس هو إدريس عليه السلام وقيل هو نبي من أنبياء بنى إسرائيل من ولد هارون أخى موسى، وأراد الله بهذه القصة تذكير محمد صلى الله عليه وسلم ليذكر قومه بدعوته التى كان قوامها تقوى الله وعبادته ونبذ عبادة الأوثان قال لهم إلياس : أتدعون وتنادون (بعلا) وهو صنم لهم كانوا يعبدونه كهبل والعزى مما عبد العرب وتتركون الله الخالق بل أحسن الخالقين (وأفعل التفضيل أحسن) ليس على بابه كما يقول النحاة لأنه لو كان على بابه لفهم أن غير الله يشترك معه فى الخلق ولكن خلقه أحسن وليس هذا بمنطق الدعاة إلى الله الخالق وحده سبحانه ولما عابهم على عبادة غير الله وهو ذلك البعل صرح بالتوحيد ونفى الشركاء فقال : (الله ربكم ورب آبائكم الأولين) فهو الخليق بأن يعبد (فكذبوه فإنهم لمحضرون) النار يوم القيامة (إلا عباد الله المخلصين) وذلك لأن قومه لم يكذبوه جميعا بل كان منهم من قبل التوحيد فلهذا استثنى فقال : إلا عباد الله المخلصين فإنهم لا يحضرون (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إلياسين) أى أن الله أبقى له ذكرا فى الأجيال الآتية بعده تذكره وتقول (عليه السلام) وكذلك الجزاء الذى جازى الله به إلياسين من حيث ذكره فى الآخرين نجزى كل محسن لأنه من عباد الله المؤمنين به وبرسله وباليوم الآخر .

● ✶ ●

قصة مؤمن آل فرعون :

قال تعالى :

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا

فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)(١) .

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : الصديقون ثلاثة : حبيب النجار مؤمن آل ياسين ومؤمن آل فرعون الذى قال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله، وعلى بن أبى طالب .

وحينما قال موسى : إنى عذت بربى وربكم أن ترجمون ولم يسعه إلا الاستعاذة بالله فى هذا الموقف قيض الله له مؤمنا من آل فرعون : قيل إنه كان ابن عم لفرعون وقيل هو ولى عهده ،

وقيل صاحب الشرطة وكان ذلك الرجل مؤمنا بالله وكتم إيمانه قال لهم على سبيل الإنكار : (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) فهو ينكر عليهم قتله لهذا السبب ولهذا القول على حين أنه جاءكم بالبينات من ربكم وذلك لايوجب القتل فقوله ربى الله ليس مبررا لقتله ومجيئه بالبينات إشارة إلى تقرير نبوته بإظهار المعجزة ، ولا حاجة فى دفع شرة إلى القتل بل يكفيكم أن تمنعوه عن إظهار هذه المقالة ثم تتركوا قتله فإن كان كاذبا فحينئذ لايعود ضرره إلا إليه وإن كان صادقا انتفعتم به .

وقوله (وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) إن مدار الاستدلال الذى يقدمه ذلك المؤمن أن موسى إن كان كاذبا فضرر كذبه مقصور عليه وإن كان صادقا فلاأقل من أن يصل إليكم بعض ما يعدكم وقد كان يتوعدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة فإذا وصل إليهم فى الدنيا عذاب فقد أصابهم بعض الذى يعدهم به .

---

(١) غافر

(إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) إن الله هدى موسى إلى الإتيان بهذه المعجزات ومن هداه الله إلى الإتيان بالمعجزات لا يكون مسرفا كذابا وهذا يدل على علو شأن موسى عن طريق التعريض .

●★●

ونادى مؤمن آل فرعون قومه فقال الله يحكى ذلك :

(وقالَ الَّذِينَ آمنَ يا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قومِ نوحٍ وعادٍ وَثمُودَ والذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ) [1] .

لقد نادى مؤمن آل فرعون قومه حينما رآهم يهمون بقتل موسى فخوفهم مغبة ذلك وعاقبته عليهم فناداهم انى أخاف أن يحل بكم يوم مثل يوم الأحزاب وفسر الأحزاب بقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم والتقدير مثل أيام الأحزاب فجعل الله كل قوم منهم حزبا فقوم نوح حزب ولهم يومهم المعين فى البلاد وهو يوم الطوفان والغرق وقوم عاد حزب ولهم يوم معين فى البلاد هو يوم الريح الصرصر العاتية ، وقوم ثمود حزب ولهم يوم معين فى البلاد يوم الطاغية والرجفة .

وقد خوف ذلك المؤمن آل فرعون أن يكون لهم يوم كتلك الأيام ولهذا ناداهم ياقوم ليشعرهم أنهم أهله وعشيرته وأن مشاعر الخوف عليهم تنتابه ويخشى أن يحل بهم عذاب الله

●★●

ونادى مؤمن آل فرعون كذلك قومه ليتبعوه حتى يهديهم سبيل الرشاد وذلك قد حكاه الله فى قوله تعالى :

---

(١) غافر

(وقالَ الَّذى آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبيلَ الرَّشَادِ) (١) .

فهو يناديهم بقوله : ياقوم ليجذب قلوبهم اليه بقرابته وليأمرهم بعد باتباعه ليهديهم سبيل الرشاد وليس أمره لهم بالاتباع ليكونوا مقلدين له وإنما ليأخذوا من الدلالات مايحقق لهم الهداية وسبيل الرشاد هو سبيل الثواب والخير والرشاد : نقيض الغى .

★●★

قصة أيمان من عذبهم أصحاب الأخدود :

قال الله تعالى :

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ)(٢) .

كثرت القصص والروايات فى أصحاب الأخدود واتفقت الروايات على تعددها فى أنهم قوم من المؤمنين خالفوا قومهم أو ملكا كافراً كان حاكما عليهم فألقاهم فى أخدود وهو شق فى الأرض وتلك الواقعة كانت معروفة لقريش فذكرها الله لينبه المؤمنين على مايلزم من الصبر واحتمال المكاره في سبيل الإيمان .

وروى أن المقتولين هم الجبابرة لأنهم لما ألقوا المؤمنين فى النار عادت النار على الكفرة فأحرقتهم ونجى الله المؤمنين وتأولوا قوله : فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق اى لهم عذاب جهنم فى الآخرة ولهم عذاب الحريق فى الدنيا .

---

(١) غافر (٢) البروج

وقوله : قتل أصحاب الأخدود : يحتمل أن يكون دعاء عليهم بمعنى لعن أصحاب الأخدود .

وقيل الضمير فى (هم) عائد إلى أصحاب الأخدود والمراد من أصحاب الأخدود المقتولون لا القاتلون فيكون المعنى إذا المؤمنون قعود على النار يحترقون مطروحون على النار .

(وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود) إما أن يكونوشهودا بمعنى حضورا أو شهود في الدعوى بمعنى أنه تثبت الدعوى بشهادتهم ولفظة (على) تدل على أنهم على قبح فعلهم بهؤلاء المؤمنين وهولاء إحراقهم بالنـــار كانوا حاضرين مشاهدين أو هم شهود يوم القيامة على ما يفعلون يؤدون الشهادة (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) .

ثم قال تعالى :

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)(١) .

أى أن هؤلاء لم ينقموا ولم يكرهوا ولم ينكروا منهم إلا إيمانهم بالله العزيز القاهر الحميد الذى يستحق الثناء والحمد .

ثم قال الله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)(٢) .

يحتمل أن يكون المراد بهؤلاء أصحاب الأخدود وأصل الفتنة الابتلاء والامتحان وذلك لأن أولئك الكفار امتحنوا أولئك المؤمنين وعرضوهم

---

(١) البروج (٢) البروج

على النار وأحرقوهم فهم بذلك الذي فعلوا قد ابتلوهم، ويحتمل أن يكون المراد كل من فعل الفتنة وحاول أن يبتلي المؤمنين والمؤمنات، وإذا كان المراد أصحاب الأخدود فإن نص الآية يشير إلى المؤمنين ومؤمنات يعني أنه كان بين أولئك الذين عرضوا على النار مؤمنات .

● ★ ●

والفاتنون المبتلون المؤمنين والمؤمنات إذا لم يتوبوا عما جنوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق أى أن العذابين يحصلان فى الآخرة فلهم عذاب جهنم بسبب كفرهم ولهم عذاب الحريق وهو عذاب أشد من الأول بسبب أنهم أحرقوا المؤمنين أو أن عذاب جهنم لهم فى الآخرة ولهم عذاب الحريق فى الدنيا وهو أنه ارتفعت عليهم نار الأخدود الذى أعدوه وألهبوا ناره ليحرقوا المؤمنين فأحرقتهم أى الكفار تلك النار التى أوقدوها .

● ★ ●

الإيمان حول قصة عيسى وموقف أنصاره :

ورد ذكر عيسى فى سورة آل عمران حينما بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم وأنه وجيه فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ومن آياته أنه يكلم الناس فى المهد وأنه من الصالحين، فأنكرت أن يكون لها ولم يمسسها بشر قال الملك كذلك الله يخلق ما يشاء وأمره بين قوله كن فيكون ثم بين مكانته ورسالته والمعجزات التى أيده الله بها فى قوله تعالى وقد حكاها لأمه :

(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ

الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ)[1].

بين الله أنه يعلم عيسى أربعة أشياء:

١ — الكتاب: تعليمه الخط والكتابة.

٢ — الحكمة: تعليمه العلوم وتهذيب الأخلاق لأن كمال الإنسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ومجموعهما هو المسمى بالحكمة.

٣ — التوراة: لأن التوراة كتاب إلهى وفيه أسرار.

٤ — الإنجيل: وهو الكتاب الذى أنزله على عيسى بعد إحاطته بالأسرار العقلية والشرعية ثم قال: « ورسولا » على تقدير ويكلم الناس رسولا وأنى قد جئتكم بآية من ربكم والمراد بالآية الجنس لأن الله عدد هنا أنواعاً من الآيات التى أيده الله بها.

والله سبحانه يؤيد رسله بمعجزات يكون قوم الرسول قد برعوا فيها فأيد موسى بالسحر لأن العناية بالسحر كانت كثيرة فى عهده وأيد عيسى بالطب فى عهد برع فيه الأطباء ولكنهم عجزوا عن معالجة الأكمه والأبرص وكانت من المعجزات التى أيد الله بها عيسى.

١ — أن يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله. ومعنى أخلق أصور وأقدر كهيئة الطير فالهيئة الصورة المهيأة من صنع

---

(١) آل عمران

عيسى أما خلق الحياة فى ذلك الطير فهو من الله تعالى إظهاراً للمعجزة التى يؤيد بها عيسى .

٢ — إبراء الأكمه : وهو الذى عمى بعد أن كان بصيرا أو الذى ولد أعمى .

٣ — إبراء الأبرص وهو مرض يظهر فى جلد الإنسان بياضاً .

٤ — إحياء الموتى بإذن الله : وقال : (بإذن الله) لدفع توهم من اعتقد فيه الألوهية .

٥ — أنه ينبئهم بما يدخرون فى بيوتهم من طعام .

ثم قال : « إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » .

أى فى هذه الدلائل المعجزة آيات لكم إن كنتم مؤمنين بعيسى وبرسالته .

● ★ ●

ثم شرع فى بيان موقف قومه حين أرسل بعد أن كلمهم فى المهد ، وذكر لهم أنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبياً ولكن لم يؤمن كلهم بدعوته بل كفر الكثير منهم وذلك ما حكاه الله قال تعالى :

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)(١) .

فلما أحس عيسى بمعنى علم علماً لاشك فيه أنهم مصرون على الكفر ،

---

(١) آل عمران

وكان اليهود يعرفون أنه المسيح المبشر به في التوراة وأنه ينسخ دينهم فلما أظهر الدعوة إلى الله اشتد غضبهم وطلبوا قتله .

وقيل إن قوله : (من أنصارى إلى الله) إنما كان فى آخر أمره حين اجتمع اليهود على قتله .

والتقدير : من أنصارى حين التجائى إلى الله أو إلى أن أبين أمر الله « قال الحواريون » وهم خاصة الرجل (نحن أنصار الله) أى نحن أنصار دين الله وأنصار أنبيائه (آمنا بالله) والإيمان يوجب نصرة دين الله (واشهد بأنا مسلمون) أى منقادون .

وقد قالوا :

(رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)[١]

أى اكتبنا فى جملة من شهد لك بالتوحيد ولأنبيائك بالتصديق .

وهكذا أعلن الحواريون أنهم أنصار الله وأنهم آمنوا به وأشهدوا الله على إسلامهم .

ثم نادوا ربهم ليعلموه : أنهم آمنوا بما أنزل على عيسى من الكتب وما أنزل قبله وأنهم اتبعوا دعوته .

●★●

وقال تعالى :

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)[٢] .

---

(١) آل عمران (٢) المائدة

يذكر الله عيسى بإيحائه للحواريين أن يؤمنوا بربهم وبرسوله وإعلانهم إيمانهم فى قولهم آمنا أى آمنا بالله وبرسوله وأشهدوا عيسى على أنهم مسلمون والإيحاء مختلف فيه على ضوء مكانة الحواريين فبعضهم يقول: إنهم أنبياء فيكون الإيحاء لهم عن طريق ملك الوحى وبعض يقول: إنهم لم يكونوا أنبياء فيكون الإيحاء عن طريق الإلهام كالإيحاء وإلى أم موسى فى قوله تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه).

وقد فسر ما أوحى به إليهم بقوله: أن آمنوا بى وبرسولى (أى آمنوا بى وبرسولى) وإعلان ذلك الإيمان هو ما ألهم الله به الحواريين وحينما ألقى الوحى فى قلوبهم آمنوا وأسلموا.

●★●

وذكر الله عيسى بطلب الحواريين للمائدة فقال تعالى:

(إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (١).

اذكر (إذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم) فنادوه باسمه وكنيته الحقيقية فهو عيسى بن مريم وليس ابن الله كما يدعى المدعون.

لقد سألوا عيسى: هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟.

قال السدى: معنى هل يستطيع: هل يطيعك ربك إن سألته مائدة من السماء.

وقال عيسى للحواريين: (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى اتقوا الله

---

(١) المائدة

فى تعيين المعجزة فان هذا من التعنت والتحكم ، وقيل إنه أمرهم بالتقوى لتكون سببا لحصول هذا المطلوب كما قال تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) فإن كنتم مؤمنين بقدرته سبحانه وتعالى فاتقوا الله لتصير تقواكم وسيلة للحصول على المطلوب .

●★●

وفى سورة الحديد ذكر الله أنه أرسل نوحا وإبراهيم وجعل فى ذريتهما النبوة والكتاب ثم قال تعالى :

(ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)(١) .

المراد أنه تعالى أرسل الرسل بعضهم بعد بعض إلى أن انتهى إلى أيام عيسى وآتاه الإنجيل .

وجعل فى قلوب أتباعه رأفة ورحمة فهم متوادون بعضهم مع بعض وهم متراحمون كما جعل فيهم رهبانية قد ابتدعوها أى أحدثوها وليس ابتداعها مذمة لهم والمراد ترهبهم فى الجبال فارين من الفتنة فى الدين مخلصين أنفسهم للعبادة كلفوا أنفسهم زيادة على العبادات أموراً زائدة كلبس الخشن من الثياب واعتزال النساء والتعبد فى الغيران والكهوف .

---

(١) الحديد

(فما رعوها حق رعايتها) أى ابتدعوا الرهبانية ومارعوها حق الرعاية بل ضموا إليها التثليث وقد أقام منهم عليها فريق كانوا على دين عيسى حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم فآمنوا به وإنما ما كتبناها عليهم إلا ليتوسلوا بها إلى الله مرضاة له ولـكن بعضهم طلب بها الدنيا .

فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم أى الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم منهم آتيناهم أجرهم، والمعنى أن بعضهم قام برعايتها وكثير منهم أظهر الفسق وترك تلك الطريقة ظاهراً وباطناً .

●★●

قصة قارون ومشاعر الناس حول ثرائه :

لقد كان قارون من قوم موسى فبغى وآتاه الله كنوزا تنوء بمفاتيح خزائنها الجماعات من الناس وحكى الله مشاعر الناس حول ثرائه حينما خرج عليهم فى زينته فقال الله :

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)[1] .

لقد خرج قارون على قومه فى أظهر زينة وأجمل لباس ولـكن الناس لما رأوه على تلك الحالة من الزينة لعب الشيطان برءوس البعض فتمنوا أن يكون لهم من المال والثراء ما يستطيعون به أن يحققوا لأهوائهم تلك المظاهر الدنيوية الخلابة كقارون وقالوا إنه لذو حظ عظيم فى الحياة .

---

(١) القصص

وسمع مقالتهم فريق من العلماء وأهل الدين والزهد فقالوا للذين تمنوا : ويلكم ثواب الله خير للمؤمنين العاملين الصالحات فأولئك ثوابهم فى الآخرة عظيم حيث يتمتعون بما أعده الله للمؤمنين العاملين مما لم تره العين ولم تسمع به أذن، فثواب الله فى الآخرة الخالص من شوائب الضر خير من نعم الحياة الفانية .

●✱●

الإيمان فى قصة أصحاب الكهف :

وجاء فى قصة أهل الكهف مما يتصل بموضوعنا قوله تعالى :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)[1] .

فالله يخبر أنه يقص على نبيه خبرهم بالحق والصدق إنهم فتية آمنوا بربهم ، فهم جماعة من الشبان آمنوا بالله .

قال مجاهد : كانوا عظماء مدينتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد فقال رجل منهم إنى لأجد فى نفسى شيئا مما أظن ، ما أظن أن أحدا يجده قالوا : ماتجد قال : أجد فى نفسى أن ربى رب السموات والأرض فوافقه كلهم على مايجده .

فهم قد آمنوا بالله وزادهم الله هدى على هداهم فربط على قلوبهم حين قاموا يعلنون فى غير خوف أو فزع : ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها على حين خالفنا قومنا فاتخذوا من دونه آلهة لم يستطيعوا الإتيان بسلطان أو حجة تدل على صدق عبادتها .

---

(١) الكهف

الإيمان فى القرآن حول قصص موسى :

وهذا القصص بعضه يتصل بالمواقف التى كانت بين موسى وفرعون وبعضه فى مواقف بنى إسرائيل وقد تركنا الكثير من الآيات فى ذلك القصص لأنه لم يذكر فيها الإيمان .

وسرنا فى ذكر آيات الإيمان فى قصص موسى مع ترتيب المصحف لا مع الترتيب الزمنى فى حياة موسى .

كما تركنا الآيات التى ذكر فيها الإيمان حول اليهود فى هذا الوضع وسنتناولها فى موضوع آخر .

ففى سورة المائدة نادى موسى قومه ليأمرهم بدخول الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم ونهاهم عن الارتداد على أدبارهم فقالوا والخوف ينطقهم : ياموسى إن فيها قوما جبارين ثم حكى القرآن ماقاله الرجلان اللذان أنعم الله عليهما فقال تعالى :

(قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُون وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين)(١) .

قيل إن هذين الرجلين هما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا ، وكانا ممن يخاف الله وقد أنعم الله عليهما بالهداية والثقة والاعتماد على نصرة الله تعالى وقالا هذا القول لقوم موسى يشجعونهم .

ولقد جزم الرجلان بالغلب والنصر عند الدخول لأنهما يجزمان بنبوة

---

(١) المائدة

موسى وأن الله لاشك ناصره وأن موسى ينفذ أمر الله حين أمر بدخول الأرض المقدسة .

وفى سورة الأعراف حكى القرآن مجىء موسى لفرعون ونداءه له : يافرعون إنى رسول رب العالمين فطلب منه آية ومعجزة خارقة تدل على رسالته فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، وأرسل فرعون من يجمع السحرة من أرجاء مملكته فلما اجتمع السحرة ألقوا حبالهم وعصيهم وسحروا أعين الناس بسحرهم العظيم ثم قص الله تعالى ذلك الموقف :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)(1) .

وقد أوحى الله إلى موسى عن طريق الوحى (جبريل) أو عن طريق الإلهام : أى ألق عصاك فألقاها فإذا هى تلقف وتبتلع ما كانوا يأفكون ويكذبون ويزورون ويقلبون من الحق إلى الباطل من تلك الحبال والعصي التى خيلوا للناس أنها ثعابين .

---

(1) الأعراف

(فوقع الحق) وظهر وتبين الحق فى تلك المعجزة من باطل السحرة، وظهرت غلبة موسى على باطل السحرة (وانقلبوا صاغرين) ورجعوا إلى الصغار والذلة لأنه لاذل ولاصغار أعظم فى حق المبطل من ظهور بطلان قوله وحجته أمام حق خصمه وحجته .

وألقى الله السحرة ساجدين لما شاهدوا من المعجزة القاهرة وانطلقت ألسنتهم تعلن للملأ : آمنا برب العالمين » وكأنهم حسبوا أن فرعون قد يتوهم أنه رب العالمين الذى سجدوا له فأزالوا وهمه ودفعوا ظنه بقولهم : (رب موسى وهارون) لأنهما الداعيان إلى الإيمان بالله .

وهاجت هائجة فرعون فقال : (آمنتم به قبل أن آذن لكم) وكأنه يريد أن يتحكم فى قلوب الناس أو يعلن تحكمه فيأذن لمن شاء بأن يؤمن وإن شاء لم يأذن ، وألقى على السحرة تهمتين .

الأولى : إن هذا لمكر مكر تموه فى المدينة : ومعنى ذلك أنهم تواطئوا مع موسى على القيام بتلك التمثيلية .

الثانية : أن موسى والسحرة متواطئون على إخراج أهل القرية منها ليحتلوها .

ثم كان تهديد فرعون : سوف تعلمون، ثم فسر تهديده بقوله : لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف يعنى يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى واليد اليسرى مع الرجل اليمنى ثم ليصلبنهم .

ولم يفل ذلك الوعيد من عزمهم ولم يزعزع من إيمانهم بل واجهوا فرعون بقوة المؤمن وثقته فى ربه فقالوا : (إنا إلى ربنا منقلبون) وراجعون على أية صورة على صورة الموت الطبيعى أو على صورة القتل والصلب

وما تنقم منا وتكره الكره الشديد إلا إيماننا بآيات ربنا حينما جاءتنا ، وليس لنا من ذنب إلا ذلك الإيمان .

وحكى الله عنادهم وتحديهم ودعاء موسى واستجابته لدعائه وإرسال الطوفان عليهم والجراد والقمل والضفادع والدم فاستكبروا أمام تلك الآيات وكانوا مجرمين يقول الله تعالى :

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ)[1] .

وقالوا لموسى : مهما تأتنا به من آية لتسحر بها فما نحن لك بمؤمنين لأن هذه الآيات التي تجيء بها من باب السحر وليست خوارق تؤيد نبوتك كما تدعى ، ولهذا فنحن لسنا بمؤمنين ومصدقين بما تدعو إليه وأمام تأكيدهم وإصرارهم على الكفر دعا موسى ربه أن ينزل بهم ما يستحقون جزاء الكفر والعناد واستجاب الله دعاءه .

١ — فأرسل الله عليهم الطوفان ليلا ونهاراً من الأمطار التى لا تنقطع وصرخوا إلى فرعون فدعا موسى لكشف هذا العذاب فإذا انكشف آمنوا فأزال الله المطر وأرسل الريح تجفف الأرض ولكنهم لم يؤمنوا ونكثوا ما عاهدوا عليه .

فأرسل الله عليهم الجراد فأكل النبات فدعا فرعون موسى وقال له :

---

(١) الأعراف

لئن كشفت عنا هذا الجراد لنؤمنن لك فأرسل الله ريحاً طاردت الجراد ولكنهم خالفوا ما عاهدوا عليه فلم يؤمنوا .

٣ — فأرسل الله عليهم القمل فلم تترك فى الأرض عوداً أخضر حتى أكلته فعاهدوا موسى لئن كشفت عنهم القمل ليؤمنن به ولكنهم لم يؤمنوا .

٤ — فأرسل عليهم الضفادع وخرجت كالليل فوقعت في ثيابهم وطعامهم وحلفوا لموسى بالله لئن رفع عنهم ما نزل بهم ليؤمنن به فلما أمات الله الضفادع عادوا فنقضوا إيمانهم من بعد عهدهم ولم يؤمنوا .

٥ — فحول الله أنهار قوم فرعون ومياههم دماً فسألوا موسى أن يكشف عنهم هذا العذاب ويحيل الأنهار كما كانت إلى مياه عذبة فإذا تم ذلك فسيؤمنون به فلما انكشف عنه العذاب عنهم تنكروا لموسى ولدعوته .

ثم قال الله تعالى :

(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيل فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُون)[1] .

الرجز : هو العذاب الذى بينه من قبل فى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وكلما وقع عليهم نوع من هذه الأنواع من عذاب الله طلبوا

---

(١) الأعراف

من موسى أن يدعو ربه متوسلا إليه بعهده عنده وهو نبوته لئن كشف عنهم العذاب ليحققو له أمرين :

أولهما : الإيمان به .

ثانيهما : أن يرسلوا معه بنى إسرائيل يذهب بهم حيث شاء .

وهذا الأمر الثانى يدل على أن فرعون كان يحبس بنى إسرائيل داخل الأرض المصرية ولا يسمح لهم بالهجرة عنها .

وكان تلك الوقائع امتحانا من الله لفرعون وقومه فلما استمروا فى كذبهم ونقضهم العهود كان انتقام الله منهم وإغراقهم فى اليم بسبب تكذيبهم وغفلتهم عن آيات الله التى كانت نذراً لهم ولكنهم لم ينتهوا بل غفلوا عن الحق لما جاءهم .

وجاوز الله ببنى إسرائيل البحر .

ثم حكى الله مجيء موسى إليه بعد تمام الوعد وتكليمه له وطلب موسى منه أن يراه وذلك فى قوله تعالى :

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)(١) .

اختلف المفسرون فى كيفية كلام الله له أ كان بحروف مؤلفة أم كان بصفة مغايرة للحروف والأصوات .

---

(١) الأعراف

كما اختلفوا حين كلمه : أ كان موسى وحده أم كان معه السبعون المختارون للميقات الذين وردوا فى قوله تعالى : (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) .

وقد سأل موسى من ربه رؤيته . قيل إنه طلبها على لسان قومه الذين كانوا يقولون له : (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) واختلف فى جواز الرؤية وعدمها .

وقال الله لموسى (لن ترانى ولـكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى) .

وتجلى الله للجبل وظهر فاندك وتفرقت أجزاؤه (وخر موسى صعقا) حينما دك الجبل وبقى حينا مغشيا عليه من هول ما رأى من دك الجبل (فلما أفاق) من غشيته (قال سبحانك) تنزيها له عن الرؤية ثم قال (تبت إليك) ولولا أن طلب الرؤية كان ذنبا لما تاب ولولا أنه ذنب ينافى صحة الإسلام لما قال : (وأنا أول المؤمنين) بأنى لا أراك فى الدنيا أو أول المؤمنين بأنه لا يجوز لى أن أسأل الرؤية بغير إذنك .

●✱●

ثم قال الله تعالى :

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)[1] .

---

(١) الأعراف

ومعنى صرفهم : إهلاكهم فلا يقدرون على منع موسى من تبليغها ولا على منع المؤمنين من الإيمان بها فأراد الله أن يمنع أعداء موسى من إيذائه ومنعه من القيام بما يلزمه فى تبليغ النبوة والرسالة .

وإن من الكفار من يبالغ فى كفره حيث مات قلبه وهؤلاء هم الذين يصرفهم الله عن الانتفاع بالآيات وهم الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق لأنهم يرون أنفسهم أنهم أفضل الخلق وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم وإذا رأوا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا لهم يسلكونه وأن يروا سبيل الغى والضلال والبهتان اتخذوه سبيلا لهم .

وذلك كله لأنهم كذبوا بآيات الله وأعماهم تكذيبهم عن رؤية الحق بل غفلوا وامتدت بهم الغفلة التى لم يمحها انتباه أو تبصر واعتبار .

●★●

وفى سورة يونس يقول الله تعالى :

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) (١).

على الرغم من تقديم المعجزات التى أيد الله بها موسى فإن قومه لم يؤمنوا جميعاً بل آمن منهم ذرية قليلة والمراد بالذرية : العدد القليل أو أبناء من دعاهم إلى الإيمان لأن الآباء استمروا على الكفر أو الذرية من آل فرعون

---

(١) يونس

وهم زوجته آسيه وخازنه وامرأة الخازن وماشطتها، ومن أراد بالذرية بعض آل فرعون أرجع الضمير فى قوله من قومه على فرعون ومن أراد بالذرية بعض أبناء بنى إسرائيل أرجع الضمير على موسى، وكان هؤلاء على خوف من فرعون وملأه أن يفتنهم عن إيمانهم ويصرفهم عنه لأنه الباطش الجبار فإذا علم بإيمانهم نكل بهم وإن فرعون لباطش قاهر وإنه لمن المسرفين فى الإيذاء والتنكيل والقتل وإن إسرافه فى ذلك كان سببا فى خوف من آمن من أولئك الذرية .

وقال موسى : (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) .

وقد نادى موسى القوم المؤمنين سواء أكانوا من ذرية بنى إسرائيل أو من قوم فرعون والأول أولى فقال لهم : إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان فعليه توكلوا حق التوكل إن كنتم مسلمين، منقادين طائعين لما أمركم به الله .

●★●

ثم قال تعالى :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) .

أمر الله موسى باتخاذ المساجد والإقبال على الصلاة .

ومن المفسرين من قال : المراد بالبيوت المساجد كما فى قوله تعالى :(فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) .

---

(١) يونس

والمراد بالقبلة : الجانب الذى يستقبل فى الصلاة والمراد من قوله : واجعلوا بيوتكم قبلة أى اجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لأجل الصلاة .

واختلف فى هذه القبلة التى يتجهون إليها ، فقال ابن عباس : كانت الكعبة قبلة موسى عليه السلام وكان الحسن يقول : الكعبة قبلة كل الأنبياء ووقع العدول عنها بأمر الله في أيام الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس ثم عادت الكعبة قبلة للمسلمين .

وقال آخرون كانت قبلة موسى بيت المقدس .

وفى أول الآية خص موسى وهارون بأن يتبوا لقومهما بمصر بيوتا ثم عم الخطاب فى قوله : (واجعلوا بيوتكم قبلة) لجميع من آمن بموسى .

ثم قال : (وبشر المؤمنين) لأن الغرض من جميع العبادات تبشير المؤمنين وخص الله موسى بها ليدل على أن الأصل فى الرسالة هو موسى وهرون تبع له والبشارة بالثواب والنصر .

ثم حكى الله دعاء موسى وقوله فقال تعالى :

(وقالَ مُوسَى : رَبَّنَا إِنَّكَ آتيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ)[1] .

وحكى الله قول موسى ودعاءه ونداءه لربه : ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا ، فى الحياة الدنيا ، والمراد بالزينة : الصحة والجمال واللباس والدواب وأثاث البيت والمراد بالمال مايزيد على هذه الأشياء .

---

(١) يونس

ودعا موسى ربه أن يطمس على أموالهم ويذهبها ويمسحها واشدد على قلوبهم ومعنى الشد الختم والطبع والإغلاق حتى لايدخلها الإيمان (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) والمعنى : اشدد على قلوبهم حتى لايؤمنوا فإنها تستحق ذلك .

●★●

ثم قص الله عبور بنى اسرائيل البحر وغرق فرعون وجنوده .

فقال الله :

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ (١) قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً) .

لقد أجاب الله دعاء موسى وهارون وأمرهما بالخروج مع قومهم من مصر ويسر لهم أسبابه فخرجوا وعز على فرعون مفارقتهم مملكته فخرج فى أثرهم وأتبعهم بمعنى لحقهم فرعون وجنوده (بغيا وعدوا) والبغى : الاستعلاء بغير حق ، والعدو : الظلم .

ثم كان ماقصه الله فى سورة أخرى من أن الله أمر موسى أن يضرب بعصاه البحر فضربه فانفلق وانفرق فسار فى الفرق موسى وبنو إسرائيل حتى وصلوا الشاطىء الآخر ونزل وراءهم فرعون وجنوده فى ذلك الدرب فلما

---

(١) يونس

نزلوا جميعا أطبق الله الماء عليهم فغرقوا جميعا، أما فرعون فحين أدركه الغرق أعلن إيمانه ثلاث مرات ، الأولى : آمنت والثانية أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل والثالثة وأنا من المسلمين المنقادين المستسلمين .

وأجابه الله على هذا الإيمان المزعوم : (آلآن) أى أآمنت الآن وأنت فى هذا المأزق وقد عصيت نداء الإيمان من قبل وكنت من المفسدين الذين أفسدوا قلوب الناس وعقيدتهم (اليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) واليوم نلقيك بنجوة من الأرض وهى المكان المرتفع حيث لفظه البحر إلى الشاطىء ليكون آية وعبرة لمن وراءه ممن لم يغرقوا

وقد أعلن فرعون الإيمان حين لم ينفعه إيمانه (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا)، (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده) ولكن عذاب الله وقع .

●★●

وورد ذكر الإيمان فى سورة الكهف فى قصة موسى مع العبد الذى آتاه الله العلم حين قتل الغلام وأنكر عليه موسى مافعله ولكنه برر موقفه فيما حكاه الله فى قوله :

(وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا)[1] .

لقد كان ذلك الغلام بالغا وكان يقطع الطريق ويقدم على المنكرات وكان أبواه يحتاجان إلى دفع شر الناس عنه والتعصب له وتكذيب من يرميه بالسوء ، وكان موقفهما هذا سببا لوقوعهما فى الفسق الذى قد يؤدى إلى الكفر

---

(١) الكهف

فخشينا أن يحملهما هذا الغلام على الطغيان والكفر وهما مؤمنان فأراد هذا العالم بقتله أن يرزقهما الله بولد خير من ذلك الغلام ويكون الولد الجديد أعظم طهرا وأقرب رحمة بوالديه وعطفا عليهما .

●★●

وفى سورة طه ذكر الله رؤية موسى النار وهو عائد من بلاد مدين إلى مصر وقص القصة ثم قال :

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)(١) .

أمر الله نبيه موسى أن يقيم الصلاة ليذكره بالأمانة والكرامة وإن الساعة لآتية وهى وقت الإثابة والمجازاة (أكاد أخفيها) أى قرب الأمر فى وقتها من الإخفاء أو أنا أخفيها عن الخلق .

فلا يصدنك عن الصلاة من لايؤمن بالساعة وقيل فلا يصدنك عن الساعة من لايؤمن بالساعة فالضميران عائدان على الساعة أى فلايصدنك عن الإيمان بالساعة من لايؤمن بالساعة (واتبع هواه) فأنكر البعث لا لدليل (فتردى) تهلك أى وإن صدوك فقبلت فليس إلا الهلاك بالنار وقيل الخطاب فى قوله فلا يصدنك للنبى صلى الله عليه وسلم وقيل لكل مكلف .

●★●

وحكى الله قصة السحرة فى سورة طه وإلقاء موسى لعصاه ثم قال الله :

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ

---

(١) الكهف

فلأُقطِّعَنَّ أيدِيكُمْ وأرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ولأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ولتعلمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى قالوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جاءَنا مِنَ البَيِّنَاتِ والَّذِي فطَرَنا فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ إنَّمَا تَقْضِي هٰذِهِ الحَيَاةَ الدُّنيا إنَّا آمنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لنا خَطَايانا ومَا أكْرَهْتَنا عليْهِ مِنَ السِّحرِ واللهُ خَيْرٌ وأبقى إنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فإنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فيها ولاَ يَحْيا ومَنْ يأْتِهِ مُؤْمِناً قدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرجاتُ العُلَى)(١).

والجديد هنا فى اجتماع يوم الزينة على ملأ من آلاف المجتمعين الذين جاءوا يشهدون الزينة والموقف :

١ — أن فرعون حين سجد السحرة وأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون قال لهم : إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فرمى موسى بأنه المعلم الذى علم هؤلاء السحرة السحر .

٢ — ذكر فيما سبق الصلب فقط وهنا قال : لأصلبنكم فى جذوع النخل فأعلن أن صلبهم على جذوع النخل .

٣ — وقدم تهديدا جديدا بأنه أشد عذابا لهم من العذاب الذى يهدد موسى بها الكافرين العصاة وأن عذابه أبقى وأكثر دواما من تعذيب رب موسى للكافرين .

٤ — وجديد ماقالوه للرد على فرعون : (لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات) ولن نفضلك بجاهك وسلطانك (على الذى جاءنا) من (تلك الآيات) البينات .

---

(١) طه

٥ — عدم الاكتراث أمام الملأ بوعيد فرعون لقولهم (فاقض ما أنت قاض) وبهذا أعلنوا أمام الجمع أن وعيد فرعون لايزيلهم عن إيمانهم .

(إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) أى إن قضاءك وحكمك إنما يكون فى هذه الحياة الدنيا وهى فانية ومطلبنا سعادة الآخرة وهى باقية .

٦ — والجديد فى إعلانهم الإيمان يوم الزينة أنهم جعلوه سببا وعلة لغفران الخطايا فى إكراههم على السحر الذى فعلوه وقدموه ليقللوا من شأن معجزة موسى وعصاه .

٧ — أعلنوا أن الله خير وأبقى لهم مما وعدهم به فرعون أولا ومن وعيده أخيرا فالله خير لهم يصونهم من بطشه ونعيمه أبقى لهم من الأجر الدنيوى الفانى الذى وعدهم به فرعون .

٨ — ثم ختموا كلامهم بشرح أحوال المجرمين وأحوال المؤمنين يوم القيامة فمن جاء ربه مجرما يحمل خطاياه وكبائره فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيا ومن جاءه مؤمنا وقد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى عند الله لهم الجنات إن شاء الله .

●★●

ثم نادى الله بنى إسرائيل قوم موسى ليذكرهم بتنجيته لهم من عدوهم إلى أن قال تعالى :

(وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى)(١) .

وعد الله بكثرة غفرانه لمن جمعوا بين التوبة والإيمان والعمل الصالح

---

(١) طه

والاهتداء ومعنى قوله اهتدى : استمر على تلك الطريقة وهى الجمع بين كل الأشياء المتقدمة فى المستقبل .

وفى سورة المؤمنون قال تعالى :

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ)(١) .

فى هذه الآية أخبر الله أنه أرسل موسى وهارون إلى فرعون وملأه وأنه أيدهما بالآيات وكانت تلك الآيات تسعا هى : العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وانفلاق البحر والسنون ونقص من الثمرات .

والسلطان المبين هو استيلاء موسى عليهم فى الاستدلال على وجود الصانع وإثبات النبوة، وعلى الرغم من كل ذلك فقد استكبر قوم فرعون وأنفوا أن ينقادوا إلى دعوة موسى ، وكانوا قوما عالين مرتفعى الحال فى الدنيا فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وكرهوا أن يكون إيمانهم لبشرين مثلهم وكأنهم أنكروا أن يكون رسل الله من البشر .

ولهذين الأمرين وهما : بشرية موسى وهارون وخدمة قومهما لآل فرعون كذبوهما فى دعوتهما فأهلكهم الله بالغرق وكان ذلك الإهلاك عقب التكذيب .

●★●

---

(١) المؤمنون

وفى سورة الشعراء ذكرت قصة موسى منذ أرسله الله من قوله : (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين) إلى قوله :

(فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ)[١] .

وقد تقدم ذكر القصة والتعليق عليها فى سورة طه ويونس والأعراف والجديد هنا بعد تهديد فرعون لهم بتقطيع الأيدى والأرجل من خلاف وصلبهم هو قولهم : (لاضير إنا إلى ربنا منقلبون) والضير هو الضر أى لاضر علينا فيما تهددنا به ونحن مستعدون للاحتمال فى سبيل ماعند الله من جزاء على هذا الموقف وإنا إلى ربنا منقلبون وراجعون إليه وحسبنا منه مرضاته وإنا لنطمع أن يغفر لنا خطايانا لأن كنا أول المؤمنين من الجماعة الذين حضروا هذا الموقف وحسبنا ذلك وأننا أعلنا الإيمان بالله وبرسالة موسى فى هذا الموقف العظيم دون وجل أو خوف من فرعون وبطشه .

ثم ذكر الله إيحاءه إلى موسى أن يسرى بعباد الله فيسرى ويتبعه فرعون حتى يبلغ البحر فيضربه بعصاه تنفيذا لأمر الله فينفلق البحر وكان

---

(١) الشعراء

كل فرق كالجبل العظيم ونجى الله موسى ومن معه وأغرق الآخرين من أعدائه ثم قال تعالى :

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) (١).

اى إن الذى حدث فى البحر وانفلاقه بالعصا لآية عجيبة من الآيات العظام التى تدل على قدرة الله لأن أحدا أو قوة من قوى الإنسان لاتقدر على هذا العمل الذى يدل على صدق موسى فى نبوته ، وما كان أكثر قوم موسى بمؤمنين بكل مايقدم من الآيات ، وكانت معجزة انشقاق البحر وحدها كفيلة بأن تشدهم إلى الإيمان والإذعان ومع هذا فقد كان أكثرهم غير مؤمن وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم الذى كان ضيق الصدر بعدم إيمان قومه برسالته .

●★●

وفى سورة القصص قص الله نبأ موسى وفرعون وأخبر محمدا صلى الله عليه وسلم أنه يتلو عليه نبأهما عن طريق جبريل لينتفع المؤمنون بذلك القصص فقال تعالى :

(نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(٢) .

يقول الله : (نتلو عليك) على لسان جبريل لأنه كان يتلو على محمد صلى الله عليه وسلم حتى يحفظ مايتلى عليه .

والذى تلاه فى هذه السورة هو نبأ موسى وفرعون وخبرهما الذى يقصه لقوم يؤمنون وخص المؤمنين لأنهم هم الذين يتقبلون ماينبئهم به محمد عن

---

(١) الشعراء (٢) القصص

طريق جبريل وهم الذين ينتفعون بتلك الأنباء فى تثبيت إيمانهم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

قال الله فى سورة القصص :

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)(١) .

اختلف المفسرون فى تفسير فراغ فؤاد أم موسى .

فقيل أصبح فارغا وخاليا من كل هم إلا من هَمِّ موسى عليه السلام .

وقيل : فارغا : صفرا خاليا من العقل أى أنها حينما سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من الجزع والخوف على موسى .

قال السدى : لما أخذ ابنها كادت تقول : إنه ابنى فعصمها الله ولولا أن ربط الله على قلبها بالهام الصبر لصرحت ببنوته لها، ولكن الله ربط على قلبها وشد عليه ليطمئن لتكون من المؤمنين المصدقين بوعد الله الذى ألهمها به والذى قاله الله : (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) .

●★●

وفى سورة غافر قال تعالى :

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)(٢) .

لقد كان قتل الأبناء من قبل خيفة أن يولد المولود الذى أنذرت به الكهنة بظهوره وزوال ملكه على يده والذى ذكر فى هذه الآية قتل آخر .

---

(١) القصص (٢) غافر

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : اقتلوا أى أعيدوا عليهم القتل كالذى كان والحق الذى جاء به موسى هو النبوة ودعوته إلى عبادة الله .

وقد أمر فرعون فى هذه المرة بأن يقتل أبناء الذين آمنوا مع موسى لأن الأبناء سينشأون فى بيئة مؤمنة هى بيئة آبائهم المؤمنين ولهؤلاء خطرهم على فرعون وملكه .

●★●

وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم وحكى الله قول موسى فقال تعالى :

(وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)[1] .

قال موسى : إنى عذت ولجأت إلى ربى وربكم وفى هذا توجيه لقومه بالاستعاذة بالله واللجوء إليه والاعتصام به والتوكل عليه فى كل أمر يهمهم (من كل متكبر) تعريض بفرعون وفيه استعاذة بالله من كل جبار متكبر عن الإذعان للحق (لا يؤمن بيوم الحساب) بل ينكر البعث والحساب ومعنى عدم إيمانه بيوم الحساب أنه لا يكترث ولا يبالى بيوم الحساب ومافيه من سؤال وعذاب فالاستعاذة بالله كانت من كل من اجتمع فيه التكبر وعدم الإيمان بالحساب وبهذا استكمل هذا الإنسان القسوة والجراءة على الله وعلى عباده .

●★●

---

(١) غافر

وقال الله فى سورة الدخان :

(وإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُون وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِى فَاعْتَزِلُون)(١) .

يخبرهم موسى أنه عائذ بربه ليعصمه منهم ومن كيدهم فهو غير مبال بما يتوعدونه به من الرجم والقتل ثم قال لهم وإن لم تؤمنوا لى فلا موالاة بينى وبين من لا يؤمن فتنحوا عني وخلونى لا لى، ولا على، ولا تتعرضوا لى بشركم فليس جزاء من دعاكم إلى مافيه فلاحكم ذلك الوعيد أو ذلك القتل .

(١) الدخان

الفصل السادس

ماجاء من الإيمان حول مؤمني أهل الكتاب

لقد آمن بعض أهل الكتاب برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وماجاء به وقد جاء ذكر هؤلاء فى غير موضع من القرآن .

١ ــ جاء فى سورة البقرة قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)[1] .

والمعنى : والذين يصدقون بما جاءك من عند الله وهو القرآن وماجاء به من قبلك من الرسل كالتوراة والإنجيل فهم آمنوا بالكتب السابقة وبالقرآن وآمنوا بالرسل ، ولم يفرقوا بينهم ، ولم يجحدوا ماجاءهم ، وهم أخيراً يوقنون بالآخرة ، والخبر يجتمع فيه هؤلاء وأولئك الذين يؤمنون بالغيب وقد ورد ذكرهم فى الآية السابقة وكان ذلك الخبر أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

وقد اختلف المفسرون إلى ثلاثة أقوال حول : (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) فقال بعضهم :

إن المراد بمن يؤمنون بالغيب فى الآية الأولى ويؤمنون بما أنزل إليك فى الثانية هم مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم ....

---

(١) البقرة

وقال البعض : إن المراد بهؤلاء وأولئك مؤمنو أهل الكتاب .

وقال البعض : إن الموصوفين بالآية الأولى مؤمنو العرب وبالثانية مؤمنو أهل الكتاب وهذا الرأى الأخير نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما .

● ★ ●

٢ — وفى سورة البقرة كذلك قال الله تعالى :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)[1] .

هنالك قولان فى المراد من قوله : (الذين آتيناهم الكتاب) .

الأول : أنهم المؤمنون من العرب الذين آتاهم الله القرآن .

الثانى : أن المراد بهم أهل الكتاب وهم الذين آمنوا بالرسول من اليهـــود .

● ★ ●

٣ — قال تعالى فى اليهود فى سورة آل عمران : ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله الخ .

ثم قال :

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ)[2] .

---

(١) البقرة (٢) آل عمران

فبين أن أهل الكتاب ليسوا متساوين فمنهم الفريق السابق على هذه الآية ومنهم أمة قائمة الخ .

والمراد بأهل الكتاب إما أن يكون .

(ا) الذين آمنوا بموسى وعيسى وقد روى أنه لما أسلم عبدالله بن سلام وأصحابه قال لهم بعض كبار اليهود : لقد كفرتم وخسرتم فأنزل الله لبيان فضلهم هذه الآية .

(ب) وإما أن يكون المراد بأهل الكتاب كل من أوتى الكتاب من أهل الأديان والمسلمون فى جملتهم وهذه الأمة القائمة من أهل الكتاب كانوا يتلون آيات الله آناء الله فهم يتهجدون بتلاوة القرآن فى الليل وهم يقومون الليل مصلين (وهم يسجدون) ومن أوصافهم أيضاً : الإيمان الذى بينه بقوله : يؤمنون بالله واليوم الآخر والإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله وباليوم الآخر ووصفهم كذلك بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر والمسارعة فى الخيرات أى يعملون الخيرات غير متثاقلين فى عملها أو يبادرون إليها خوف الفوت بالموت أولئك الموصوفون بتلك الأوصاف من جملة الصالحين .

●★●

٤ — وقال تعالى فى سورة آل عمران كذلك :

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ)[1] .

---

(١) آل عمران

قيل نزلت فى النجاشى حين مات وصلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم صلاة الجنازة على الغائب فقال المنافقون : إنه يصلى على نصرانى لم يره قط فنزلت .

وقيل نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه .

وقيل نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب كلهم .

أولئك آمنوا بالله وآمنوا بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم وآمنوا بما أنزل على أنبيائهم من قبل ثم وصفهم بالخشوع لله وأنهم لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا .

●★●

قال تعالى فى سورة النساء :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَـٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)(١) .

أولئك هم الكتابيون الذين آمنوا بالله ورسله موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ولم يفرقوا بين أحد منهم فى الإيمان به وبما جاء به وقد وعـــدهم الله أنه سوف يؤتيهم أجورهم فى الآخرة على ذلك الإيمان وكان الله غفورا رحيما » وفى هذا إعلان من الله بالتجاوز عن سيئاتهم والعفو عما فرط منهم .

●★●

وقال الله فى سورة النساء :

(لَـٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ

---

(١) النساء

إلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً)[١] .

المراد بالراسخين فى العلم منهم : عبد الله بن سلام وأصحابه من أهل الكتاب فهم قد جمعوا بين الرسوخ فى العلم والثبات فيه وبين الإيمان ثم فسر إيمانهم بأنهم يؤمنون بالله ويؤمنون بالقرآن الذى أنزل على رسول الله ويؤمنون بما أنزل من الكتب السابقة التى لم تحرف وهم إلى جانب ذلك يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وآمنوا كذلك بالله واليوم الآخر أولئك قد وعدهم الله بالأجر العظيم فى الآخرة .

● ✱ ●

٧ — وفى سورة القصص يقول الله تعالى :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ)[٢] .

قال قتادة : نزلت فى أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة تمسكوا بها ثم آمنوا بمحمد .

وقال مقاتل : نزلت فى أربعين من أهل الإنجيل .

والمعنى : الذين آتيناهم التوراة أو الإنجيل من قبل القرآن هم به يؤمنون أى يؤمنون بالقرآن وبما جاء به وإذا تلى عليهم القرآن قالوا آمنا به لأنه

---

(١) النساء (٢) القصص

الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أى كائنين على دين الإسلام لأن الإسلام صفة كل موحد مصدق للوحى .

(أولئك يؤتون أجرهم مرتين) .

قيل : الأجر الأول إيمانهم بمحمد قبل بعثه والثانى إيمانهم به بعد بعثه .

وقيل الأجر الأول إيمانهم بالأنبياء الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم والأجر الثانى لإيمانهم بمحمد .

● ★ ●

٨ — وقال تعالى فى سورة العنكبوت :

(وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ)(١) .

لقد نهى الله فى مقدمة هذه الآية المؤمنين عن مجادلتهم لأهل الكتاب إلا بالحسنى إلا من ظلم منهم وأمر المؤمنين أن يقولوا لهم آمنا بالذى أنزل إلينا وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون .

وكذلك الإنزال الذى أنزلنا به الكتب على من سبق من الرسل أنزلنا إليك يا محمد الكتاب (القرآن) .

(فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به) .

قد اختلف المفسرون فى المراد من هذه الآية :

---

(١) العنكبوت

فقال بعضهم : المراد بالذين آتيناهم الكتاب : من آمن بنبينا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره وبقوله : (ومن هؤلاء) أى من أهل مكة

وقال بعضهم : المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الذين سبقوا محمدا صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب ومن هؤلاء الذين هم فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب .

● ✱ ●

الفصل السابع

ماجاء من كلمة الإيمان حول الكتابيين

أو مواقفهم من الإيمان

لقد نادى الله بنى إسرائيل وأمرهم بعد النداء أن يذكروا نعمه التي أنعم بها عليهم ، ثم عطف على ذلك أمره لهم بالإيمان بالقرآن الذى أنزله مصدقا لما معهم فقال تعالى :

(وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ)[1] .

المراد بما أنزلت من كتاب ورسول تجدونه مكتوبا فى التوراة والإنجيل .

وقوله (مصدقا لما معكم) لأن فى القرآن أن موسى وعيسى حق والتوراة والإنجيل حق .

وأن البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن فى التوراة والإنجيل فالإيمان بمحمد وبالقرآن تصديق للتوراة والإنجيل والتكذيب بهما تكذيب بالتوراة والإنجيل .

(ولا تكونوا أول كافر به)

فى هذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول مؤمن به لمعرفتهم به وبصفته .

---

(١) البقرة

(ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا) .

قال ابن عباس: رضى الله عنهما إن رؤساء اليهود مثل كعب بن الأشرف وحيّ بن أخطب كانوا يأخذون من فقراء اليهود الهدايا وعلموا أنهم لو اتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم لانقطعت عنهم الهدايا ولذلك نهاهم الله وأمثالهم من أن يشتروا بالآيات ثمنا قليلا دنيويا .

ثم أمرهم الله ـ باتقائه فى قوله (وإياى فاتقون) .

●✱●

وقد ذكر الله قبائح اليهود القدامى من عبادتهم العجل وغيرها ثم شرح قبائح اليهود الذين كانوا يعاصرون محمداً صلى الله عليه وسلم حين طمع المسلمون فى إيمانهم فقال تعالى :

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)(١) .

الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وإن كان للعموم .

(أن يؤمنوا لكم) يريد به اليهود الذين عاصروا الرسول صلى الله عليه وسلم أى يؤمنوا لكم من طريق النظر والاستدلال وكيف وقد كان فريق من أسلافهم يسمعون كلام الله ويعلمون أنه الحق ثم يعاندونه .

(ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) التحريف : التغيير وذلك

---

(١) البقره

إما أن يكون في اللفظ أو في المعنى ، وحمله على تغيير اللفظ أولى من حمله على تغيير المعنى .

والمحرفون هم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام وقد روى أن قوماً من السبعين المختارين قالوا لموسى : سمعنا الله يقول (بعد ماسمعوا أمر الله) : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم ألا تفعلوا فلا بأس .

وقيل المحرفون هم الذين كانوا في زمن محمد صلى الله عليه وسلم وقد حرفوا نعت الرسول وصفته أو لأنهم حرفوا الشرائع كما حرفوا آية الرجم .

وقوله : (من بعد ما عقلوه) أى بعد ما فهموه ثم أولوه تأويلا فاسداً وهم يعلمون أنه غير مراد الله ثم كشف الله قبائح اليهود المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن منافقى أهل الكتاب كانوا إذا لقوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قالوا لهم : آمنا بالذى آمنتم به ونشهد أن صاحبكم صادق ثم إذا خلا بعضهم ببعض قال الرؤساء لهم : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من نعته وصفته ليحاجوكم به عند ربكم (يوم القيامة) .

●✱●

وقال الله فى اليهود :

(ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ)(١) .

---

(١) البقرة

تقتلون أنفسكم أى يقتل بعضكم بعضاً وقتل البعض للبعض فيه قتل للنفس .

روى أن بنى قريظة كانوا حلفاء الأوس والنضير كانوا حلفاء الخزرج فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه وإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه فعيرتهم العرب وقالوا : كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم فيقولون أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ولكنا نستحى أن نذل حلفاءنا فأخبر الله بهذه الآية أنهم يقتلون بعضهم بعضا وفى ذلك قتل لأنفسهم ثم يخرج الغالب المغلوب من ديارهم وهم يتعاونون عليهم بالظلم والعدوان .

ثم أخبر أنهم يفدون أسراهم إذا أسروا وإخراجهم من الديار محرم عليهم ثم أنكر الله عليهم فى هذا الموقف إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعضه .

فقتل اليهودى لليهودى محرم عليهم بنص كتابهم وتخريب البيوت كذلك وجمع المال من الفريقين الغالب والمغلوب لفداء الأسرى عملا بحكم التوراة .

فهم بذلك كفروا بما نص عليه كتابهم فى تحريم القتل والتخريب وآمنوا بما نص عليه من جمع المال لفداء أسري الفريقين وذلك معنى قوله تعالى : أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض .

●✱●

وحكى الله قولهم ومشاعرهم ومعتقدهم فى قوله :

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ)(١)

---

(١) البقرة

أى قلوبنا مغطاة بأغطية يستحيل معها أن يصل إليها شىء من الحق الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد أخبر الله بأنه لعنهم بسبب كفرهم (فقليلا ما يؤمنون) أى أن القليل صفة للمؤمن أى لا يؤمن منهم إلا القليل أو لا يؤمنون إلا بقليل مما كلفوا به ، لأنهم كانوا يؤمنون بالله ويكفرون بالرسل .

●★●

وحكى الله نوعاً من قبائح أفعال اليهود فى قوله تعالى :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)(١) .

والمعنى وإذا قيل لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب آمنوا بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم وصدقوه واتبعوه قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفينا الإيمان بالتوراة أو الإنجيل ثم يكفرون بما وراءه وما جاء بعد التوراة والإنجيل ، وهو الحق الذى يصدق ما معهم فى كتبهم التى لم تحرف وإنهم ليعلمون أن ما أنزل على محمد هو الحق لأنه صدق ما معهم .

ثم أمر الله نبيه أن يقول لهم : (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) أى فلم قتلتم أنبياء الله الذين جاءوكم بالحق إن كنتم صادقين فى دعوى الإيمان بما أنزل إليكم لقد قتلتموهم ظلما وبغياً ، ولقد حرم الله قتلهم ، بل أمركم باتباعهم وتصديقهم .

---

(١) البقرة

وذكر الله اليهود أسلاف اليهود المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم بالميثاق الذي أخذه عليهم وقولهم سمعنا قولك وعصينا أمرك ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم :

(قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)(١) .

أى بئسما يأمركم به إيمانكم بالتوراة لأنه ليس فى التوراة عبادة العجل وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم أو بئسما تعتمدون عليه من كفركم ومخالفتكم الأنبياء وكفركم بمحمد فكيف تدعون الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل من نقض الميثاق وكفركم بآيات الله وعبادتكم العجل فبئسما يأمركم به ذلك الإيمان (إن كنتم مؤمنين) .

●★●

وقال ابن عباس رضى الله عنه إن ابن صوريا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما جئتنا بشىء نعرفه وما جئتنا بآية فنتبعك فأنزل الله قوله تعالى :

(وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)(٢)

لقد أنزل الله الكثير من الآيات التى تدل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وإن تلك الآيات لا يكفر بها إلا الفاسقون المتمردون الكفرة .

وقال الحسن البصرى فى تفسير قوله : (أو كلما عاهدوا عهداً) قال نعم: ليس من عهد يعاهدونه إلا نقضوه ونبذوه فهم يعاهدون اليوم وينقضون غداً .

---

(١) البقرة (٢) البقرة

وقال السدى : نبذ فريق منهم أى نقضه فريق منهم .

فهم متصفون بنقض العهد وكم أخذ الله عليهم من المواثيق وكم نقضوها فهم وآباؤهم متسمون بنقض العهد وقوله : (فريق منهم) يدل على أن فريقاً منهم لم ينقض العهد .

(بل أكثرهم لا يؤمنون) بالتوراة وليسوا من الدين فى شيء لأنهم لا يعدون نقض العهود ذنبا .

●★●

ثم قال تعالى :

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)(١) .

أى ولو آمنوا برسول الله والقرآن واتقوا الله فتركوا ما هم عليه من نبذ كتاب الله واتباع كتب الشيطان (لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) أى لثواب الله خير مما هم فيه وقد علموا ولكن الله جهلهم لترك العمل بالعلم .

أولو آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم لكان ثواب الله على ذلك خير لهم مما رضوا به لأنفسهم .

● ✱ ●

ومما يدل على مكايد اليهود ما روى من أن فنحاص بن عاذوراء وزيد بن قيس وقيل كعب بن الأشرف قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد أحد : ألم تروا ما أصابكم ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم فأنزل الله تعالى قوله :

---

(١) البقرة

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ)(١) .

وهكذا تبين الآية كثرة ما تمنى اليهود أن يرجع المسلمون كفارا بعد إيمانهم ولم يكن ذلك غير حسد من نفوسهم بعد وضوح الحق لهم .

●★●

وقد قال اليهود للمسلمين : كونوا هودا وقال النصارى للمسلمين كونوا نصارى فأمر الله نبيه أن يقول لهم (بل ملة إبراهيم) أى نتبع ملة إبراهيم ثم أمر الله المؤمنين أن يقولوا : (آمنا بالله وما أنزل إلينا) الخ الآية ثم قال (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ)(٢) .

والمعنى : إن حصلوا على دين يساوى الإسلام فى السداد فقد اهتدوا ، ولما استحال وجود دين آخر يساوى الإسلام فى الصحة استحال الاهتداء بغيره .

أو أن المسلمين آمنوا بالقرآن من غير أن يحرفوه فإن آمن اليهود بمثل ذلك وهو التوراة من غير تحريف فقد اهتدوا ، أو فإن صاروا مؤمنين بمثل ما به صرتم مؤمنين فقد اهتدوا .

●★●

ومما يدل على غدر اليهود وكيدهم للاسلام محاولتهم تشكيك المسلمين فى دينهم وذلك ما يحكيه القرآن فى قوله تعالى :

(وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ

---

(١) البقره (٢) البقره

آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ)(١).

قيل تواطأ اثنا عشر من أحبار يهود خيبر على أن يدخلوا في دين محمد أول النهار من غير اعتقاد وأن يكفروا به آخر النهار ثم يقولوا : نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمدا ليس هو ذلك المنعوت وقد ظهر لنا كذبه وبطلان دينه حتى يشككوا المسلمين في دينهم .

وهذا معنى قوله تعالى يحكي موقفهم : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) ثم نهوهم عن الإيمان بغيرهم وحكى الله نهيهم فى قوله : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقوله (قل إن الهدى هدى الله) اعتراض بين قوله ولا تؤمنوا وبين قوله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم) أى ولا تؤمنوا أى لاتظهروا إيمانكم .

والمراد : أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ماأوتيتم ولا تفشوا ذلك إلا لأشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ذلك ثباتا ودون المشركين لئلا يدعوهم ذلك إلى الإسلام .

● ★ ●

وقال تعالى :

(وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ

---

(١) آل عمران

أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)(١) .

لقد أخذ الله الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنه كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه وأخبر أنهم قبلوا ذلك أى أن الله أوجب على جميع الأنبياء الإيمان بكل رسول جاء مصدقا لما معهم أى أخذ الميثاق فى أن يصدق بعضهم بعضا وينصر بعضهم بعضا وظاهر الكلام يدل على أن آخذ الميثاق هو الله والمأخوذ منهم هم النبيون .

● ✽ ●

وأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن ينادي أهل الكتاب ليسألهم لم تصدون عن سبيل الله من آمن فقال تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)(٢) .

كثيرا ماحاول أهل الكتاب فتنة المسلمين فى دينهم ، وفى هذه الآية يأمر الله رسوله أن ينادى أهل الكتاب ليسألهم لم تصدون وتحتالون لمنع من أراد الدخول فى دين الله (تبغونها عوجا) أى تطلبون للشريعة أو لسبيل الله العوج والميل عن القصد والاستقامة حتى توهموا أن فيها عوجا بقولكم إن شريعة موسى لاتنسخ وبتغييركم صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجهها (وأنتم شهداء) أنها سبيل الله التى لايصد عنها إلا ضال ، (وما الله بغافل) وفى هذا وعيد وتهديد (عما تعملون) أى لايغفل الله عن كل أعمالكم وما تدبرون وما تفعلون من صد عن سبيل الله .

---

(١) آل عمران (٢) آل عمران

وقال تعالى :

(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(١) .

حكى الله قولهم الذى قالوه : إن الله عهد إلينا وأوصى فى التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بهذه الآية الخاصة ، وهو أن يرينا قربانا تنزل النار من السماء فتأكله كما كان أنبياء بنى إسرائيل وتلك كانت آيتهم فقد كان يقرب القربان ثم يدعو النبى فتنزل نار من السماء فتأكله .

وقد ألزمهم الله أن أنبياءهم جاءوهم بالبينات الكثيرة وجاءوهم بما اقترحوه عليهم من الآيات فقل لهم يامحمد : لقد جاءكم رسل من قبلى بالآيات التى طلبتموها وبالبراهين وبالذى قلتم واقترحتم من الآيات وبالنار التى تأكل القرابين فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة وبالعناد ولم قتلتموهم إن كنتم صادقين فى إيمانكم واتباعكم الحق وانقيادكم للرسل بعد مجىء الآيات .

●✻●

وبين الله أن الذين أوتوا نصيبا وحظا من الكتاب من علم التوراة وهم الأحبار يستبدلون الضلالة بالهدى ، ثم قال تعالى :

(مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ

---

(١) آل عمران

وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)[1] .

إن هؤلاء قلوبهم مطرودة عن الخير فلا يدخلها شيء من الإيمان ينفعهم وقوله : (من الذين هادوا) بيان للذين أوتوا نصيبا من الكتاب من اليهود والنصارى الذين قاموا بتحريف كلام كتبهم عن مواضعه ويضعون مكانه كلاما غيره من نحو تحريفهم الرجم ووضعهم الحد بدلا منه ، ويلقون بالشبه الباطلة والتأويلات الفاسدة ليصرفوا الألفاظ عن معانيها الحقيقية ، ومن ضلالاتهم : قولهم (سمعنا وعصينا) فقد كان النبى إذا أمرهم بشىء قالوا فى الظاهر سمعنا وقالوا فى أنفسهم : عصينا .

وكانوا يقولون من الكلام مايحتمل وجهين مدحا وذما فكانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم اسمع غير مسمع وهذا يحتمل : اسمع مدعوا عليك بلا سمعت أو اسمع غير مجاب إلى ماتدعو إليه ، أو اسمع غير مسمع كلاما ترضاه كما يحتمل : اسمع غير مسمع مكروها .

وكذلك قولهم (راعنا) يحتمل راعنا نكلمك أى ارقبنا وانظرنا ، ويحتمل أن يكون راعينا وكانوا يريدون أنك كنت ترعى أغناما لنا ويوهمون في الظاهر أنهم يريدون أرعنا سمعك ، وكانوا يلوون ألسنتهم حتى يصير قولهم راعنا راعينا فهم يلوون ويفتلون بألسنتهم الحق بالباطل .

---

(١) النساء

ولو أنهم قالوا بدل سمعنا وعصينا سمعنا وأطعنا لعلمهم بصدقك لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بسبب كفرهم فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا فإنهم كانوا يؤمنون بالله والتوراة وموسى ولكنهم كانوا يكفرون بجميع الأنبياء أو القليل صفة للقوم والمعنى فلا يؤمن منهم إلا أقوام قليلون .

●★●

ثم قال الله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا)(١) .

الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل من تتأتى منه الرؤية ـ وقد روى أن حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف خرجا إلى أهل مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشا على محاربة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال لهم أهل مكة : أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس ، وقال أبو سفيان لهم : أنحن أهدى سبيلا أم محمد؟ فقال كعب ماذا يقول محمد ؟ قالوا يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك قال ومادينكم قالوا : نحن ولاة البيت ونسقى الحاج ، ونقرى الضيف ، ونفك العانى الأسير ، فقال : أنتم أهدى سبيلا

(١) النساء

وهذا ماحكاه الله فى هذه الآية : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) والنصيب : الحظ .

●★●

وقال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا)(١) .

إن اليهود آمنوا بموسى والتوراة وكفروا بعيسى والإنجيل والنصارى آمنوا بعيسى والإنجيل وكفروا بموسى والتوراة ومحمد والقرآن ، والساحرة لا يؤمنون بنبى بعد يوشع خليفة موسى بن عمران ويريدون أن يفرقوا بين الإيمان بالله ورسله ويريدون أن يتخذوا طريقاً وسطاً وهى الإيمان بالبعض دون البعض أولئك هم الكافرون حقاً يقيناً ثابتاً لا شك فيه ، لأن كفرهم ببعض الرسل وتفريقهم بين الرسل يعد كفراً باللهورسله جميعا وفى الآية وعيد لهم بالعقاب .

●★●

ثم كشف الله عن حالهم من الإيمان فقال تعالى :

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً)(١) .

فبسبب نقضهم ما عاهدوا عليه وبسبب كفرهم بآيات الله وبسبب قتلهم

---

(١) النساء

الأنبياء بغير حق وبسبب قولهم قلوبنا غلف لا يدخلها شيء لا نرضاه لأن الله طبع عليها وختم بالأقفال لأن قلوبهم مرنت على الكفر والطغيان فهم : (لا يؤمنون إلا قليلا) أى لا يؤمنون إلا بموسى والتوراة .

●✱●

وقال الله تعالى :

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)(١) .

أى ما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن به قبل أن يموت فيؤمن بعيسى بأنه عبد الله ورسوله وذلك حين تبدأ روحه فى النزاع ، وذلك الإيمان في ذلك الوقت لا ينفع صاحبه .

وإما أن يكون الضمير لعيسى والمعنى ما منهم أحد إلا ليؤمن بعيسى قبل موت عيسى وهم أهل الكتاب الذين يكونون فى زمان نزوله وقد روى أنه ينزل من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الإسلام ثم يموت عيسى وقد آمن به الناس جميعا .

●★●

ثم نادى الله أهل الكتاب لينهاهم عن الغلو فى الدين وألا يقولوا على الله إلا الحق فى أمر عيسى وفى التثليث، وليخبرهم أن الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، وذلك فى قوله تعالى :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا

---

(١) النساء

الحقّ إنَّما المسيحُ عيسَى ابنُ مَرْيَمَ رسولُ اللهِ وَكَلِمَتُه ألْقاها إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فآمنُوا باللهِ ورُسُلِهِ ولاَ تقُولُوا ثلاَثةٌ انْتهُوا خَيْراً لكُمْ إنَّمَا اللهُ إلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ)(١) .

لقد غلت اليهود فى حط المسيح عن منزلته حيث جعلته مولوداً لغير رشدة وغلت النصارى فى رفعه عن مقداره حيث جعلوه إلها وقد نهاهم الله عن تجاوز الحد والإسراف فى أمر عيسى ، بل غالوا فى أتباعه حتى ادعوا فيهم الألوهية (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً) وقد بين الله حقيقة عيسى بن مريم فى أنه رسول الله (وكلمته) أى أن الله أوجده بكلمته وأمره من غير واسطة ولا نطفة (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون) فكلمته هى : (كن) ألقاها إلى مريم وأوصلها إليها وحصلها فيها (وروح منه) أى رحمة من الله فكان عيسى رحمة من الله على الخلق حيث أرشدهم إلى مصالحهم أو الروح : النفخة فالروح عبارة عن نفخة جبريل بأمر الله وإذنه (فنفخنا فيه من روحنا) .

ثم نهاهم عن التثليث وأكد النهى بالفعل المأمور به انتهوا خيراً لكم إنما الله الذى يدير هذا الملك إله واحد (سبحانه أن يكون له ولد) يشركه معه فى ملكه .

● ✯ ●

وقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعث منهم النقباء ووعدهم بأنه معهم ولئن أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وآمنوا برسله ونصروهم وأقرضوا الله

---

(١) النساء

قرضا حسنا كفر عنهم سيئاتهم وأدخلهم الجنة فقضى الله ذلك فى قوله :

(وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)(١) .

أخبر الله أنه أخذ ميثاق بنى إسرائيل وعهدهم على الإيمان والطاعة وأنه بعث منهم اثنى عشر نقيبا لأن بنى إسرائيل كانوا اثنى عشر سبطا فبعث من كل سبط نقيبا ، وبعث النقباء إلى مدينة الجبارين الذين أمر موسى بالوقوف على أحوالهم .

وقال الله للنقباء أو لبنى إسرائيل كلهم (إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى) وأخر الإيمان عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، لأنهم كانوا مقرين بأنه لابد فى حصول النجاة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة) أى أنهم كانوا مصرين على تكذيب بعض الرسل فأمروا بالإيمان بهم ونصرهم ثم أمرهم بالصدقات وإقراض الله القرض الحسن فإذا فعلوا ذلك كفر عنهم سيئاتهم وأدخلهم الجنة .

●✱●

وتعجب الله منهم حين يحكمون الرسول وعندهم التوراة فقال :

(وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)(٢) .

---

(١) المائدة (٢) المائدة

إن الله يتعجب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه مع أن الحكم منصوص فى كتابهم الذى يدعون الإيمان به ، ثم هم يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما فى كتابهم ولا يرضون بذلك الحكم (وما أولئك بالمؤمنين) بكتابهم كما يدعون ، وبهذه الآية ينكر الله عليهم آراءهم الفاسدة فى تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بين أيديهم والذى يزعمون أنهم مأمورون بالخضوع لحكمه ، ثم هاهم أولاء يخرجون عن حكمه إلى غيره مما يعتقدون بطلانه ، ولهذا يتعجب الله من حالهم فى أمر هذا التحكيم ثم ينفى الله عنهم الإيمان أخيراً .

● ✻ ●

ثم أمر الله نبيه أن يقول لأهل الكتاب هل تكرهون وتنقمون منا إلا إيماننا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم فقال الله تعالى :

(قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وما أُنْزِلَ إلَيْنَا وما أُنْزِلَ[1] مِنْ قَبْلُ وأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ) .

لقد أمر الله نبيه أن ينادى أهل الكتاب يستفهم منهم والاستفهام هنا على معنى النفى أى أنهم لا ينقمون ولا يكرهون من المسلمين إلا أمرين : أولهما : الإيمان بالله وثانيهما : الإيمان بما أنزل علينا وهو القرآن وما أنزل من قبل من الكتب وكأنهم كرهوا من المسلمين الجمع بين هذين معا .

● ✻ ●

وروى أن ناسا من اليهود كانوا يدخلون على الرسول صلى الله عليه وسلم ويظهرون له الإيمان نفاقا فأخبره الله تعالى بشأنهم وأنهم يخرجون من

---

(١) المائده

مجلسك كما دخلوه بالكفر ونزلت الآية فى ذلك قال الله تعالى فى هؤلاء :

(وإِذَا جاءوكُمْ قالُوا آمَنّاً وقدْ دَخَلُوا بالْكُفْرِ وهُمْ قدْ خرَجُوا بهِ واللهُ أعْلَمْ بِما كَانُوا يَكْتُمُون)(١) .

فأولئك دخلوا مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم كافرين وخرجوا كذلك متلبسين بالكفرعلى الرغم من أنهم حين جاءوا قالوا آمنا ولكن ذلك القول لم يكن إلا بألسنتهم .

(والله أعلم بما يكتمون) من كفرهم ومكرهم ونفاقهم في قولهم : آمنا .

● ★ ●

وقال الله :

(ولَوْ أنَّ أهْلَ الْكِتابِ آمنُوا واتقَوا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سيِّئاتِهمْ ولأَدْخَلْناهُمْ جنات النَّعيم)(٢) .

ما أعظم فضل الله وما أوسع رحمته التى تتسع أولئك الذين يقولون : يد الله مغلولة، فيقول لو أنهم آمنوا بعد ذلك بالله ورسله وكتبه واتقوا الله لقدم لهم جزاءين : تكفير السيئات وإدخالهم الجنة .

● ★ ●

ثم قال :

(ولوْ كَانُوا يُؤْمنُونَ باللهِ والنبيِّ ومَا أُنْزِلَ إليْهِمْ ما اتَّخذُوهُمْ أَوليَاءَ ولَكِنَّ كثيراً مِنهُمْ فاسِقُون)(٣) .

---

(١) المائدة (٢) المائدة (٣) المائدة

لعن الله الذين كفروا من بنى إسرائيل وكانت لعنتهم نتيجة لدعاء داود على أهل أيلة حين اعتدوا فى السبت بأخذ الحيتان فدعا داود : اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردة .

كما دعا عيسى على أصحاب المائدة حيث أكلوا منها ولم يؤمنوا فقال عيسى : اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت فمسخوا خنازير ، وكان ذلك المسخ بسبب عصيانهم واعتدائهم وأنهم لا يتناهون عن منكر فعلوه ، وكثير منهم كان يتخذ الكافرين أولياء مما كان سببا لسخط الله وتخليدهم فى العذاب ثم قال الله (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى) ولو أن هؤلاء آمنوا بالله وبالنبى موسى (وما أنزل إليهم) وهو التوراة ما اتخذوا الكفار والمشركين أولياء لهم .

(ولكن كثيرا منهم فاسقون) أى خارجون على شريعتهم وكتابهم .

● ✱ ●

ورتب الله أعداء المسلمين من الكتابيين والمشركين بالنسبة لعداوتهم للمؤمنين فقال تعالى :

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)[1] .

---

(١) المائدة

رتب الله الناس حسب عداوتهم للمؤمنين على النحو الآتى الذى ذكرته الآية :

١ — أشد الناس عداوة للمؤمنين هم اليهود لأن كفرهم كفر عناد وجحود وغدر ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء وهموا أولادهم بقتل النبى وسمه وسحره .

٢ — والمشركون من الوثنيين لجحودهم وعنادهم .

٣ — أقربهم مودة للمؤمنين النصارى لأن منهم قسيسين ورهبانا وقد اتصفوا بعدم الكبر وأنهم إذا سمعوا القرآن فاضت عيونهم بالدمع وأعلنوا إيمانهم .

قيل نزلت الآية فى النجاشى وقيل فى وفد بعثه النجاشى إلى الرسول من القسيسين للوقوف على دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فلما قرأ الرسول عليهم القرآن بكوا وآمنوا وقالوا ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين .

● ✱ ●

ولقد أنكر اليهود والنصارى نعوت محمد والدلائل التى تدل على صحة نبوته من حيث الزمان والمكان والنسب والصفة والشكل وقد قال تعالى :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)(١) .

والمراد بالذين آتيناهم الكتاب اليهود والنصارى وهم كانوا أهل نظر واستدلال وكانوا قد شاهدوا ظهور المعجزات فعرفوا بواسطة تلك المعجزات كونه رسولا من عند الله فهم يعرفون كما يعرفون أبناءهم بحلاهم

---

(١) الأنعام

ونعوتهم لايخفون عليهم ولا يلتبسون بغيرهم (الذين خسروا أنفسهم) من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين (فهم لا يؤمنون) بالرسول ولا بالمعجزات ولا بالقرآن .

● ★ ●

وقال تعالى :

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)(١) .

(اتل ما أوحى إليك) ثم اتل عليهم خبر ما آتينا موسى الكتاب (تماما على الذى أحسن) أى تماما للكرامة والنعمة على الذى أحسن أو تماما على الذى أحسن موسى من العلم والشرائع أى أجاد معرفته .

(وتفصيل كل شيء) من أمور الدين ، ودخل فى ذلك بيان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ودينه وشرعه (وهدى) أى دلالة (ورحمة) أى نعمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) أى لكى يؤمنوا بلقاء ربهم والمراد به لقاء ماوعدهم الله به من الثواب والعقاب .

● ★ ●

وقال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ)(٢) .

أولئك هم اليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة ،

---

(١) الأنعام (٢) آل عمران

ثم ازدادوا كفر بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن أو كفروا برسول الله بعد أن كانوا مؤمنين به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفراً بإصرارهم على ذلك وطعنهم فيه وعداوتهم له .

فأولئك قضى الله بأنه لاتقبل منهم توبة لأنهم مائتون على الكفر (وأولئك هم الضالون) الذين ضلوا الطريق المستقيم .

●★●

وقال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا)(1) .

قيل نزلت فى اليهود آمنوا بالتوراة وبموسى ثم كفروا بعزير ثم آمنوا بداود ثم كفروا بعيسى ثم ازدادوا كفراً عند بعثة محمد وقيل : نزلت فى المنافقين أظهروا إسلامهم ، وكفرهم بعد ذلك هو نفاقهم والإيمان الثانى أنهم كلما لقوا جمعا من المسلمين أظهروا إيمانهم وإذا خلوا إلى شياطينهم كفروا .

(ولم يكن الله بعد الكفر المتكرر أن يغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) إلى الخير لأن قلوبهم مفعمة بالكفر .

●★●

قال الله تعالى :

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ

---

(1) النساء

مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)[١] .

بين الله أن أهل الكتاب الموصوفين بالصفات الأربع الآتية تجب مقاتلتهم وتلك الصفات هى :

١ — أنهم لا يؤمنون بالله .

٢ — أنهم لا يؤمنون باليوم الآخر : والمنقول عن اليهود والنصارى إنكار البعث الجسمانى .

٣ — ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله : أى لا يحرمون ما حرم فى القرآن والسنة .

٤ — ولا يدينون دين الحق ، أى ولا يعتقدون فى صحة دين الإسلام .

والموصوفون بهذه الأوصاف يجب مقاتلتهم حتى يعطوا الجزية عن يد ، واليد إما أن يراد بها يد المعطى أو يد الآخذ أو المراد عن يد مؤتية غير ممتنعة أو عن يد قاهرة لهم وهم صاغرون أذلاء .

●★★●

(١) التوبة

الفصل الثامن

ماجاء من الإيمان فى القرآن حول المنافقين ومواقفهم

ورد ذكر النفاق والمنافقين ومواقفهم فى السور المدنية ذلك لأن مكة لم يكن فيها نفاق ، بل كان فيها التحدى الصارخ للدعوة .

●★●

ذكر الله فى أول سورة البقرة المنافقين فقال :

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِين يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرون فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُون وإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فى الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرون وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لايَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون)[1] .

هؤلاء الذين ذكرهم الله فى هذه الآيات هم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وأبطنوا خلاف ما أظهروا وهم المنافقون وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله ، ولقد نعى الله عليهم خبثهم وسجل صورهم ، وكان على

---

(١) البقره

رأس هؤلاء المنافقين فى المدينة : عبد الله بن أبىّ وأصحابه ومن كان مثلهم فى التصميم على النفاق .

خص بالذكر الإيمان بالله واليوم الآخر لأنهم كانوا يهوداً وإيمان اليهود بالله ليس بإيمان لقولهم: عزير بن الله وإيمانهم بالله واليوم الآخر لأنهم يعتقدونه على خلاف صفته وقد نفى الله ذلك الإيمان بصورة مؤكدة فى قوله : وما هم بمؤمنين وهذا آكد وأبلغ فى نفى ذواتهم عن الإيمـان ثم قال : (يخادعون الله) وهذا بيان لقوله (يقول آمنا) - (وأصل الخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد) .

وإن صورة صنعهم مع الله من حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون صورة صنع الخادعين وهم بذلك لا يخدعون إلا أنفسهم لأن ضرر ذلك سيلحق بهم .

(فى قلوبهم مرض) ومرض قلوبهم مجاز عن سوء اعتقادهم وغلهم وحسدهم لأن صدورهم كانت تغلى حقداً وحسداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين (فزادهم الله مرضاً) أى غلا وحقداً لإقبال الناس على الإسلام وكثرة المسلمين وتوالى نزول الوحى على الرسول (ولهم عذاب أليم موجع) فى الآخرة بسبب كذبهم (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض) بإهاجة الفتن بين الناس والميل إلى الكفار (قالوا إنما نحن مصلحون) وإن صفة الإصلاح خالصة لنا ورد الله قولهم فى صورة تأكيدية (ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) - وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس) يراد بالناس المؤمنون بالله أو عبد الله بن سلام وأصحابه ممن كانوا يهوداً وأسلموا (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) ويقصدون : عبد الله بن سلام وأصحابه أو فقراء

المؤمنين كبلال وصهيب وخباب وسموهم سفهاء تحقيرا لشأنهم، رد الله عليهم بقوله :

(ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) وهكذا فى صورة تأكيدية يرميهم الله بالسفه والحمق والجهل ولكنهم يجهلون لفرط حقدهم أنهم سفهاء فى موافقهم وما يفعلون .

وكشف الله موافقهم مع المؤمنين والكافرين فى قوله : (وإذا لقوا الذين آمنوا إلخ فهم حينما يلاقون المؤمنين يقولون : آمنا) بألسنتهم لا بقلوبهم وإذا انفردوا بشياطينهم الذين ماثلوا الشياطين فى التمرد والعصيان (قالوا إنا معكم) أى مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم (إنما نحن مستهزئون) بالمسلمين فى إظهار أنا معهم بألسنتنا، والحقيقة أنا لسنا معهم وإنما نحن نسخر بهم ونستهزىء، ورد الله عليهم بقوله (الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) ويتحيرون .

● ★ ●

ثم قال الله تعالى فى بيان حال المؤمنين مع المنافقين وبيان حال المنافقين معهم وكشف طوايا نفوسهم فقال :

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)(١) .

(أنتم أولاء) المخطئون فى موالاة منافقى أهل الكتاب فإنكم تحبونهم وتظهرون لهم المودة وهم لا يحبونكم لا ظاهراً (فقد بدت البغضاء من أفواههم)

---

(١) آل عمران

ولا باطنا فصدورهم منطوية على الحقد والغل (وتؤمنون بالكتاب كله) أى تؤمنون بكتابهم كله ، وهم لا يؤمنون بكتابكم وهو القرآن (وإذا لقوكم قالوا آمنا) ولم تجاوز الكلمة ألسنتهم فهو إيمان المنافقين وإذا انفردوا وخلوا بأنفسهم ندموا على ماقالوا وعضوا على ماأنتم فيه من العز والسلطان الأنامل من الغيظ، وأمر الله نبيه أن يقول لهم ويدعو عليهم بقوله: (موتوا بغيظكم) من قوة الإسلام وعزة أهله (إن الله عليم بذات الصدور) فهو يعلم مافى صدور المنافقين من الحنق والبغضاء .

●★●

وكشف الله حال المنافقين وموقفهم وقولهم يوم التقى الجمعان وأظهر طويتهم فى قوله تعالى :

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْأَيمَانِ)(١)

بين الله أن ما أصاب المسلمين يوم التقى جمعهم وجمع المشركين أنه بإذن الله وعلمه ليبتلى المؤمنين وليميزهم من المنافقين أى ليتميز حال المؤمن الثابت الإيمان وحال المنافق الذى يغلى قلبه حقدا على المؤمنين (وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا) أى أن الأمر يدور حول طلبهم لأحد شيئين : أن يقاتلوا فى سبيل الله كقتال المؤمنين أو أن يدافعوا عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم ولكنهم أبوا القتال وجحدوا القدرة عليه لنفاقهم، وقد روى أن عبدالله بن أبى انخذل بثلث الناس يوم أحد (وقالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم)

---

(١) آل عمران

وكأنهم يقولون : للمسلمين ولو كنا نعلم أن الخروج صواب لاتبعناكم ثم أعلن الله أنهم (هم للكفر يومئذ أقرب منهم الايمان) فهم قبل ذلك كانوا يتظاهرون بالإسلام ، وماظهر منهم مايدل على الكفر فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين تباعدوا عن الإيمان واقتربوا من الكفر .

●✱●

وكشف الله عن صورة من صور النفاق فى قوله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا)[1] .

الخطاب فى قوله : (ألم تر) للنبي صلى الله عليه وسلم أو هو عام فى كل من تتأتى منه الروية ، وقد روى أن بشرا المنافق خاصم يهوديا فدعاه اليهودى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ، ثم إنهما احتكما إلى الرسول فقضى لليهودى فلم يرض المنافق بالقضاء وقال لخصمه اليهودى تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب فقال اليهودى لعمر : قضى لنا رسول الله ولم يرض بقضائه فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ قال المنافق : نعم فقال عمر : مكانكما ثم دخل فحمل سيفه وضرب عنق المنافق ثم قال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله فنزلت وقال جبريل : إن عمر فرق بين الحق والباطل فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر : أنت الفاروق

والطاغوت : كعب بن الأشرف سماه الله طاغوتا لإفراطه فى الطغيان .

---

(١) النساء

وقال تعالى :

(فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) [1] .

قيل نزلت فى شأن الزبير وحاطب بن بلتعة : اختصما إلى رسول الله فى شراج من الحرة كانا يسقيان بها النخيل فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك ، فغضب حاطب وقال لأن كان ابن عمتك فتغير وجه الرسول ثم قال : اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر واستوف حقك ، ثم أرسله إلى جارك ففى الرأى الأول : أشار بالسعة له ولخصمه وفى الرأى الثانى : استوعب للزبير حقه ، ثم خرجا فمرا على المقداد فقال لمن كان القضاء فقال الأنصارى : قضى لابن عمته ولوى شدقه ففطن يهودى كان مع المقداد فقال : قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه فى قضاء يقضى به بينهم .

● ★ ●

وقال تعالى :

(بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعاً الَّذِينَ

---

(١) النساء

يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)[1] .

وصف المنافقين بأنهم هم الذين يوالون الكافرين ويتخذون منهم أولياء دون المؤمنين أيطلبون عندهم بهذه المواقف العزة فإن كانوا كذلك فليعلموا أن العزة لأولياء الله الذين كتب لهم العزة والغلبة على اليهود .

وقد نزل عليكم فى الكتاب أن (إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) وما نزل الله من قبل بمكة قوله تعالى : (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) وذلك أن المشركين فى مكة كانوا يخوضون فى ذكر القرآن فى مجالسهم فيستهزئون به فنهى المسلمون عن القعود معهم ، وكان أحباء اليهود فى المدينة بعد الهجرة يفعلون فعل مشركى مكة فنهى المسلمون كذلك عن القعود معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، والذين كانوا يقاعدون الخائضين فى القرآن من الأحبار هم المنافقون فقيل لهم إنكم إذا حين تقعدون معهم وتسمعون خوضهم فأنتم مثلهم فى الكفر ، وإن الله يوم القيامة سيجمع المنافقين والكافرين جميعا فى جهنم ، (الذين يتربصون بكم) هذه صفة للمنافقين أى ينتظرون بكم ما يتجدد لكم من ظفر أو إخفاق (فإن كان لكم نجح من الله) وظفرتم بأعدائكم (قالوا ألم نكن معكم) نظاهركم ونعاونكم فأسهموا لنا فى الغنيمة (وإن كان

(١) النساء

للكافرين نصيب) من الظفر على المسلمين قالوا للكافرين : (ألم نستحوذ عليكم) ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم (ونمنعكم من المؤمنين) بأن ثبطناهم عنكم وخيلنا لهم ماضعفت به قلوبهم فهاتوا نصيبا لنا مما أصبتم .

فالله يحكم بينكم يوم القيامة فى جزاء هذه المواقف والأقوال (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) يوم القيامة أو فى الدنيا فلن يغلبهم أحد بالحجة والدليل .

● ★ ●

وأخبر الله عن مكان المنافقين فى النار فبين أنهم فى الدرك الأسفل ثم استثنى من تاب منهم وأصلح فقال تعالى :

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً)(١) .

فى قوله : إلا الذين تابوا تغليظ عظيم على المنافقين يتلاءم مع جرم نفاقهم حيث شرط فى إزالة العقاب عنهم أمورا : التوبة وإصلاح العمل والاعتصام بالله والتمسك الشديد بالدين ـ والإخلاص الصادق فى الدين بأن يكون لله لا للمراءاة أو السمعة فأولئك إن فعلوا ذلك فإنهم مع المؤمنين ، ثم أوقع أجر المؤمنين فى التشريف لانضمام المنافقين إليهم فقال (وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما) ثم قال : (ما يفعل الله بعذابكم)

---

(١) النساء

أيعذبكم لأجل التشفى فإذا احترزتم عن القبائح فكيف يليق بكرمه أن يعذبكم ، وإن الله يعذب الناس بذنوبهم وما يفعل بالعذاب إن أخلص المنافقون وآمنوا بالله ورسوله .

●★●

ونادى الله رسوله لينهاه عن الحزن حين مسارعة المنافقين إلى الكفر فقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُم)(١) .

أى لاتهتم ولاتبال بمسارعة المنافقين فى الكفر أى فى إظهاره بما يبدو منهم من آثار الكيد للاسلام ومن موالاة المشركين فإنى ناصرك عليهم وكافيك شرهم فلا تحزن على وقوعهم فى الكفر وتهافتهم فيه فهؤلاء آمنوا بأفواههم فحسب أما قلوبهم فهى خاوية من الإيمان .

●★●

ثم قال تعالى ليكشف حال المنافقين وحلفهم وقول المؤمنين فيهم فقال تعالى :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ)(٢) .

وهكذا يتعجب المؤمنون من موقف المنافقين فيقول بعضهم لبعض : أهؤلاء الذين أقسموا بالله وحلفوا بأغلظ الأيمان أنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار .

---

(١) المائدة (٢) المائدة

(حبطت أعمالهم) وهذا من جملة قول المؤمنين أى بطلت أعمالهم التى كانوا يتظاهرون بها (فأصبحوا خاسرين) لكل ماقدموا من عمل تظاهروا فيه بالإيمان والصلاح .

●

وحدث القرآن عن أناس كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويظهرون له الإيمان نفاقا فقال الله :

(وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ) .

وبهذه الآية كشف الله أمر أولئك المنافقين الذين كانوا يدخلون على رسول الله وقلوبهم مفعمة بالكفر ويخرجون كذلك وقلوبهم مملوءة كفراً فلم يغير الرسول ولا مايسمعون منه شيئا مما فى قلوبهم والله أعلم بما كانوا يكتمونه من سوء العقيدة .

●★●

وكشف الله أمر المنافقين وهم يستأذنون رسول الله فى عدم الخروج معه إلى تبوك فقال تعالى :

(إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)[1] .

وبهذا بين الله أن هذا الاستئذان لايصدر إلا عن عدم إيمان بالله واليوم الآخر ، وبين أن عدم إيمان هؤلاء إنما كان بسبب الشك وهذا يدل على

(١) التوبة

أن الشاك المرتاب غير مؤمن بالله وكأن الريب ظرف لهم يروحون ويجيئون فيه فلا يخرجون منه .

● ✶ ●

وقال تعالى :

(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ)(١) .

وقد تقدم التعليق على هذه الآية .

وذكر الله نوعا من قبائح المنافقين وهو حلفهم بالله كذبا ليزيلوا بهذه الأيمان ماقد يكون فى نفس الرسول والمؤمنين من شكوك فى مواقفهم فقال تعالى :

(يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)(٣) .

قيل : نزلت هذه الآية فى رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع النبى صلى الله عليه وسلم جاءوا فاعتذروا عن تخلفهم وحلفوا الأيمان ليرضوا رسول الله والمؤمنين والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه بطاعتهم وصدقهم وإخلاصهم إن كانوا مؤمنين .

● ✶ ●

وخاض المنافقون فى الله وآياته ورسوله ولما سئلوا عن ذلك قالوا كنا نتسلى بهذا الحديث ، فقال تعالى :

---

(١) التوبة (٣) التوبة

(وَلئِنْ سَأَلتَهم لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُون لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)[1] .

روى ابن عمر أن رجلا من المنافقين قال فى غزوة تبوك : ما رأيت مثل هؤلاء القوم أرعب قلوبا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فقال أحد الصحابة كذبت ولأنت منافق ثم ذهب ليخبر الرسول بتلك المقالة فوجد القرآن قد سبقه بالنزول فجاء الرجل إلى الرسول وقال : إنما كنا نلعب ونتحدث بحديث الركب نقطع به الطريق وكان يقول إنما كنا نخوض ونلعب والرسول يقول (أ بالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) أى بعد تظاهركم بالإيمان فلم يكن إيمانهم خالصا .

●★●

ومن قبائح المنافقين ما ذكره الله فى قوله تعالى :

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُم فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[2] .

قد مر التعليق على هذه الآية

●★●

وطالما احتال المنافقون فى التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم

---

(١) التوبة (٢) التوبة

الخروج معه إلى الغزو وكلما نزلت سورة أو آية تدعو إلى الجهاد أو آية تدعوا إلى الجهاد استأذن أصحاب القدرة والمال عن الخروج وطلبوا من الرسول البقاء وذلك ما قصه الله فى قوله :

(وإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ) (١).

قيل المراد بالسورة : براءة وقدم الإيمان بالله على الجهاد لبيان أن الواجب أولا هو الإيمان بالله ثم يجىء الجهاد ثانياً ولهذا أمر الله بالإيمان به ثم الجهاد مع رسوله صلى الله عليه وسلم فإذا طلب من المنافقين هذين الأمرين جاء أصحاب السطوة والقوة والمال يستأذنون الرسول فى عدم الخروج وقالوا : اتركنا مع القاعدين المتخلفين ورضوا بهذا الموقف أن يكونوا مع الخوالف من النساء اللواتى يتخلفن عن الحروب وقد طبع وختم على قلوبهم فهم لا يفقهون أسرار حكمة الله فى الأمر بالجهاد .

● ★ ●

وقال تعالى :

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ) .

لقد كشف الله موقف المتخلفين لرسوله صلى الله عليه وسلم وبين أنهم يعتذرون إلى الرسول وإلى المؤمنين حين رجوعهم من تبوك ثم أمر

---

(١) التوبة

الله رسوله أن يقول لهم : لا تعتذروا لأنا لا نؤمن لكم ولا نصدقكم لأن الله أوحى إلى بموقفكم وما تعتذرون به .

● ✱ ●

وحدثنا القرآن عن المنافقين الذين بنوا مسجد ضرار لا لشيء إلا لأنهم يريدون تفريق صفوف المسلمين فقال :

(والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقا بين المؤمنين) .

● ✱ ●

وذكر الله قبيحة من قبائح المنافقين حينما تنزل سورة فقال تعالى :

(وإذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أيكُمْ زَادَتْهُ هذِهِ إيمَاناً فأَمَّا الَّذِينَ آمنُوا[1] فزَادَتْهُمْ إيماناً وهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فى قلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ) .

والمعنى أنه إذا أنزلت سورة على الرسول فمن المنافقين من يقول لبعض المنافقين على سبيل الاستهزاء : أيكم زادته هذه السورة إيمانا ، ومرادهم تثبيت المنافقين على النفاق أو يقول لبعض المؤمنين : (أيكم زادته هذه إيمانا) ويريد بذلك صرف المؤمنين عن الإيمان أما الذى حصل للمؤمنين عند نزول سورة فهو زيادة إيمانهم عند نزولها لإقرارهم واعترافهم بأنها من عند الله وإنهم ليستبشرون عند نزول السورة بثواب الآخرة أو النصر والظفر فى فى الدنيا وأما مرضى القلوب من المنافقين فنزول السورة يزيدهم فساداً على فسادهم وسوء خلق على سوء خلقهم وضياع عقيدة على ضياعها .

● ★ ●

(١) التوبة

وذكر الله قول بعض المنافقين آمنا بالله فقال :

(وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وبِالرَّسُولِ وأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وما أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) (١) .

نزلت فى المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر وهؤلاء قالوا آمنا بالله وبالرسول وأطعنا وبقولهم هذا قدموا بألسنتهم إعلان الإيمان بالله والرسول والطاعة ثم يرجع هذا الفريق إلى الباقين منهم فيظهر بعضهم لبعض الرجوع عما أظهروه وما أولئك الذين تولوا ورجعوا بمؤمنين وهكذا ينفى الله إيمان هؤلاء المتولين فى صورة مؤكدة .

●★●

وقسم الله فى سورة العنكبوت الناس إلى مؤمنين وكافرين ومذبذبين وقال فى القسم الثالث :

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فى اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فى صُدُورِ العَالَمِينَ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ المُنَافِقِينَ) (٢) .

بين الله فى هذه الآية ذلك الفريق من المنافقين وهم أولئك الذين يقولون آمنا بالله وكأنهم يشبهون أنفسهم بالمؤمنين الثابتى الإيمان فيقولون : إن إيماننا كإيمانهم فنحن جميعا مؤمنون بالله فإذا أوذى هذا المنافق في الله بأن أخرج من داره أو أوذى بأى نوع من الإيذاء فى سبيل الله (جعل فتنة الناس

---

(١) النور (٢) العنكبوت

كعذاب الله) أى أن فتنة الناس له تصرفه عن الإيمان كما أن عذاب الله يصرف عن الكفر .

ثم بين أنه يعلم المؤمن الحق وإن لم يتكلم ويعلم المنافق الحق وإن تكلم فقال (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين .

● ★ ●

يعلم أمر المعوقين المثبطين الذين يقولون لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ثم قال :

(فإذَا جاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كالَّذِى يُغْشَى عليهِ مِنَ المَوْتِ[1] فإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُم بِألْسِنَةٍ حِدَادٍ أشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أعمالهم)

تصور الآية جبن المنافقين وانهم حينما يجيئهم الخوف ويرون جيوش الأحزاب وهى تستعد للهجوم ينظرون إلى رسول الله فى خوف مميت وعيونهم تدور وتلف ولا تثبت على حال كدوران عيون الذى يغشى عليه من الموت فإذا انتهى موقف الخوف راحوا يرمون المسلمين بألسنة حداد وآذوا المسلمين بكلامهم فيقولون : نحن الذين قاتلنا وبنا انتصرتم على عدوكم وإنهم لأشحة على الخير بخلاء بالمال .

وقد نفى الله عنهم الإيمان فى قوله : (أولئك لم يؤمنوا) فكشف الله قلوبهم فأعلن أنها خالية من الإيمان وقد أبطل الله أعمالهم التى قاموا بها ليوهموا المسلمين بإيمانهم ، وأعلن الله بطلانها لأنها لم تصدر عن إيمان .

●★●

---

(١) الأحزاب

وقال تعالى :

(ويقولُ الَّذِين آمنوا لَوْلاَ نُزِّلَتْ سورةٌ فإذا أُنْزِلتْ سورةٌ مُحكمةٌ وذُكِرَ فيها القِتالُ رأيتَ الَّذينَ في قلوبِهم مرضٌ ينظرُون إليكَ نظرَ المَغْشِيِّ عليهِ منَ الموتِ فأَوْلَى لهم) (١) .

فالمؤمنون يتمنون نزول سورة يمتحن فيها المؤمن والمنافق تأمر بالقتال (فإذا أنزلت سورة محكمة) مبينة لا تحتمل وجها إلا وجوب القتال وهى أشد القرآن على المنافقين رأيت الذين فى قلوبهم مرض وهم المنافقون الذين كانوا يعبدون الله على حرف غير ثابتى الأقدام (ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) أى تشخص أبصارهم جبنا وهلعا وغيظا كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت (فأولى لهم) وهذا وعيد بمعنى فويل لهم .

●★●

وأنزل الله سورة المنافقين وسماها باسمهم لأنها تحفل ببيان حالتهم وتقدم الكثير من صورهم قال فيها :

(اتَّخذُوا أيمانَهم جُنَّةً فصدُّوا عن سبيلِ اللهِ إنهم ساءَ وما كانُوا يعمَلُونَ ذلكَ بأنهُم آمنوا ثم كفرُوا) (٢) .

يبين الله أنهم اتخذوا من إيمانهم التى يحلفون بها ستاراً يتوارون وراءه خوفا على أنفسهم من القتل إذا انكشف أمر نفاقهم ويجوز أن يكون قولهم : (نشهد إنك لرسول الله) يمينا اتخذوه جنة ووقاية وسترا لهم وأعرضوا بأنفسهم عن طاعة الله أو (فصدوا) بمواقفهم وكيدهم الضعفاء عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعته .

---

(١) القتال (٢) المنافقون

(إنهم ساء ما كانوا يعملون) أى بئس ما كانوا يعملون حيث آثروا الكفر على الإيمان وأظهروا خلاف ما يبطنون ويكتمون (ذلك) إشارة إلى قوله : ساء ما كانوا يعملون (بأنهم آمنوا فى الظاهر) ثم كفروا فى الباطن وفيه تأكيد لقوله : والله يشهد أنهم لكاذبون .

وقوله : (آمنوا) ليس معناه حقيقة الإيمان وهى أنهم آمنوا بقلوبهم وإنما نطقوا بكلمة الإيمان بألسنتهم (فقالوا آمنا) ولم تتجاوز الكلمة ألسنتهم إلى قلوبهم .

●★●

الفصل التاسع

ما جاء من كلمة الإيمان

١ — حول الكافرين نفيا .

٢ — أو أمرا لهم بالإيمان .

٣ — أو حول مواقفهم من المؤمنين.

ويتناول ذلك الباب عدم إيمان الكفار مطلقا أو عدم إيمانهم بالله أو باليوم الآخر وما فيه من حساب وبالبعث أو عدم إيمانهم بالقرآن أو بالآيات المنزلة لتأييد الرسول أو بالرسول ورسالته .

● ★ ●

قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)[1] .

والتعريف فى قوله : (الذين) يجوز أن يكون للعهد ويراد به أناس بأعيانهم كأبى لهب وأبى جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم أو أن يكون للجنس ويتناول كل من صمم على الكفر وأصر عليه وسواء : اسم بمعنى الاستواء كأنه قيل : إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه والإنذار : التخويف من عقاب الله والمعنى : مستو عندهم تخويفك وعدم

---

(١) البقرة

تخويفك (لا يؤمنون) نفى الله الإيمان عن الكافرين المصرين وبين أن إنذارهم وعدمه سواء لديهم .

● ★ ●

وقد زين الشيطان للكافرين الدنيا ، قال تعالى :

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (١) .

لقد زينت الحياة الدنيا للكفار والمزين لها فى عيونهم هو الشيطان الذى خدعهم بزينتها لهم حتى أضلهم ولأنهم حين يرون ماهم فيه من الغنى والثراء يسخرون من الذين آمنوا من الفقراء أمثال ابن مسعود وعمار وصهيب لأنهم لم يعطوا نصيبها من الدنيا (والذين اتقوا فوقهم) يوم القيامة لأنهم فى عليين من السماء والكفار فى سجين من الأرض وإذا تطاولوا عليهم فى الدنيا بالمال والسلطان وسخروا منهم وضحكوا فيوم القيامة تنقلب الأوضاع ويضحك المؤمنون من الكافرين (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون .

● ★ ●

وبين الله أنه فضل بعض الرسل على بعض وأن من بعدهم اختلفوا بعد ماجاءتهم البينات فمنهم من آمن ومنهم من كفر فقال تعالى :

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ

---

(١) البقرة

الْقُدسِ ولَوْ شاءَ ٱللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءتْهمُ الْبَيِّنَاتُ ولٰكِنِ اخْتَلَفُوا فمِنْهُم مَنْ آمَنَ ومِنْهُم مَنْ كَفَرَ)[1].

إشارة إلى جماعة الرسل الذين ذكروا فى السورة، وقد بين الله أنه فضل بعضهم على بعض فليسوا جميعا فى منزلة واحدة فمنهم من كلم الله وهو موسى ورفع بعضهم درجات وآتى عيسى بن مريم الآيات البينات وأيده بروح القدس (جبريل) ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعد الرسل لاختلافهم فى الدين وتشعب مذاهبهم وتكفير بعضهم بعضا (ولكن اختلفوا فمنهم من آمن) فالتزم بدين الأنبياء ومنهم من كفر لإعراضه عن دين الأنبياء .

●★●

وقال تعالى :

(كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[1].

نزلت فى اليهود كفروا بعد إيمانهم وبعد ماشهدوا أن الرسول حق وبعد ماجاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التى تثبت بمثلها النبوة وكيف يكفرون وقد عاينوا من البينات مايوجب قوة إيمانهم .

فكيف يهديهم الله بعد هذا الكفر ولقد ظلموا أنفسهم بهذا الكفر والله لايهدى القوم الظالمين .

●★●

وقال تعالى :

(وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ باللهِ وَلَا

---

(١) آل عمران

بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ)(١) .

نزلت فى مشركى مكة الذين كانوا ينفقون أموالهم فى عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم رياءاً ليتحدث الناس عن سخائهم وجودهم وإنفاقهم الأموال لافى سبيل الله ولكن فى عداوة الله ورسوله وكان الشيطان قرينهم فيما يفعلون فيدفعهم إلى كل عمل يغضب الله ورسوله وساء ذلك القرين أى وبئس القرين قرينهم وأى تبعة وأى وبال عليهم فى الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق فى سبيل الله مما زرقهم الله ، والمراد ذمهم وتوبيخهم على عدم الإيمان وعدم الإنفاق .

●★●

وقال تعالى :

(وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً)(٢) .

روى أن طعمة بن أبيرق لما هتك ستره وبرى اليهودى من تهمة السرقة ارتد وذهب إلى مكة ونقب جدار إنسان لأجل السرقة فتهدم الجدار عليه ومات فنزلت الآية ، والمشاقة عبارة معناها أن كلا منهما يقتضى لحوق مشقة بصاحبه (من بعد ماتبين له الهدى) أى بعد ماظهر له بالدليل صحة الإسلام لأنه قد تبين بما أوحى الله من أمره وإظهار سرقته مايدل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (ويتبع غير سبيل المؤمنين) يعنى غير دين الموحدين حيث ترك الإسلام واتبع دين الوثنية نوله ماتولى) أى نتركه وما اختيار

(١) النساء (٢) النساء

لنفسه ونكله إلى ما توكل عليه وفى الآخرة مصيره إلى جهنم وبئس المصير .

●✱●

وقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)(١) .

النداء عام للكفار من المشركين والكتابيين وقد ناداهم الله ليخبرهم أن الرسول قد جاءهم بالحق من عند الله والمراد بالحق : القرآن وهو معجزة أو الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ، وأمرهم بالإيمان، فالإيمان خير لهم مما هم فيه وهو أحمد عاقبة من الكفر وإن أبوا إلا الكفر فإن الله غنى عن إيمانهم لأنه مالك السموات والأرض ومن كان كذلك كان قادراً على إنزال العقاب بمن كفر (وكان الله عليما) لايخفى عليه شيء (حكيما) لايضيع عمل عامل ولا يسوى بين المؤمن والكافر فى الجزاء الأخروى .

●✱●

وأمر الله نبيه أن يسأل الناس : لمن ما فى السموات والأرض ، فقال تعالى :

(قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)(٢) .

أمر الله نبيه أن يسأل الناس : (لمن ما فى السموات والأرض) من عوالم

---

(١) النساء (٢) الأنعام

ثم أمره بالجواب (قل لله) ثم أتبع ذلك بما يدل على كمال رحمته بقوله : (كتب على نفسه الرحمة) وأوجبها ورحمته التي كتبها على نفسه هي أن يمهل العصاة في حياتهم فلا يستأصلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة الدنيوية وكأنه لما قال : كتب على نفسه الرحمة قيل وما تلك الرحمة فقيل (ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه) وذلك لأنه لولا خوف العذاب يوم القيامة لما آمن الناس ، فالتهديد بيوم القيامة من أعظم أسباب رحمة الله بعباده .

(الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون)والمعنى ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم حين تخلت عن الحق فهم لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .

●★●

وقال تعالى :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)[1] .

تشير الآية إلى أن من الكفار من يستمع إلى تلاوة القرآن ولكن الله جعل على قلوبهم أكنة جمع كنان وهو ماوقى الشيء وستره وقد قالوا: (قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وجعل الله في آذانهم وقرا) أي ثقلا في السمع فكأنهم لايسمعون مايتلى والحقيقة أنهم لما كانوا لم ينتفعوا بما

---

(١) الانعام

سمعوا فكأنهم لم يسمعوا (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) وإن يروا كل دليل وكل حجة لا يؤمنوا (حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) ، والمعنى أنه بلغ بتكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك وينا كرونك فيقول الكافرون من أمثال النضر : ماهذا القرآن وما يقصه من قصص إلا كأساطير الأولين مثل حديث رستم واسفنديار وما فى أساطيرهما من قصص .

ويريدون بذلك القدح فى كون القرآن معجزاً وكأنهم يرون حكاياته من جنس حكايات الأساطير .

●✱●

وقال تعالى :

(ولَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ونَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِين)[١].

(الخطاب فى قوله : ولو ترى) للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل من تتأتى منه الرؤية يوم القيامة إذا وقفوا على النار » أى عاينوها أو وقفوا عليها وهى من تحتهم أو عرفوا حقيقتها عندئذ يتمنون أمنيات ثلاث : الرجوع إلى الدنيا وإذا تحقق لهم ذلك فإنهم لا يكذبون بآيات الله وأنهم يكونون من المؤمنين ليظفروا من الثواب بما ظفر به المؤمن .

والمراد من تمنيهم : ردهم إلى حالة التكليف .

●✱●

---

(١) الانعام

وقال تعالى :

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون)(١) .

طلبوا من محمد صلى الله عليه وسلم معجزة غير القرآن وحلفوا أغلظ الإيمان أنهم لو جاءتهم آية أخرى غير القرآن ليؤمنن بها وقد روى أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : تخبرنا أن موسى ضرب الحجر بالعصا فانفجر فأتنا بآية نصدقك بها قال : ما الذي تحبون قالوا تجعل لنا جبل الصفا ذهبا وحلفوا : لئن فعل ليتبعونه جميعا فأنزل الله الآية مصورا لما قالوا ثم أمر الله نبيه أن يقول لهم (إنما الآيات من عند الله) فهو المختص بالقدرة على أمثال هذه الآيات وليس لكم أن تتحكموا في طلب الآيات ونوعها ثم قال :(وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) أي وما يدريكم إيمانهم إذا جاءتهم الآيات فالله يعلم أنها إذا ظهرت لهم فهم لا يؤمنون بها .

---

(١) الانعام

ثم قال : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) أى نحولها عن وجهها تقديره فلا يؤمنون بهذه الآيات كما لم يؤمنوا بظهور الآيات أول مرة أتتهم الآيات (ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) ونتركهم فى ضلالهم يتحيرون دون إيمـــان .

وروى أن الوليد بن المغيرة وغيره من المعاندين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له : أرنا الملائكة يشهدون أنك رسول الله ، وابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم : أحقا ماتقول أم باطلا ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله (وقبلا) إما أن يكون جمع قبيل بمعنى كفيل ما آمنوا (إلا أن يشاء الله) ذلك ولكن أكثرهم يجهل أن الكل من الله وبقضائه .

ثم بين الله أنه جعل (لكل نبى عدوا) شياطين الإنس والجن .

والمراد بشياطين الإنس والجن : المردة منهما (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول) أى القول المزخرف المزين ليفتنوا به (ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون) أى لو شاء ربك مافعلوا ذلك الغرور فاتركهم ومايفترونه ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا الذنوب أى ليختلفوا وليكذبوا .

● ★ ●

وقال تعالى :

(وإِذَا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ ما أُوتِىَ رُسُلُ اللهِ ، اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ)(١) .

---

(١) الأنعام

لقد كان الكفار يحسدون محمداً صلى الله عليه وسلم على النبوة ، إن إصرارهم على الكفر لم يكن لطلب الحجة والبينة ، بل كان لذلك الحسد وحده ، وقد كان الوليد بن المغيرة يقول : لو كانت النبوة حقا لكنت أحق بها من محمد .

فإذا جاءت معجزة وآية تدل على صحة نبوة محمد (قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) إنهم يتطلعون أن تكون لهم نبوة وأن يؤتوا من الآيات مثل ما أوتى محمد والرسل من قبله فهم يريدون أن يكونوا متبوعين لا تابعين .

ثم قال الله للرد على ما طلبوا (الله أعلم حيث يجعل رسالته) أى إن للرسالة موضعا مخصوصا لا يصلح وضعها إلا فيه فمن كان موصوفا بالصفات التى لأجلها يصلح وضع الرسالة فيه كان رسولا والعالم بتلك الصفات هو الله وحده .

●★●

ثم قال تعالى :

(فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فى السَّماءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ)[1] .

فمن أراد الله منه الإيمان قوى دواعيه إلى الإيمان ، ومن أراد الله منه الكفر قوى صوارفه عن الإيمان ، وقوى دواعيه إلى الكفر ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا فجعل الصدر ضيقا حرجا يتقدم حصوله على

---

(١) الأنعام

حصول الضلالة وكأنما الضال وصدره يضيق بالضلال مثله كمثل من يصعد إلى السماء فصدره يضيق بالتعب والإعياء وكضيق صدر من يصعد فى السماء يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون .

والرجس : العذاب أو ما لا خير فيه .

● ✱ ●

وبين الله ما أحل أكله فى قوله ومن الأنعام . . . ثمانية أزواج ثم أمره أن يقول: لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتا إلخ ثم قال :

(قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)(١) .

أى هاتوا شهداءكم الذين يشهدون معكم ، وبهذا نبه بطلب إقامة الشهداء من الكافرين ليظهر أنه لا شاهد لهم على تحريم ما حرموه ، ثم قال (فإن شهدوا فلا تشهد معهم) ينبه على أن أنهم كاذبون إذا أتوا بشهداء فإن وقعت منهم شهادة فإن باعثها الهوى ، ومن ثم نهى الرسول عن اتباع أهوائهم لأنهم كذبوا بآيات الله ولأنهم لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من بعث وحساب وعذاب ولأنهم يعدلون بربهم فيجعلون له شركاء .

●★●

ثم قال تعالى :

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ

---

(١) الأنعام

بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)[1].

ينظرون : ينتظرون ، أى أنهم لا يؤمنون إلا إذا جاءهم أحد هذه الأمور : مجىء الملائكة أو مجىء الرب أو مجىء الآيات القاهرة من الرب (ومجىء الرب حكاية عنهم وهم كفار واعتقاد الكافر ليس حجة ولا دليلا على مجىء الرب ويجوز أن يكون الكلام على تقدير محذوف تقديره أو يأتى أمر ربك (يوم يأت بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل) أى حين تأتى بعض الآيات وهى علامات القيامة لا ينفع الإيمان نفسا تؤمن فى هذا الوقت وإنما ينفع الإيمان من آمنوا قبل مجىء علامات الساعة أو كسبت فى إيمانها الماضى خيرا .

ثم قال تعالى لنبيه : (قل انتظروا إنا منتظرون) وهذا وعيد وتهديد لهم بانتظار ما يأتى به الله والرسول ، والمؤمنون منتظرون ما يجزى به كل منهما فى الدنيا أو الآخرة .

قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها فذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل .

●★●

ونادى الله بنى آدم ليحذرهم من فتنة الشيطان، وقد جعله الله ولى الذين لا يؤمنون فقال تعالى :

(يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ

---

(١) الأنعام

الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُون)(١)

يحذر الله بنى آدم من وسوسة الشيطان حتى لا يفتنهم كما فتن أبويهما فأخرجهما من الجنة بوسوسته حال كونه ينزع عنهما لباسهما وأسند نزع اللباس إلى الشيطان لأنه كان سببا (ليريهما سوآتهما) .

قال ابن عباس : يرى آدم سوأة حواء وترى حواء سوأة آدم وقيل هو ثياب الجنة ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، القبيل الجماعة أى أن الشيطان وذريته وجماعته يرون أبناء آدم وأبناء آدم لا يرونهم (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) والمعنى : إنا حكمنا بأن الشيطان ولى من لا يؤمن وليس للشيطان سلطان على الذين يؤمنون .

●★●

— وقال تعالى :

(قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِليكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلٰهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)(٢) .

بعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس جميعا وهذا الخطاب فى الآية للأحمر والأسود والعربى والأعجمى : عن أبى موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة

(١) الأعراف

يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار (الذى له ملك السموات والأرض) ـ (لا إله إلا هو) ـ يحيى ويميت) ثم أمر الناس أن يؤمنوا (بالله ورسوله النبى الأمى) وهذه صفته الذى يؤمن بالله وكلماته (قيل كلماته هى القرآن وما أنزل على من قبله من الرسل ، وقيل الكلمة التى تكون عنها عيسى (كن) ـ (لعلكم تهتدون) رجاء أن تهتدوا .

●★●

وقال تعالى :

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)(١) .

وجههم الله إلى نظر الاستدلال فى ملكوت السموات والأرض وما تدلان عليه من عظم الملك والملكوت وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشىء من الأجناس المختلفة والعوالم المتعاينة وأنه أى الحال والشأن فى الحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ولعلهم يموتون عما قريب ليسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم قبل حلول الأجل ونزول العقاب . ولقد اقترب أجلهم فما لهم لا يسارعون إلى الإيمان بالقرآن قبل فوات الأوان ، وماذا ينتظرون بعد أن اتضح الحق ، وبأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به ، إن القرآن أحق بالإيمان به ، فما لهم لا يؤمنون ؟

●★●

وقال تعالى :

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ

---

(١) الأعراف

عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُون)[١] .

الدواب : جمع دابة وهى كل ما يدب على الأرض الذين جمعوا بين الكفر والتمادى فى نقض العهود ، قال ابن عباس : هم قريظة فإنهم نقضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعانوا عليه المشركين بالسلاح فى بدر، ثم قالوا أخطأنا فعاهدهم مرة أخرى فنقضوا عهدهم يوم الخندق ، وقد جعلهم الله شر الدواب ، لأن شر الناس الكفار وشر الكفار المصرون ، وشر المصريين الناكثون للعهود .

●★●

واستبعد الله أن يكون للمشركين عهد ثم قال كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا (عهدا) ولا ذمة ثم قال اشتروا بآيات الله (بالقرآن والإسلام) ثمنا قليلا . ثم قال تعالى :

(لا يَرْقُبُونَ فى مُؤْمِنٍ إلاًّ وَلَا ذِمَّةً وأُولَـٰئِكَ هُمُ المُعْتَدُون)[٢] .

الإل بكسر الهمزة وتشديد اللام : العهد وسمى إلاّ لظهوره وصفائه من شوائب الغدر وأولئك الذين تحدث الله عنهم لا يرقبون ولا يرعون فى مؤمن عهدا ولا ذمة (وأولئك هم المعتدون) يعتدون ما حده الله فى دينه وما يوجبه العقد والعهد وذلك نهاية الذم لهم .

●★●

وقال تعالى :

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ المُجْرِمِين)[٣] .

---

(١) الأنفال (٢) التوبة (٣) يونس

ولقد أهلكنا أهل القرون السابقين لما ظلموا بتكذيب الرسل حين جاء الرسل بالمعجزات البينات وما كانوا يؤمنون حقا وهذا الأسلوب تأكيد لنفى إيمانهم وكان السبب فى إهلاكهم تكذيب الرسل وعلم الله أنه لا فائدة فى إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعث الرسل ومثل ذلك الجزاء الذى جازى الله به أهل القرون يجزى الله كل مجرم ، وهذا وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب الرسول .

●★●

وقال تعالى :

(كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)(١)

أى مثل ذلك الحق حقت كلمة ربك أى كما حق أنهم مصروفون عن الحق فكذلك حقت كلمة ربك وإرادته (على الذين فسقوا) وتمردوا فى كفرهم (أنهم لا يؤمنون) أى حق عليهم انتفاء الإيمان .

●★●

وقال الله تعالى :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ)(٢)

ذكر الله قبل هذه الآية أنهم قالوا لقد افترى محمد القرآن ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله ثم قال : ومنهم من يؤمن به ويصدق فى نفسه أنه حق من عند الله ولكن عناده يدفعه إلى التكذيب ومنهم من يشك فيه ولا يصدق ، أو ومنهم من سيؤمن به مستقبلا ، منهم من سيصر على التكذيب والعناد وربك أعلم بالمعاندين أو المصرين ، وإن له عبادا قضى عليهم بالشقاء

---

(١) يونس (٢) يونس

هم الذين قال الله فيهم :

(إِنَّ الذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ) (١) .

أولئك هم الذين ثبت عليهم قول الله فى اللوح المحفوظ وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفارا فلا يكون غيره أى أنهم لايؤمنون أبداً ولو جاءتهم الآيات وتوالت عليهم البينات فكل ذلك لايغير من حالهم .

●★●

وقال تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونوا مُؤْمِنِين وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) (٢) .

كم كان يتمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمن الناس جميعا برسالته والإيمان بالله ولذلك خاطبه الله بقوله : (ولو شاء ربك) مشيئة القسر والإلجاء (لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) على وجه الإحاطة بحيث لم يتخلف منهم أحد عن الإيمان ويطبقون عن الإيمان ولايختلفون فيه ولست قادراً على إكراه الناس على الإيمان إنما القادر على إكراههم على الإيمان هو الله وحده لا يشاركه فيه أحد وليس هنالك نفس من الأنفس تؤمن إلا بإذن الله وهدايته .

●★●

وقال تعالى :

(قُلْ يا أَيُّها النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ

(١) يونس (٢) يونس

تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ولَـكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِين) (١) .

أمر الله نبيه أن ينادى فى الناس (الـكفار) ليخبرهم أنهم إذا كانوا شاكين فيما جاءهم به من الدين فإنه يعلن لهم أنه لا يعبد الذى يعبدونه من دون الله (من تلك الأوثان ولـكن يعبد الله الذى يتوفاهم كما أحياهم وقد أحياهم وقد أمره ربه أن يكون من المؤمنين ولن يعص أمر ربه .

● ★ ●

وقال تعالى :

(قُلِ انظُرُوا ماذَا فى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وماَ تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُون) (٢) .

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم انظاروا وأن يرشد الناس إلى النظر فى ملـكوت السموات والأرض وما فيهما من عوالم مختلفة الأجناس والألوان والعادات والتقاليد والعقول وفى كل ذلك عظات وعبر لمن شاء الله له الهدى والاعتبار ثم قال وما تغنى وتنفع الآيات والنذر والمنذرون عن قوم لا يومنون ولا يتوقع منهم الإيمان لأنهم لا يعقلون ما تحمل الآيات والنذر .

● ★ ●

وقال تعالى :

(وَقُلْ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَـكَانَتِـكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُون)(٣) .

---

(١) ونس (٢) يونس (٣) هود

أمر الله نبيه أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من عند ربه وهم أهل مكة وغيرهم اعملوا على طريقتكم وإنا عاملون على طريقتنا ونهجنا وانتظروا بنا الدوائر إنا منتظرون أن ينزل بكم مثل النقم التى حلت بأشباهكم وستعلمون من تكون له عاقبة الدار، وفى هذا الأسلوب من الوعيد والتهديد ما فيه .

●★●

وقال تعالى فى أول سورة الرعد :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ ولَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ)(١) .

المراد بالكتاب السورة أى تلك آيات السورة الكاملة والذى أنزل إليك من ربك (القرآن كله) هو الحق الذى لا مزيد عليه ولكن أكثر الناس لا يؤمنون به على أنه حق منزل من عند الله وذلك لشدة عنادهم وطغيانهم .

●★●

وقال تعالى :

(كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)(٢) .

والمعنى مثل ذلك المسلك نسلك الضلال وندخله فى قلوب المجرمين .

أما قوله : لا يؤمنون به فالضمير فيه يعود على الذكر وهو القرآن ، ولا يؤمنون به حال أى غير مؤمن به ، وقد خلت سنة الأولين، أى طريقتهم

---

(١) الرعد (٢) الحجر

التى منها الله إهلاكهم فى حين كذبوا برسلهم وبالذكر المنزل عليهم ، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم .

●★●

وقال تعالى :

(إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)(١) .

(فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) وحدانية الإله (وهم مستكبرون) عن عبادته لأنهم لا يرغبون فى تحصيل الثواب ولا يرهبون من الوقوع فى العقاب ، ومن ثم صاروا منكرين مستكبرين عن الرجوع إلى قول غيرهم

●★●

وقال تعالى :

(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ)(٢) .

إن الذين لا يؤمنون بالآخرة وحسابها لهم مثل السوء وهو عبارة عن الصفة السوء وهى احتياجهم إلى الولد وكراهتهم الإناث خوف الفقر والعار أما الله فله المثل الأعلى أى الصفة العالية المقدسة وهى كونه سبحانه منزها عن الولد .

●★●

ثم قال :

(أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)(٣) .

---

(١) النحل (٢) النحل (٣) النحل

والباطل الذى يؤمنون به هو منفعة الأصنام وبركتها وما ذلك إلا وهم باطل ، ومع هذا فليس لهم إيمان إلا به ، أما نعمة الله المشاهدة المعاينة التى لا شبهة فيها لذى عقل وتمييز فهم كافرون بها منكرون لها كما ينكر المحال الذى لا تتصوره العقول .

●✱●

وقال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لا يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)(١) .

أولئك الذين لا يؤمنون بآيات الله وأنها من عند الله لا يهديهم الله ، ولا يلطف بهم ، بل يسوقهم إلى النار ، إنهم يفترون الكذب على الله حين يقولون ليس هذا كلام الله وأولئك هم الكاذبون فيما قالوا ، وهذا رد لقولهم إنما أنت مفتر والمعنى : إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن .

والمعنى إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه واستثنى منهم المكره الذى يطمئن قلبه بالإيمان .

وأما من شرح بالكفر صدراً وطاب به نفساً واعتقده فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم .

---

(١) النحل

وقد روى أن أناساً من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه ، وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للايمان منهم عمار .

● ★ ●

وقال تعالى :

(إِنَّ هٰذَا الْقُرآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً وأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً)(١) .

فالقرآن يهدى للطريقة المستقيمة ويبشر المؤمنين ببشارتين : الأولى ثوابهم فى الآخرة والثانية عقاب أعدائهم الذين لا يؤمنون بالآخرة بالعذاب الأليم الذى أعـده لهم أو يبشر المؤمنين الذين عملوا الصالحات بالأجر الكبير ويخبرهم بأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعد لهم العذاب الأليم .

● ★ ●

وخاطب الله نبيه يبين لهم حالة الكفار حين سماع القرآن فقال تعالى :

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً)(٢) .

بين الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه إذا قرأ القرآن أقام الله بين قراءته أو ما يقرأه وبين الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة والبعث والحساب حجابا مستورا .

● ★ ●

(١) الإسراء (٢) الإسراء

وحكى الله تحدى الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم والإسراف فى طلب الآيات والمعجزات التي تدل على نبوته، وذلك فى قوله تعالى :

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا) (١) .

لقد أسرفوا وشطوا فى طلب الآيات وآيات بعينها حددوها ومعنى ذلك أنهم يعرضون نوع المعجزة التى تؤيد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

فقالوا لن نؤمن لك بأنك رسول إلا إذا حققت لنا :

١ — أن تفجر لنا من الأرض ينبوعا (عينا غزيرة) من شأنها أن ترسل الماء فلا ينقطع .

٢ — أو تكون لك جنة من النخيل والأعناب تفجر الأنهار خلالها .

٣ — أو تسقط السماء علينا كسفا وقطعا .

٤ — أو تأتى بالله والملائكة كفيلا بما تقول شاهدين بصحته .

٥ — أو يكون لك بيت من زخرف (من ذهب) .

٦ — أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه فيه تصديقك .

---

(١) الإسراء

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال عبد الله بن أبى أمية : لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتى معك بصك منشور معه أربعة ملائكة يشهدون لك أنك كما تقول .

وبعد كل هذا العرض أمر الله نبيه أن يقول متعجبا : سبحان الله هل كنت إلا رسولا كسائر الرسل بشرا مثلهم فليس أمر الآيات إلى إنما هو الله الذى يؤيد الله بها رسله فما لكم تفرضون أنواعها على الله .

●★●

ثم قال تعالى :

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا) (١) .

(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى) وهو الوحى أو ما منعهم الإيمان بالقرآن ونبوة محمد إلا شبهة خالجت صدورهم وهى إنكار أن يرسل الله البشر رسلا .

ولو كان أهل الأرض ملائكة لأرسل إليهم ملكا (قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) .

●★●

ثم قال فى القرآن :

(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) (١) .

---

(١) الإسراء (٢) الإسراء

أمر الله نبيه أن يعرض عن الكفار وأن يحتقرهم وألا يكترث بهم .

وإذا كانوا لم يؤمنوا بالقرآن أو يصدقوا به فإن خيرا منهم وأفضل وهم العلماء الذين قرأوا الكتب ، وعلموا ماهو الوحى وما هى الشرائع قد آمنوا به وصدقوا ، وثبت عندهم أنه النبى العربى المرسل من كتبهم وأولئك إذا تلى عليهم القرآن خروا سجدا تعظيما لأمره ، فقل للكفار : آمنوا بالقرآن أولاتؤمنوا فقد آمن به من هم خير منكم .

● ★ ●

ويقول الله لرسوله :

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً)(١) .

فلا يعظم حزنك وأسفك بسبب كفرهم فإنا بعثناك مبشراً ونذيراً وبخع الرجل نفسه قتلها غيظا .

والتقدير إن لم يؤمنوا بهذا الحديث (القرآن) فلعلك باخع نفسك وقاتلها غيظا وأسفاً وحزناً والأسف : المبالغة فى الحزن .

ولما أمر الله رسوله ألا يلتفت إلى أولئك الأغنياء الذين قالوا إن طردت الفقراء آمنا بك قال الله تعالى :

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)(٢).

والمعنى : قل لهؤلاء إن هذا الدين الحق إنما أتى من عند الله فإن

---

(١) الكهف (٢) الكهف

تقبلوه عاد النفع إليكم وإن لم تقبلوه عاد الضرر عليكم والله تعالى لا ينتفع بإيمان المؤمنين ولا يستضر بكثر الكافرين وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها .

●★●

وقال تعالى :

(وما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِروا رَبَّهُم إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُم سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُم الْعَذَابُ قُبُلًا)[1] .

لقد جاء الهدى وهو الدليل الدال على صحة الإسلام فلماذا لم يقبلوا على الإسلام وما الذى منعهم من الإيمان والاستغفار حين جاء إنه الهدى لم يمنعهم إلا أن تحل بهم سنة الأولين من عقاب جزاء تكذيب الرسل أو تتوالى عليهم ضروب العذاب .

والمعنى أنهم لم يقدموا على الإسلام إلا عند نزول العذاب والاستئصال بهم أو عند تواصل العذاب والبلاء بهم فى الحياة الدنيا فهم لا يقبلون على الإسلام إلا عند تحقق الأمرين وقرىء قبلا » بكسر القاف وفتح الباء أى عيانا .

●★●

وأمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن ينذر الناس بيوم الحسرة وهو يوم القيامة ، فقال تعالى :

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فى غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُون)[2] .

---

(١) الكهف (٢) مريم

وهكذا أمر الله نبيه أن ينذر الكافرين يوم الحسرة ويخوفهم منه إذ قضى الأمر بفناء الدنيا وزوال التكاليف ، وقد ظهرت لهم الحجج وهم فى غفلة عنها ، وهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله (إذ قضى الأمر) فقال : حين يجاء بالموت فى صورة كبش أملح فيذبح، والفريقان ينظران فيزداد أهل الجنة فرحا على فرح وأهل النار غما على غم (وهم فى غفلة عن ذلك) اليوم (وهم لا يؤمنون) بذلك اليوم .

وقال تعالى :

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)[1] .

والمعنى : إن الكافرين إذا سمعوا آيات الله وهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا فلم يفقهوا الدلائل الواضحة التى تدل على صدق ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا للمؤمنين : أى الفريقين من المؤمنين بالآيات والجاحدين لها أوفر حظا وخير مقاما وأحسن منازل وأرفع دورا وأحسن نديا .

وقال تعالى :

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى)[2] .

---

(١) مريم (١) طه

وبعد أن توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين المعيشة الضنك فى الدنيا وحشره أعمى فى الآخرة قال ومثل ذلك الجزاء نجزى به من أسرف فى الدنيا ولم يؤمن بآيات ربه فأشرك أو كفر أو أسرف فى المعاصى ولم يؤمن بآيات الله (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) ولعذاب الآخرة لتركنا إياه فى العمى أشد وأبقى من تركه لآياتنا .

●★●

ولقد قالوا عن القرآن : إنه أضغاث أحلام ، ثم قالوا فليأتنا بآية كما أرسل المرسلون بالآيات كآيات موسى وآيات عيسى وكان الجواب :

(مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ)(١) .

والمعنى أن عتوهم أشد من عتو الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات من قبل وعاهدوا أنهم يؤمنون عند مجيئها ، ثم جاءتهم الآيات ، فنكثوا العهد ، فأهلكهم الله ، فلو أعطيناهم ما اقترحوا لكانوا أشد نكثا ، وقال الحسن رحمه الله : إنهم لم يجابوا لأن حكم الله أن من كذب بعد الإجابة إلى ما اقترحه من الآيات فلابد من أن ينزل به عذاب الاستئصال ، وقد مضى حكمه فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة بخلاف ذلك الاستئصال ولذلك لم يجبهم إلى ما اقترحوه .

●★●

وقال تعالى :

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)(٢) .

---

(١) الأنبياء (٢) الأنبياء

والمعنى أو لم يعلم الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا)
والرتق : السد والفتق : الفصل بين الشيئين الملتصقين » والمعنى كانتا شيئا
واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هى وأقر الأرض .

(وجعلنا من الماء كل شىء حى) والله خلق كل دابة من ماء قيل الحيوان
فقط من الماء وقيل يدخل فيه النبات والشجر لأنه نما من الماء .

وأخيراً قال الله : (أفلا يؤمنون) بأن يتدبروا هذه الأدلة فيعلموا
بها أنه الخالق الذى لا يشبهه غيره ويتركوا الشرك الذى هم عليه .

وقال تعالى :

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا
وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ
ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)(١) .

ويوم القيامة ينادى الكفار ربهم : ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا
قوما ضالين .

ويقول لهم الله (اخسئوا فيها) أى ذلوا وانزجروا كما يزجر الكلاب
(ولا تكلمون) فى رفع العذاب عنكم ثم قال : إنه كان فريق ألخ .

وبهذا وصف الله مابه عذبوا وبعدوا من الخير ، وهو ما عاملوا به
المؤمنين الذين كانوا يقولون ربنا آمنا ويسألونه الغفران والرحمة لأنه خير
الراحمين فسخر منهم الكفار وضحكوا عليهم .

والمعنى : اتخذتموهم هزءا وتشاغلتم بالسخرية منهم .

---

(١) المؤمنون

وقد ذكر الله فى سورة (المؤمنون) أنه أرسل الرسل إلى أقوامهم فكذبوهم فأخذهم العذاب منذ أرسل نوحاً إلى قبيل إرسال موسى حيث قال تعالى :

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)(١) .

والمعنى أن الله والى إرسال الرسل متتابعين (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وكلما جاء رسول إلى أمته وأبلغهم رسالته ودعوته كذبوه فأهلكناهم وأتبعنا بعضهم بعضا ، وجعلناهم أحاديث وسيرا وعبرا لمن يعتبر ، فبعداً وسحقاً وهلاكا لقوم لا يؤمنون برسلهم وبما أرسلوا به .

وخاطب الله نبيه الذى كان حريصاً على إيمان قومه بقوله :

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)(٢) .

والبخع : أبلغ الذبح وأقصاه وأراد به القتل ، ولعل : للاشفاق ، والمعنى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على مافاتك من قومك (ألا يكونوا مؤمنين) لامتناعهم عن الإيمان أو حنيفة ألا يؤمنوا .

وحدث الله عن القرآن أنه تنزيل من رب العالمين نزل به جبريل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ينذر به ، وأن الله أنزله بلسان عربى .

---

(١) المؤمنون (٢) الشعراء

ثم قال تعالى :

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِين فقَرَأَهُ عَلَيهم مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِين)[١] .

والمعنى : إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربى بلسان عربى فسمعوه وعرفوا فصاحته وإعجازه ولو نزله الله على بعض الأعاجم الذى لا يحسن العربية فقرأه عليهم فصيحاً معجزاً متحدى به لكفروا به ولعجملوا لجهودهم عذرا لأنه لم ينزل بلغتهم فيفهموه .

● ★ ●

وقال الله تعالى فى سورة النمل :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُون)[٢] .

أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من بعث وحساب زين الله لهم أعمالهم ، ومعنى تزيينها لهم أنه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق وجعلوا إنعام الله عليهم بذلك ذريعة إلى اتباع شهواتهم وتفارهم عن التكاليف فكأنه زين لهم بذلك أعمالهم ، وإليه أشارت الملائكة بقولهم : ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر) ، (فهم يعمهون) والعمه : التحير والتردد كما يكون حال الضال عن الطريق ، وكأن الله مد لهم فى غيهم فهو يتيهون فى ضلالهم .

● ★ ●

وقال تعالى :

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُم مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا

---

(١) الشعراء (٢) النمل

لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[١] .

والمعنى : لولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا على الشرك والمعاصى : (هلا أرسلت إلينا رسولا) محتجين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم يعنى أن إرسال الرسل إليهم إنما هو ليلزموا الحجة حتى لا يقولوا هلا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونؤمن به وبدعوته وبهذا أراد الله أن يقطع عذرهم بسبب كفرهم فيكون لديهم ما يحتجون به .

وقال تعالى :

(وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)[٢] .

لقد كان يقول كفار قريش لمن آمن : لا نبعث نحن ولا أنتم فإن عسى كان ذلك البعث فإنا نتحمل عنكم آثامكم وذنوبكم وحكى الله ذلك القول الذى قاله الكفار للمؤمنين حينما طلبوا منهم أن يتبعوا سبيلهم التى كانوا عليها فى دينهم على أن يحملوا عنهم خطاياهم إذا كان هنالك بعث، وقد رد الله عليهم ما عرضوه فنفى أنهم يستطيعون حمل شىء من خطايا من آمن،وأكد ذلك بقوله : (إنهم لكاذبون) فيما قالوا وفيما عرضوا (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم يوم القيامة .

وطلب الكفار من الرسول آية من ربه وأمره أن يخبرهم أن الآيات عند الله ثم قال أو لم يكفهم القرآن آية ثم قال تعالى :

---

(١) القصص (٢) العنكبوت

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)(١) .

والمعنى : كفى بالله شهيدا أنى قد بلغت ما أرسلت به إليكم وأنى أنذرتكم وأنكم أعرضتم وقابلتم كل ما جئتكم به بالتكذيب ،والله الذى يعلم ما فى السموات والأرض مطلع .

(والذين آمنوا بالباطل) منكم وهو ما تعبدون من تلك الأوثان (وكفروا بالله) وبآيات الله (أولئك هم الخاسرون) المغبونون فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان .

● ★ ●

وقال تعالى :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ(٢) وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ) .

لقد عاش العرب حياتهم قبل الإسلام فى غزو وصراع ونهب إلا أهل مكة فقد قرت بهم الديار وتلك نعمة يذكرهم الله بها ويمن عليهم أن جعل مكة حرماً آمناً من الغزو والغارة على حين تتخطف الأحياء والبلاد من حولهم ولهذا وبخهم الله فى ذلك الاستفهام بأنهم يؤمنون بالباطل الذى هم عليه من عبادة الأوثان وارتكاب الفواحش ومثل نعمة الأمن وغيرها من النعم التى منحهم الله وحده مكفورة عندهم .

● ★ ●

---

(١) العنكبوت (٢) العنكبوت

وقال تعالى :

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)(١) :

كان المسلمون يقولون : إن الله سيفتح لنا على المشركين ويفتح بيننا وبينهم فإذا سمع المشركون قالوا : (متى هذا الفتح) وفى أى وقت (إن كنتم صادقين فيما تقولون) وكان جواب الله أمر محمد صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم : (يوم الفتح) وهو يوم القيامة والفصل بين المؤمنين وبين أعدائهم (لا ينفع الذين كفروا إيمانهم) لقد سألوا عن يوم الفتح استعجالا على وجه الاستهزاء فكان الجواب حسب غرضهم كأنما قيل : لا تستعجلوا ولا تستهزئوا فكأنا بكم فى هذا اليوم وقد آمنتم عند رؤية العذاب فلم ينفعكم إيمانكم وطلبتم الانتظار والتمهل فى العذاب فلم تمهلوا ولم تنظروا .

فإذا حل بكم بأس الله فى الدنيا والأخرى فهذا يوم الفتح الذى لا يجدى فيه تظاهر بالإيمان والخضوع .

● ★ ●

وحكى الله قول الكافرين الذين أنكروا البعث وتكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر وجواب الله في هذا فقال تعالى :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)(٢) .

لقد قال كفار قريش بعضهم لبعض (هل ندلكم على رجل) يريدون

---

(١) السجدة (٢) سبأ

محمدا صلى الله عليه وسلم يحدثكم بالأعاجيب فيقول : إنكم بعد تمزق أجسادكم ستنشئون من جديد وتعودون إلى خلق جديد ، أهو مفتر على الله كذبا بما يقول وما يدعى أم به جنة أصيب بها فهو يهذى .

ثم أجاب الله : ليس محمد بالمفترى على الله الكذب ، وليس به جنة بل الكافرون باليوم الآخر وبالبعث واقعون فى عذاب النار يدفعهم إليه الضلال عن الحق .

●✖●

وقال تعالى .

(وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذا القُرآنِ وَلا بالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ القَوْلَ يَقولُ الذينَ اسْتُضْعِفوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ وَقالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الهُدَى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِين)(١) .

روى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتبهم فأغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن كل ما سبقه من الكتب فكفروا بها جميعاً وذلك معنى قولهم : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه أى ما سبقه من الكتب .

ثم خاطب الرسول ليصور له موقف المستكبرين والضعفاء يوم القيامة حين يتجاذبون الحديث ويتراجعون مواقفهم فى الدنيا وهم موقوفون بين يدى

---

(١) سبأ

الله فيقول المستضعفون المستكبرين : لقد أخضعتمونا وحملتمونا قهرا على اتباعكم ولولا أنتم ولولا بأسكم لكنا مؤمنين وقال المستكبرون للمستضعفين أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ وبعد أن صممتم على الكفر ، واخترتموه بل أنتم منعتم أنفسكم، وآثرتم الضلال وأطعتم شيطانكم فكنتم مجرمين كافرين لاختياركم لا لقولنا .

وقال تعالى :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)(١) .

يسأل الله الملائكة ليجيبوا فيكون تقريع الكفار فى هذا الموقف أشد

يقول الله للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون وتجيب الملائكة : « سبحانك لا معبود سواك » (أنت ولينا من دونهم) إذ لا موالاة بيننا وبينهم (بل كانوا يعبدون الجن) يريدون الشياطين حيث أطاعوهم فى غير الله ، (أكثرهم بهم مؤمنون) يعنى أكثر الكفار مؤمنون بهؤلاء الجن يعبدونهم لإيمانهم بهم .

وحين يفزع الكفار من هول يوم القيامة وقد أخذوا للحساب بين يدى الله حكى الله قولهم فى هذا الموقف فيقول :

(وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)(٢) .

---

(١) سبأ (٢) سبأ

يقولون آمنا به : أى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والتناوش : التناول وهذا تصوير لطلبهم ما لا يكون وهو أن ينفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت كما ينفع المؤمنين إيمانهم فى الدنيا ، ويتعجب الله من محاولتهم تناول الشيء من مكان بعيد ، إنهم فى الآخرة قد بعدوا عن دار العمل ، وصاروا إلى دار الجزاء ، فكيف ينالون وهم فى دار الجزاء ما لا ينال إلا فى دار العمل .

●★●

قال تعالى :

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)(١) .

والمعنى : لقد وجب العذاب وحق القول على أكثر الكفار وهو قوله تعالى : لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين فحق قول الله عليهم وختم عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون بالله ولهذا لا تؤثر فيهم النذر .

●★●

ثم قال تعالى :

(وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)(٢) .

والمعنى : إن الإنذار وعدمه سيان بالنسبة إلى حصول الإيمان إذ لا وجود له أبداً وإذا كان الإنذار وعدمه سيان فما الداعى إلى الإنذار ، إن الداعى لذلك الإنذار هو بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم ليس كعدمه لأنه مخرج له عن المسئولية وبالنسبة إليهم لينال ثواب الإنذار وإن لم ينتفعوا به .

قال تعالى :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) يس (٢) يس

لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَه)[١] .

فى الآية بيان أن المال مال الله فهو الذى رزق الكفار وأعطاهم فإذا طلب منهم أن ينفقوا على فقراء المسلمين شفقة . قالوا : إن إلهكم يرزق من يشاء أى إن هؤلاء الذين أمرتونا بالإنفاق عليهم لو شاء الله لأغناهم وأطعمهم من رزقه .

●✶●

ويحكى الله موقف المتبوعين من التابعين يوم القيامة فى قوله :

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)[٢].

صور الله هذا الموقف وهم يقبل بعضهم على بعض يتحاورون ويلقى كل منهم مسئولية الكفر على غيره فيقول التابعون الضعفاء للمتبوعين الذين كانوا يتكبرون فى الأرض بغير الحق : (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) عن طريق البطش والقوة حتى تحملونا على الضلال وعبر باليمين لأنها مستعارة للقوة وبها يكون البطش .

وأجاب المتبوعون المستكبرون (بل لم تكونوا مؤمنين) بل أبيتم الإيمان وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه فاخترتم الكفر بدلا من الإيمان (وما كان لنا عليكم من سلطان) نسلبكم به تمكنكم واختياركم .

● ★ ●

وحكى الله حال الكفار إذا ذكر الله وحالتهم إذا ذكرت آلهتهم فقال :

---

(١) يس (٢) الصافات

(وإذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قلوبُ الذينَ لا يُؤمنُونَ بِالآخِرَةِ وَإذا ذُكِرَ الَّذينَ مِنْ دُونِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)[1] .

فهؤلاء الكفار إذا أفرد الله بالذكر وحده ولم يذكر معه آلهتهم اشمأزوا ونفروا وانقبضوا (وإذا ذكر الذين من دونه) وهم آلهتهم وذكر الله معهم أو لم يذكر استبشروا لافتتانهم بآلهتهم ونسيانهم حق الله .

● ★ ●

وقال تعالى :

(إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أنفُسَكُمْ إذْ تُدْعَوْنَ إلَى الإيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)[2] .

والمقت أشد البغض والمعنى : أنه يقال لهم يوم القيامة : كان الله يمقت ويبغض أنفسكم الأمارة بالسوء حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأبون قبوله وتختارون الكفر ومقت الله لكم وأنتم فى هذه الحالة فى الدنيا أشد من بغضكم وكرهكم لأنفسكم اليوم وأنتم فى النار إذ أوقعتكم فيها باتباعكم هوى النفس .

● ★ ●

قال تعالى :

(الَّذينَ يُجادِلُونَ فِى آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذينَ آمنُوا)[3] .

إن الله يضل من هو مسرف في عصيانه من أولئك الذين يجادلون

---

(١) الزمر (٢) غافر

فى آيات الله بغير حجة جاءتهم ، كبر بغضا عند الله وعند المؤمنين مثل ذلك الجدل الذي لايعتمد على بينة وحجة .

●✶●

وقال تعالى :

(إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)(١)

بين الله فى أسلوب مؤكد أن الساعة آتية ولابد أنها واقعة (لاريب فيها) ولكن أكثر الناس ممن كفروا باليوم الآخر لايصدقون بها بل يكذبون بالقيامة وما وراءها من حساب وعذاب أو ثواب .

● ★ ●

قال تعالى :

(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا)(٢) .

أخبر الله عن الأمم المكذبة للرسل أنهم قد أحاط بهم ما كانوا يستبعدون وقوعه وحينما عاينوا العذاب (قالوا آمنا بالله وحده) وذلك بعد أن رأوا شدة العذاب النازل بهم ، وبذلك أعلنوا الإيمان والتوحيد وكفروا بالطواغيت ولم يك ينفع الإيمان لأنهم لم يؤمنوا إلا بعد أن رأوا بأس الله يحل بهم حيث لاينفع الإيمان فى هذا الوقت .

●★●

وقال تعالى حول القرآن :

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ

---

(١) غافر (٢) غافر

وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)(١).

روى أن الكفار لأجل التعنت قالوا: لو نزل القرآن بلغة العجم فنزلت الآية: ولو جعلناه قرآنا أعجميا أى بلغة العجم كما طلبوا لطعنوا فيه وقالوا كيف أرسلت الكلام العجمى إلى القوم العرب وقالوا لولا فصلت آياته وسألوا فى إنكار أقرآن أعجمى ورسول عربى؟

وأمر الله نبيه أن يقول لهم: هو للذين آمنوا هدى وشفاء أما كونه هدي فلأنه دليل ومرشد للخير وأما أنه شفاء فلأنه يشفى من مرض الكفر والجهل.

وأما أولئك الذين ضلوا فلم يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر ولا بالرسول ولا بما أنزل عليه فالقرآن وقر فى آذانهم وهو عليهم عمى وكأنما جعل القرآن ثقلا فى الآذان فهم لا يفهمون مافيه إن سمعوا آياته وغشاوة بل عمى قضى على أبصارهم فلم يروا شيئا.

●✱●

ويقول الله لرسوله:

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ)(٢).

يخبر الله أن الساعة لعل وقتها قريب ثم قال: (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) وهم منكرو البعث وكثيراً ماسألوا متى تقوم الساعة ساخرين

---

(١) فصلت (٢) الشورى

من أخبار الرسول حول القيامة والبعث وأما الذين آمنوا فهم يشفقون ويخافون لعلمهم أن عندها تمتنع التوبة .

● ★ ●

وقال الله :

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤفَكُون وقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنون)(١) .

إنهم ليعتقدون أن الذى خلق العالم والحيوان هو الله فكيف وهم على هذا الاعتقاد يقدمون على عبادة الأصنام فكيف يكذبون ويقولون : إن الله أمرنا بعبادة الأصنام .

وفى الكلام حذف تقديره : واذكر قيله يارب وقيل : مصدر القول وحينما ضجر النبى صلى الله عليه وسلم منهم وعرف إصرارهم أخبر عنهم أنهم قوم لا يؤمنون .

● ★ ●

وفى أول سورة الدخان يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :

(فارْتَقِبْ يَومَ تَأْتِى السَّماءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنونَ)(٢) .

يأمر الله نبيه أن ينتظر ويترقب عذاب الكافرين يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس .

وقال بعض المفسرين : إن الدخان الذى ذكر فى قوله يوم تأتى السماء بدخان هو إحدى علامات القيامة

---

(١) الزخرف (٢) الدخان

وقد حكى الله عنهم أنهم يقولون عندئذ : (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) أى مؤمنون بمحمد والقرآن والمراد منه الوعد بالإيمان إن كشف عنهم العذاب .

●★●

وقال الله :

(تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُون)[١] .

فتلك إشارة إلى الآيات التى ذكرها فى أول السورة ، والمعنى إذا لم يؤمنوا بما ذكرنا من الآيات فى هذا الحديث ولم تنفعهم هذه الآيات بالإيمان فلا شىء بعدها يمكن لهؤلاء الكفار أن ينتفعوا به ، وكم ذكر الله فى القرآن من آيات تتضمن البراهين والدلائل تنادى أولئك الذين أعرضوا عنها وكأن فى أسماعهم وقرا فهم لا يسمعون .

●★●

وقال تعالى يحكى مقالة الكفار للمؤمنين :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)[٢] .

كان كفار مكة يقولون : إن عامة من يتبع محمدا هم السقاط يعنون الفقراء مثل عمار وصهيب وابن مسعود فلو كان ما جاء به خيراً ماسبقنا إليه هؤلاء .

●★●

---

(١) الجاثية (٢) الأحقاف

وقال تعالى :

(وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا)[1].

بين الله فى الآية أنه من لم يجمع بين الإيمان بالله والإيمان برسوله فهو من الكافرين .

● ★ ●

وقد أعد الله للكافرين السعير جزاء كفرهم وعدم إيمانهم بالله ورسوله.

ولقد رمى الكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكهانة والشعر وأنه افترى على ربه القرآن فقال الله يحكى قولهم فى القرآن :

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)[2].

وتقدير الكلام : أتقولون كاهن أم تقولون شاعر أم تقوّل هذا القرآن على ربه وهو من وضع محمد صلى الله عليه وسلم فإذا كانوا يرون أنه تقوله على الله فمحمد عربى مثلهم ينطق بالعربية وهم عرب لهم فصاحتهم وبيانهم فليأتوا بمثل ما أتى ، فإن كانوا صادقين فى دعواهم فليأتوا بمثله .

● ★ ●

وقال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى)[3].

فالذين لايؤمنون بالاخرة هم الذين لايؤمنون بالرسل ولا يتبعون

---

(١) الفتح (٢) الطور (٣) النجم

الشرع وإنما يتبعون ما يدعون أنه عقل فيقولون أسماء الله ليست توقيفية ويسمون الملائكة تسمية الأنثى أي كما سمى الإناث بنات (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم) .

وقال تعالى :

(ومَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والرَّسولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنوا بِرَبِّكُمْ وَقدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مؤْمنِينَ)[١] .

قوله تعالى : ومالكم : يدل على قدرتهم على الإيمان ويتساءل مالكم لا تؤمنون بالله والحال أن هنالك أمرين يوجبان الإيمان :

الأول : أن الرسول يدعوكم إلى الإيمان حين يتلو عليكم القرآن وفيه الدلائل الواضحة التي تدل على وجود الله وقدرته .

الثاني : أنه أخذ الميثاق والأصح في أخذ الميثاق : ما وجد في العقول من الدلائل الموجبة لقبول دعوة الرسل فكأنه بتلك الدلائل أخذ الميثاق على الناس أن يؤمن بما دعا إليه الرسل فإن كنتم مؤمنين حقا فآمنوا بربكم

وقال تعالى :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مؤْمِنٌ)[٣] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : خلق بني آدم مؤمنا وكافراً ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمنا وكافراً .

ثم قال تعالى :

(فـآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا مَعَهُ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)[١] .

---

(١) الحديد　　(٢) التغابن　　(٣) التغابن

بعد أن أخبر الله بالبعث أمرهم بالإيمان بالله ورسوله والقرآن الذى أنزل وهذا هو المراد بقوله : والنور الذى أنزل معه لئلا ينزل بـكم ما نزل بغيركم من العقوبة وكان القرآن نورا لأنه يهتدى به فى الشبهات كما يهتدى بالنور فى الظلمات (والله بما تعملون خبير) أى هو خبير بما تسرون وما تعلنون فراقبوه وخافوه .

وحكى الله حكاية من يؤتى كتابه بشماله فيهتف حزنه وندمه : ياليتني لم أوت كتابى وينادى الحق : خذوه فغلوه ثم أورد له التعليل فقال :

(إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ)[1] .

وقد كان سبب أخذه وغله وإلقائه فى الجحيم وسلكه فى السلسلة أنه لم يكن يؤمن بالله العظيم ووصف الله نفسه بالعظم لأنه وحده المستحق للعظمة سبحانه .

لقد أكثر الله من الوعيد الذى صبه على الكفار فى سورة المرسلات .

إلى أن قال :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)[2] .

بين أن هؤلاء الكفار من صفتهم أنهم إذا دعوا إلى الصلاة لا يصلون ثم هدد بالويل يوم القيامة للمكذبين .

وكم ساق الله فى السورة من ألوان الزجر للكفار وحث على التمسك بالنظر والاستدلال والانقياد للدين الحق ، ثم ختم السورة بالتعجب من الكفار ، وبين أنهم إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل مع وضوحها فبأى حديث بعده يؤمنون .

---

(١) الحاقة (٢) المرسلات

وقال تعالى وهو يتحدث عن المجرمين من الكفار وقد كانوا يضحكون ويستهزئون بالمؤمنين فى الدنيا ثم أخبر أنه فى يوم القيامة ينقلب الوضع فيضحك المؤمنون من الكافرين حين يرونهم فى العذاب يغرقون فقال الله سبحانه جلت قدرته :

(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)(١) .

والذين أجرموا من المشركين هم : أبو جهل وأمثاله وقد كانوا يضحكون من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين .

وقد حكى الله عن المجرمين أنواعا من القبائح .

أولها : أن المجرمين كانوا يضحكون من المؤمنين .

ثانيها : أنهم كانوا يتغامزون بحواجبهم وجفونهم حينما يمر بهم المؤمنون .

ثالثها : أنهم إذا رجعوا إلى أهلهم رجعوا فاكهين معجبين بما هم فيه من الشرك والتنعم بالدنيا أو يتفكهون بذكر المسلمين بالسوء .

رابعها : أنهم إذا رأوا المسلمين قالوا إنهم لضالون أى هم على ضلال فى تركهم التنعم بالحاضر بسبب طلب ثواب لايدرى له وجود ثم قال الله : (فاليوم) يوم القيامة (الذين آمنوا من الكفار يضحكون) فتنقلب

---

(١) المطففين

الأوضاع حيث يضحك المؤمنون من الكفار حينما يرون ماهم فيه من الهوان والذل بعد الخيلاء والكبرياء ، وقال تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ)[1].

أقسم الله بالشفق والليل والقمر أما المقسم عليه فهو قوله : (لتركبن طبقا عن طبق) أى لتركبن أمورا بعد أمور وأحوالا بعد أحوال فيلقون يوم القيامة شدائد بعد شدائد وأهوالا بعد أهوال كأنهم لما أنكروا البعث أقسم الله أن البعث كائن وأن الناس يلاقون فيها الشدائد فلم يفرغوا من شدة إلا تواجههم شدة أخرى .

ثم جاء الاستفهام الإنكارى : (فما لهم لايؤمنون) أى لايؤمنون بصحة البعث والقيامة لأن الله حكى عن الكافر أنه ظن أنه لن يرجع إلى الحياة فكان السؤال (فما لهم لايؤمنون) ؟ بعد ظهور الحجة ووضوح الدلائل على وجود الله وقدرته (وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون) .

أى ومالهم إذا قرىء عليهم القرآن وهم أهل فصاحة وبيان لايسجدون ولا يخضعون للقرآن المعجز ببيانه وفصاحته وما يدل عليه باعجازه عن صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ووجوب طاعته فيما جاء به من ربه من الأوامر والنواهى .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وما توفيقى إلا بالله

[تم الطبع فى ليلة القدر والحمد لله]

---

(١) الانشقاق

المراجع

١ — تفسير ابن كثير

٢ — تفسير الفخر الرازى

٣ — تفسير أبو السعود

٤ — تفسير الكشاف

٥ — تفسير الألوسى

٦ — السيرة لابن هشام

٧ — مروج الذهب للمسعودى

فهرس الكتاب

الموضوع	رقم الصحيفة
المقدمة	٣
تعريف الإيمان	٧
الفصل الأول : نداء المؤمنين فى القرآن	٩
الفصل الثانى : الإيمان مع خطاب الرسول وندائه	٨١
الفصل الثالث : الإيمان المقترن بالعمل	٨٨
الفصل الرابع : ماجاء من الإيمان حول المؤمنين	١٤٣
الفصل الخامس : الإيمان فى القصص القرآنى	٣٠٢
الفصل السادس : الإيمان حول مؤمنى أهل الكتاب	٣٨٢
الفصل السابع : الإيمان حول الكتابيين	٣٨٩
الفصل الثامن : الإيمان حول المنافقين ومواقفهم	٤١٣
الفصل التاسع : الإيمان حول الكفار ومواقفهم	٤٣١

رقم الايداع ١٩٧٩/٤١٨٤

الترقيم الدولى ٦ ـ ٧٤ ـ ٧٠٠١